التحولات في المكانة الاجتماعية للمرأة في الرواية الفلسطينية المعاصرة

"دراسة مقارنة لما قبل مرحلة اوسلو وبعدها"

Transformations in the Social Status of Women in the Palestinian Novels

"Comparative study of pre- Oslo and after"

وسام يعقوب رفيدي

28 نيسان 2005

إشراف: د. مجدي المالكي

د. محمود العطشان

د. إسماعيل الناشف

"قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في برنامج علم الاجتماع (التنمية والسياسات والبحوث الاجتماعية) من كلية الدراسات العليا في جامعة بيرزيت- فلسطين"

وسام يعقوب رفيدي

التحولات في المكانة الاجتماعية للمرأة في الرواية الفلسطينية
"دراسة مقارنة لمرحلة ما قبل اوسلو وبعدها"

28 نيسان 2005

د. مجدي المالكي:_____

د. محمود العطشان:_____

د. إسماعيل الناشف:_____

شكر وتقدير

ما كان لهذه الدراسة- المغامرة كما كان يسميها المشرف الأول د. مجدي المالكي- أن تتم لولا الإسناد، لا الأكاديمي فحسب، بل والصديق أيضاً من المشرف الأول وأعضاء لجنة الإشراف، د. محمود العطشان أستاذ الأدب الحديث، ود. إسماعيل الناشف أستاذ الأنثروبولوجيا. لذلك، حق لهم أن أشكرهم على ما بذلوه من جهد وتقديم النصح والتوصية المستمرة والمتأنية حتى تكون الدراسة على ما هي عليه.

كما لا يمكن إهمال الدور ألإسنادي الصديق لزوجتي رلى أبو دحو التي مع انشغالها هي الأخرى بإنجاز أطروحتها للماجستير لم تبخل عن إظهار اهتمامها والقيام بكل ما يمكنها لتسهيل عملي.

وسام رفيدي

نيسان 2005

المحتويات

مقدمة

القسم الأول

الإطار النظري والمنهجية **4**

الفصل الأول

الإطار النظري والأدبيات **4**

أولاً: قضايا نظرية

ثانيا: الرواية والعلاقات الكولونيالية

ثالثاً: قضايا نسوية في التجربة الفلسطينية

رابعاً: أدبيات في حقل المرأة الفلسطينية والرواية

خامساً: سؤال الدراسة وفرضياتها

الفصل الثاني **25**

منهج الدراسة وعينتها 25

أولاً: منهج الدراسة **26**

1:1 تحقيب الدراسة والعينتان الرئيسية والثانوية

1: 2 العينتان الرئيسية والثانوية

1: 3 منهجية السيرة الذاتية

ثانياً: حول منهجية تحليل النص **28**

2: 1 الفني والاجتماعي

2: 2 تقابلات المرأة والرجل

2: 3 حول رمزية المرأة – الرمز والتمثيل

2: 4 النص بين المنتج والقاريء

2: 5 وحدة التحليل

2: 6 أدوات القياس- المؤشرات

ثالثاً: الصعوبات التي واجهت الدراسة **32**

القسم الثاني

الواقع السياسي/ الاجتماعي الفلسطيني **35**

1967- ما بعد أوسلو

أولاً: التحولات الاجتماعية والسياسية على الفلسطينيين بعد النكبة- نشوء اللاجئين 34

ثانياً: الفلسطينيون داخل الدولة العبرية 36

2: 1 التحولات السياسية

2: 2 التحولات الاجتماعية

ثالثاً: التحولات السياسية بعد حزيران 1967 وأدوار القوى الاجتماعية 38

3: 1 النظام السياسي بعد أوسلو

رابعاً: التركيب الاجتماعي/ الطبقي في الضفة الغربية والقطاع 43

4: 1 التركيب الطبقي الموروث من العهد الأردني

4: 2 التركيب الطبقي بعد العام 1967

خامساً: التركيب الطبقي الجديد- ما بعد أوسلو 47

سادساً: أبرز الظواهر السوسيولوجية بعد العام 1967 49

6: 1 عرقلة التطور المديني

6: 2 سيطرة الثقافة الريفية

6: 3 استمرار التمييز ضد النساء

6: 4 سيطرة العائلة الفلسطينية- إعادة انتاج لعلاقات القوة والثقافة السائدة

6: 5 انعدام الاستقرار السياسي والاقتصادي- تشرذم المجتمع الفلسطيني

6: 6 التحولات المهنية وتأثيراتها على البنية الاجتماعية

سابعاً: الحركة النسوية الفلسطينية 58

القسم الثالث

المرأة الفلسطينية بعد العام 1967 61

المقاومة وحلم العودة

الفصل الأول

اكتشاف امرأة " خيمة عن خيمة تفرق " 61

أولاً: السياق الداخلي للرواية

ثانياً: بنية داخلية فنية- بنية تاريخية اجتماعية موازية

ثالثا: توازي البنيتين الفنية والاجتماعية- نخب جديدة وأدوار جديدة

رابعاً: المخيم- بؤرة العوامل المتفجرة، وأم سعد نقطة تمركزها

خامساً: مثالية شخصية المرأة والأيديولوجيا

سادساً: لماذا امرأة بالذات

سابعاً: الخلاصة

الفصل الثاني

الطنطورية باقية لابنها ولاء " إنك يائس يا ولدي " **74**

أولاً: السياق الداخلي للرواية

ثانياً: تناقضات تستوطن النص- امرأة المصير المجهول

ثالثاً: بين " يأس " الشاب المقاوم " ونضج " تجربة القاعد

رابعاً: عندما تعاند الأيديولوجيا حركة الواقع

خامساً: عندما يغدو الأدب بياناً دعائياً

تمثلات الموقف السياسي/ الاجتماعي في البنية الداخلية للرواية

سادساً: موقع المرأة/ الطنطورية من نظام السيطرة الشاملة

سابعاً: الخلاصة

الفصل الثالث

المرأة كحامل لمشروع حلم العودة **88**

أولاً: الشخصية النسوية ومعادلها السياسي/ الاجتماعي

ثانياً: في العلاقة بين بنية السرد ودور المرأة

ثالثاً: الخلاصة

استنتاجات القسم

القسم الرابع

المرأة في الزمن الانتفاضي- تزاوج الوطني والنسوي **96**

الفصل الأول

نزهة المطعون بنضالها **97**

أولاً: السياق الداخلي للرواية

ثانياً: تناقضات الموقف من النساء

ثالثاً: الموقف النسوي المؤدلج

رابعاً: في تقابلات البنيتين الخارجية والداخلية

خامساً: قضية المرأة/ القضية المركبة

سادساً: نساء الرواية بين الحقلين، الخاص والعام

سابعاً: النزوع " الجندري " في تشكيل الشخصيات

ثامناً: الخلاصة

الفصل الثاني

سروة المغدورة المتماسكة **110**

أولاً: السياق الداخلي للرواية

ثانياً: سروة بين حبين، خيارين سياسيين
ثالثاً: البعد النسوي في النص
رابعاً: الخلاصة

الفصل الثالث
وديعة وأرنونا- نساء طرفي أرض المعاد **115**
أولاً: السياق الداخلي للرواية
ثانياً: سياق الشخصيات النسوية
ثالثاً: تقابل البنيتين الروائية والاجتماعية / السياسية للانتفاضة
رابعاً: الثقافة الدينية والنساء
خامساً: رمزية الأسماء الروائية واسطوريتها
سادساً: الخلاصة
استنتاجات القسم

القسم الخامس

المرأة وتحولات ما بعد أوسلو **123**

الفصل الأول
أوسلو: المولود الهجين من امرأة تموت على الحاجز **123**
أولاً: السياق الداخلي للرواية
ثانياً: الشخصيات النسوية وتمثيلاتها الاجتماعية/ السياسية
ثالثاً: البنية الروائية ودلالاتها على التحولات في مكانة المرأة
رابعاً: الثقافة والمرأة
خامساً: تحولات الفئات والمواقف
سادساً: حفل عام بمضمون جديد
سابعاً: الخلاصة

الفصل الثاني
المرأة تدفع ثمن الانهيارات على الصعيدين الاجتماعي والوطني **133**
أولاً: السياق الداخلي للرواية
ثانياً: التحول الذي سحق المرأة
ثالثاً: مكانة المرأة
رابعاً: الخلاصة

الفصل الثالث

المرأة بعد أوسلو: الدين حيث يغيب اليقين **138**

أولاً: السياق الداخلي للرواية
ثانياً: عالم من النساء والهموم الوطنية والاجتماعية
ثالثاً: تكوين الشخصية النسوية والبنية الاجتماعية
رابعاً: هناك بدائل أخرى
خامساً: الحوار ودلالاته على المكانة الاجتماعية
سادساً: الخلاصة
استنتاجات القسم

القسم السادس

الاستنتاجات العامة **148**

أولاً: جنس الروائي/ة وقضية المرأة
ثانياً: رؤية الروائي/ة الأيديولوجية
ثالثاً: الاستنتاجات المرتبطة بسؤال البحث

المراجع **155**

ملحق- السير الذاتية لروائيي العينة الرئيسية **168**
غسان كنفاني
إميل حبيبي
أحمد حرب
سحر خليفة
عزت الغزاوي
مايا أبو الحيات

ملخص تنفيذي

تنتمي الدراسة لحقل علم اجتماع الرواية، الحقل الذي يدمج بين التحليل السوسيولوجي والتحليل الفني للأعمال الروائية. إنها تفحص التحولات في مكانة المرأة في الرواية الفلسطينية، بمقارنة هذه التحولات بين المرحلتين السابقتين على أوسلو(نشوء حركة المقاومة الفلسطينية والانتفاضة الشعبية 1987)، والمرحلة السياسية الجديدة التي دشنها أتفاق أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية.

لذلك اعتمدت الدراسة منهجية تحقيب المراحل التاريخية الفلسطينية في ثلاث، فتوزعت عينتها الرئيسية كما الثانوية (الروايات) على هذه الحقب، كما توزعت على معطيين اثنين: روائيات نساء وروائيون ذكور، وروائيون من مختلف المشارب الفكرية والسياسية الفلسطينية.

والدراسة تستند في تحليلها للأعمال الروائية إلى المنهج البنيوي التكويني الذي صاغ ملامحه لوسيان غولدمان في ستينيات القرن الماضي، دامجاً بين التحليل البنيوي لعالم اللغويات دو سوسور والتحليل الاجتماعي الماركسي، وتحديداً مساهمات لوكاش في نظرية الرواية.

لقد تم تحديد أدوات القياس التالية والتي يمكن من خلالها فحص التحولات (العلاقة بين الوطني والاجتماعي في حركة النساء الفلسطينيات، المرأة بين الحقلين، العام والخاص، الدور النضالي للمرأة الفلسطينية، وأخيراً موقف الآخر من نضال المرأة). والآخر هنا بتنويعاته(الثقافة السائدة، الرجل، العائلة، ومؤسسة التنظيم). أما أدوات القياس الروائية فتنوعت واختلفت بتنوع واختلاف البنية الروائية، ولكن منها بالأساس(الحوار، داخلياً كان أم خارجياً، الصياغات اللغوية، تطور الشخصية النسوية، التطور الدرامي وموقع المرأة منه، تقنية السرد" الراوي"...).

لقد ظهر للدراسة، بعد تحليل العينتين الرئيسية والثانوية، وربط هذا التحليل الفني بالبنية الاجتماعية- السياسية الأشمل، أن الرواية الفلسطينية كانت تقدم صورة المرأة ومكانتها والتحولات التي جرت على هذه المكانة بارتباط وثيق(فني وواقعي) مع كل مرحلة تاريخية، بما تتضمنها هذه المرحلة من أدوار للقوى الاجتماعية،

ومن رؤى سياسية واجتماعية مختلفة. وقد تأثر هذا التقديم بمتغيرات عديدة: رؤية الروائي الكونية، أي أيديولوجيته وانتماءه السياسي والحزبي، وطبيعة موقعه من العمل السياسي المباشر، وجنسه.

إن الاستنتاج الأساسي يجيب على سؤال هذه الدراسة بالإيجاب: فالرواية الفلسطينية واكبت التحولات في مكانة المرأة ما بعد أوسلو مقارنة مع المرحلة التي سبقتها. وقد أظهرت كيفية مواكبة الرواية لتلك التحولات بتحليلها لجملة من مكونات البنية الفنية الروائية التي تؤشر على هذه الكيفية.

ABSTRACT

This study belongs to the field of "the sociology of the novel," a field that integrates sociological analysis into artistic analysis as applied to novels. The study examines the transformations in the status of women in Palestinian novels, comparing two pre-Oslo stages (the rise of the Palestinian Resistance Movement, and the popular *intifada* of 1987) with the new political stage inaugurated by the Olso agreement between the Palestine Liberation Organization and the Israeli government.

This study relies methodologically on the aforementioned three periods of Palestinian history. The primary samples of study, like the secondary samples, are novels covering these periods. The samples involve two inputs: male and female novelists, and novelists from various Palestinian intellectual and political watering holes.

In analyzing the pertinent novels, the study relies on generative structuralism, the features of which were shaped by Lucien Goldmann in the 1960s. This methodology integrates the structural analysis of the famous linguist Ferdinand de Saussure**,** with Marxist sociological analysis, particularly with Georgy Luckas's contributions to the theory of the novel.

The study employs the following tools of measurement through which one may examine the relevant transformations: the relationship between the national and the social in the Palestinian women's movement, the status of women between the public and private spheres, the Palestinian woman's role in the national struggle, and finally, the stance of "the other" as it relates to the Palestinian women's struggle (and here, "other" refers to any of the following: the prevailing culture, men, the family, and political parties. As for the novelistic tools of measurement, these vary according to the different structures of the novels, but they include principally: dialogue (internal or external), linguistic forms, the development of the woman characters, the development of the drama and the woman's position within it, and the technique of narrative recitation.

After analyzing the principal and secondary samples, and after tying this artistic analysis to the larger socio-political structure, this study shows that the Palestinian novel presented the image and status of women – as well as the transformations that occurred to this status – as being strongly tied (artistically and in reality) to each historical stage, whether this stage included roles for social power, or whether it dealt with different political and social visions. This presentation was influenced by several changes: the universal vision of the novelist (for example, his or her ideology, political outlook, or party membership), the nature of his or her direct political work, and his or her sex.

The principal conclusion of this paper is that changes in the Palestinian novel accompanied the changes in the status of women on the ground after Oslo (as compared to their status in the stages preceding Oslo). The study shows the manner in which the novel proceeded along the path paved by these transformations and analyzes all of the artistic and novelistic factors that underscore this manner of development.

المقدمة

تغيرات جوهرية عصفت بالواقع الفلسطيني منذ مطلع التسعينيات، وتحديداً مع بداية الشروع بتطبيق اتفاقات أوسلو بين م.ت.ف والحكومة الإسرائيلية، حتى بات الخطاب الدارج على كافة تلاوينه يعتمد هذا الانعطاف (اتفاقات أوسلو) لتأريخ جديد: ما قبل أوسلو وما بعد أوسلو، باعتبار ما جرى " نقطة تحولٍ في تاريخ فلسطين...لما تنطوي عليه من مضاعفات بشأن مستقبلٍ مستقلٍ لفلسطين وللفلسطينيين بصفتهم شعباً" (فرسون، 2003: 465).

والتغيرات لم تتوقف عند حدود التغير السياسي فحسب، بل تجاوزته لتطال كافة مستويات الحياة الاجتماعية على تشعيباتها: بدءاً من طابع المؤسسات وأدوارها، والقوى ومكانتها ونفوذها، مروراً بالرؤى والقيم والمفاهيم الاجتماعية والسياسية، وانتهاءً بأدوار الفئات الاجتماعية والطبقية وعلاقات القوة بينها. إذن يمكن وبتكثيف شديد وصف هذه المرحلة باعتبارها مرحلة جديدة تماماً في مسار التاريخ الفلسطيني. ولكن ومع ذلك فالجديد فيها لا يطال القضية الأهم في هذا التاريخ منذ عشرات السنين- نعني القضية الوطنية- بما هي قضية تحرر وطني من الاستعمار الكولونيالي الصهيوني. فالمرحلة الجديدة لم تدشن، من ضمن ما دشنته من تغيرات، إنهاءً للصراع الفلسطيني- الصهيوني، فبقيت أهداف الشعب الوطنية الأساسية دونما تحقق وأهمها سيادته على وطنه (هلال، 1998: 217-219).

ومع ذلك كان هناك الكثير من الجديد: نشوء السلطة الفلسطينية بسيادة منقوصة وتكاد تكون معدومة، على جزء من الضفة والقطاع، تراجع مكانة م.ت. ف لصالح المؤسسة الجديدة (السلطة)، تبلور نخبة سياسية جديدة (في جهاز السلطة) هي امتداد للنخبة القديمة في م.ت.ف، ومطعمة بنخبة العمل الوطني في الضفة والقطاع من مرحلة ما قبل أوسلو (هلال، 2002: 59-95).

إن التعايش بين هذا الجديد مع القديم (قضية التحرر الوطني) يمكن اعتباره السمة الأساسية للمرحلة التاريخية الجديدة التي بدأت منذ مطلع التسعينيات، ويمكن تعريف تلك المرحلة بالسلب: مرحلة لم تجسد التحرر الوطني الناجز من الاحتلال، وبالتالي تحقيق السيادة الفلسطينية كاملة، ولم تبقِ السيطرة الاحتلالية المباشرة على كافة أوجه الحياة الاجتماعية كما كان الحال عليه قبل اتفاقات أوسلو.

وانطلاقاً من حقيقة مفادها أن أشكال الوعي الاجتماعي تحايث التغيرات في الواقع الاجتماعي، تعبر عنها وتعكسها (وهذا لا يعني أن لا تسبقها أحياناً) فقد تغيرت أشكال الوعي هذا: منظومة القيم والمفاهيم والرؤى، المعالجات الفنية، الخطاب السياسي والاجتماعي....

والرواية كشكلٍ من أشكال الوعي الاجتماعي تأثرت بهذا التغيير إلى هذا الحد أو ذاك، فكانت مخلصة للقناعة السائدة في الدراسات الأدبية، من أنها تصلح أن تكون "وثيقة تاريخية عن عصر انقضى" (لوكاش، 1980: 23)، بل إن الرواية تكاد تكون من أكثر الأشكال الفنية التي ينطبق عليها هذا الوصف إلى الدرجة التي نشأ

معها حقل جديد في الدراسات السسيولوجية يعرف بسسيولوجية الرواية، كان للمفكر والناقد لوسيان غولدمان الدور الريادي في اشتقاقه ووضع منهجيته (خشفة، 1997: 9).

ومن خلال الرواية الفلسطينية يمكن الوقوف على التحولات الهامة في التاريخ الفلسطيني (التهجير والاحتلال، ضياع الفرد، تدمير البنية الاجتماعية، نشوء المقاومة) والوقوف على قضايا محورية (علاقة الفرد بمؤسسة المقاومة، دور ومكانة المرأة في العمل السياسي، إشكالية العلاقة بين الفلسطيني المضطَهد واليهودي المضطهِد، الموقع الاجتماعي من العمل الوطني الفلسطيني، أدوار الشرائح والفئات الاجتماعية المختلفة...) (الجيوسي، 1996: 31-119).

لذلك كان لدراسة وتحليل الرواية الفلسطينية في مرحلة محددة قيمة مفيدة للدراسة السسيولوجية. **وهنا تكمن أهمية الدراسة بشكلٍ خاص**. إن الدراسة - على قدر ما نعلم- باكورة الدراسات التي يجب أن تنطلق فلسطينيا في حقل علم اجتماع الرواية خصوصاً، وحقل علم اجتماع الأدب عموماً.

هدف الدراسة

لهذه الدراسة هدفين رئيسين:-

الأول: الهدف الأكاديمي البحت والمتمثل في دراسة نظرية تفحص العلاقة بين الرواية الفلسطينية المعاصرة، من زاوية التحولات على مكانة المرأة فيها، والتغيرات الاجتماعية التي عصفت بالواقع الفلسطيني، لاكتشاف طابع العلاقة ومدى التحايث بين النصوص الروائية المختلفة والتغيرات الاجتماعية. إن هذا الهدف يندرج في إطار أحد التخصصات الجديدة في علم الاجتماع، نعني به علم اجتماع الرواية.

الثاني: الهدف العملي والمتمثل بالتقدم بأطروحة، كمتطلبٍ أكاديمي لنيل درجة الماجستير في علم الاجتماع من جامعة بيرزيت**.**

وقد شملت الدراسة ستة أقسام مع ثبت بالمراجع والمصادر وملحق بالسيرة الذاتية لروائيي العينة الرئيسية. في القسم الأول (الإطار النظري والمنهجية) عالجت الدراسة قضايا نظرية مرتبطة بالحقل الذي تدرسه، واستعرضت الأدبيات المختلفة حول المرأة والرواية الفلسطينية، ثم عالج القسم المنهجية التي استخدمتها الدراسة والعينة وأدوات القياس وحددت سؤالها وفرضياتها، ليختتم بتحديد الصعوبات الأساسية التي واجهتها الرسالة.

وفي القسم الثاني فرش تاريخي لأبرز التحولات السياسية والاجتماعية التي عصفت بالواقع الفلسطيني منذ العام 1967 وحتى ما بعد مرحلة أوسلو، أخذاً بعين الاعتبار المواقع الثلاث للحقل السياسي الفلسطيني: الخارج، والضفة الغربية وقطاع غزة، ومنطقة أل 48، كما أفرد القسم حيزاً للتحولات السسيولوجية وأثرها على البنية الاجتماعية، وأخيراً تناول تاريخ وواقع الحركة النسوية الفلسطينية.

أما الأقسام الثالث، والرابع، والخامس، فقد شملت تحليل النصوص الروائية للعينة الرئيسية، موزعة على الحقب الثلاث، نصوص من مرحلة ما بعد 1967، نصوص توثق للانتفاضة الفلسطينية في العام 1987،

وأخيراً النصوص التي عالجت مرحلة ما بعد أوسلو. وقد أختتم كل قسم باستنتاجات عامة للتحولات على مكانة المرأة كما ظهرت في روايات كل مرحلة.

وأخيراً جاء القسم السادس كخلاصة عامة للاستنتاجات ولتحليل النصوص، وركز على موضوعي جنس الروائي وكيفية تأثيره على إبداعه الأدبي فيما يتعلق بالتحولات على مكانة المرأة، وكذلك على الخلفية الفكرية للروائي/ الروائية ومدى تأثيرها على إبداعه فيما يتعلق بذات الموضوع، مختتماً بفحص مدى موائمة الاستنتاجات مع سؤال الدراسة وفرضياتها.

القسم الأول
الإطار النظري والمنهجية
الفصل الأول
الإطار النظري والأدبيات

أولاً: قضايا نظرية

لم تعد علاقة الرواية بالواقع موضع نقاش. وإذ إن " الأديب من حيث إنه فرد إنساني، هو محصلة علاقاته الاجتماعية" (العالم، 1989: 208) كما يثبت العالم متكئاً على ماركس، فإن نشاطه الإبداعي يعبر عن ملامسة الاجتماعي فيه، فلا يمكنه والحال هذا التحلل منه، فالتحلل من اجتماعيته تحلل من كونه كائناً اجتماعياً وتلك عملية مستحيلة، بل وغير متخيلة. لذلك فالعلاقة بين المبدع والواقع مسألة مفروغ منها، إنما الذي يستثير النقاش موضوعات مرتبطة بواقع العلاقة وتشابكاتها وتعقيداتها. لذلك وجه النقد الأدبي سهامه القاتلة ضد نظرية الفن للفن التي راجت في أواخر القرن التاسع عشر بعد أفول زمن التحولات التقدمية للمشروع البرجوازي التاريخي، وعادت للظهور في أواسط القرن العشرين عند ظهور التأثيرات المدمرة للمجتمع الرأسمالي الاستهلاكي على الإنسان. يعتبر بليخانوف " أن الميل إلى الفن لأجل الفن يظهر هناك حيث يوجد تنافر بين الفنانين والوسط المحيط بهم" (بليخانوف، 1982: 545) وهو يعتبر هذا الخلاف "ميئوساً منه". فيما كان لوكاش أكثر وضوحاً عندما وصف الفن للفن بأنها ظاهرة انحطاط البرجوازية (لوكاش، 1980).

لقد لخص **الحميداني حميد** الموقف النقدي من نظرية الفن للفن بالقول" إن الاتجاهات النقدية البنيوية التي تقول بضرورة دراسة الفن من الناحية الجمالية فحسب بدعوى أن الفن ليس له وظيفة في الواقع الاجتماعي، تحمل مع ذلك موقفاً أيديولوجياً، أول مبادئه تهميش دور الأدب كفعالية فكرية بشرية في تطوير الواقع(الدور الايجابي)، والحفاظ على فعاليته في الإبقاء على الواقع كما هو(الدور السلبي) عندما تجعل الفن شكلاً خالصاً" (حميد، 1985: 16). إن هذا الموقف تستند له الدراسة في التأكيد على العلاقة بين الفن والواقع، وفي الدور (الوظيفي) للإبداع الأدبي.

أما بالنسبة للعلاقة بين الرواية والواقع فقد أثبت **ماركس** عام 1859 ما اعتبره "الخيط الهادي في أبحاثه اللاحقة" فيما يتعلق بالتحليل المادي لأشكال الوعي الاجتماعي، والرواية منها. يؤكد ماركس" تقوم بين الناس أثناء الإنتاج الاجتماعي لحياتهم، علاقات معينة ضرورية، مستقلة عن إرادتهم، هي علاقات الإنتاج التي تطابق درجة معينة من تطور قواهم المنتجة. ومجموع علاقات الإنتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع، أي الأساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقي وسياسي، وتطابقه لأشكال معينة من الوعي الاجتماعي. إن أسلوب إنتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعي والسياسي والفكري، بصورة

عامة. فليس إدراك الناس هو الذي يعين معيشتهم، بل على العكس من ذلك، معيشتهم الاجتماعية هي التي تعين إدراكهم" (ماركس، د.ت: 7).

ومن هذا المدخل المنهجي تم اشتقاق مقولتي **الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي** المتلازمتين ضرورة، كصدىً لانتقال الفكر الجدلي الهيغلي (بعد أن أُوقف على قدميه حسب التعبير الشهير لماركس) إلى حقل التاريخ الاجتماعي. ومن المدخل الفلسفي ذاته، ولمعالجة قضايا جديدة في حقل نظرية الرواية وبالاستناد لذات المدخل، اشتق البحث الاجتماعي الأدبي المتشح بالمنظور الماركسي سلسلة من القضايا النظرية حول العلاقة بين الأدب (والرواية منه) والواقع الاجتماعي، عالجها وما زال سلسلة طويلة من النقاد والمفكرين.

1:1 في الانعكاس

لقد صيغت العلاقة بين الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي على قاعدة مقولة الانعكاس الشهيرة والتي تعني أن الوجود الاجتماعي ينعكس في الوعي الاجتماعي، أو بصيغة أخرى أن الأول يعكس الثاني. ومع أن "العادة" جرت بإلحاق هذا الحكم القطعي باستدراك مفاده أن الانعكاس جدلي لا ميكانيكي، وأن العلاقة لا تعني تبعية الوعي آلياً للوجود، إلا أن الإنتاج الماركسي في مرحلته الستالينية حصر العلاقة في دور حزبي وظيفي محدد ومقنن في مقررات المؤتمرات الحزبية، لا مندوحة عن التطرق له سريعاً.

ففي العام 1934 تبنى إتحاد الكتاب السوفييت (الواقع تحت السيطرة المطلقة للحزب) الواقعية الاشتراكية كعقيدة رسمية. لقد جاء في نص القرار الذي وضعه بوخارين وغوركي ورادك ما يلي" **تطالب** الواقعية الاشتراكية بحكم كونها المنهج الأساسي للأدب السوفيتي وللنقد الأدبي **الكاتب المخلص** بتمثل تاريخي ملموس للواقع في تطوره الثوري. وهكذا يجب أن يرتبط الإخلاص والمظهر التاريخي الملموس **بمهمة التغير الأيديولوجي وبتربية العمال في اتجاه الفكر الاشتراكي"**-التشديد للباحث- (بن سوسان ولابيكا، 2003: 1358).

والقرار السابق يطرح قضايا كثيرة في إطار البحث في نظرية الرواية، ولكن الذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى الحضور الطاغي لمفهوم الانعكاس بصورته الميكانيكية وإلى الدور الوظائفي للأدب. فالعمال طالما شرعوا ببناء الاشتراكية (في تطور ثوري للواقع) إذاً فالأدب **مطالب** أن يندمج في العملية بغية المساهمة في **التغيير** الأيديولوجي **وتربية** العمال، وهذا الاندماج يستند مباشرة لعلاقة الانعكاس، فالجهد الأدبي ينبغي أن يعكس (الواقع في تطوره الثوري) ويلعب دوراً تربوياً حزبياً في تربية العمال. أما التخلف عن هذا الهدف الرسمي للحزب وللإتحاد فيعني وصم الكاتب بعدم **الإخلاص** (المصدر السابق، 2003: 1357).

وينبغي الإشارة هنا أن مفهوم الانعكاس وإن أُشتق من مفهومي ماركس حول الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي، إلا أنه يسقط، على الأقل في طبعته الستالينية التي راجت لعقود، موقف ماركس وإنجلس اللذان أكدا الاستقلالية النسبية لأشكال الوعي الاجتماعي عن الوجود الاجتماعي، خاصة عندما تناولا في كتاباتهما

ومراسلاتهما ظواهر الفن الإغريقي القديم وإبداع شكسبير وتطور الفلسفة والفن عموماً. وبالتالي تغدو الطبعة الستالينية غريبة عن تأصيلها الماركسي المزعوم. ولذلك أيضاً يقرر دراج أن " نظرية الانعكاس" صحيحة من حيث المبدأ، خاطئة في عسف التطبيق" (دراج، 2002: 154).

ومفهوم **الاستقلالية النسبية** وإن اشتق أصلاً من مفهوم الانعكاس، كتوضيح وتفصيل، إلا أنه غدا مفهوماً أساسياً في ترسانة المنظومة المفاهيمية الماركسية في حقل الأدب، فهو مفهوم يحيل على عدة قضايا منها: العلاقة بين المبدع والواقع- وسنأتي على ذكرها لاحقاً كقضية نظرية قائمة في ذاتها في دراستنا الدور ألاستشرافي للأدب- وجمالية صياغة الواقع أدبياً.

لم تعمر الصيغة الستالينية لمفهوم الانعكاس إلا على نطاق الرواية والأدب السوفيتي الذي وُجه حزبياً لخدمة برنامج الحزب. أما خارج نطاق هذا الأدب " الشرعي" فالمفكرون والنقاد أعملوا مبضعهم في هذا المفهوم ليتطور طابع العلاقة بين الرواية والواقع لآفاق لم يبلغها من قبل.

كان **بليخانوف** من أوائل من نظروا لجمالية العلاقة بين الفن والأدب في نقدٍ صريح للانعكاس بالمفهوم السطحي الوظائفي الستاليني، فهو حسب الناقد الماركسي ف.شيربين " رفض وجهة النظر البدائية" التي تحاول نشر مبدأ" الصلة المباشرة للفن بالإنتاج وبالنمط الاقتصادي وتطبيقه على فن الفترة اللاحقة". وبالنسبة لشيربين فإن مأثرة النقد البليخانوفي هو في كشفه عن فرادة الفن كنوع خاص من نشاط الإنسان. بليخانوف إذ يحال تطور الدراما الفرنسية فهو إنما يسعى لإبراز تعقيد العلاقة بين الوجود الاجتماعي والفن، ورفض "**الصلة المباشرة**" والتأكيد على " **فرادة الفن**" و" **تعقد الصلة**"، إنما يقف على الطرف النقيض من الفهم الميكانيكي الوظائفي لمفهوم الانعكاس ودور الفن في الحياة. وهذا ما مكن بليخانوف من أن يولي أهمية فائقة لجمالية العلاقة بين الفن والواقع، إذ يعتبر بحق مؤسس ما يعرف في الأدب الماركسي، بعلم الجمال الماركسي. فهو إذ يحال الفن لدى شعوب المجتمعات البدائية وفي المجتمع المعاصر يقرر أن الإنسان ينظر للوجود الاجتماعي على أساس جمالي. بقي الإشارة أخيراً إلى أن الحديث عن جمالية العلاقة بين الفن والوجود الاجتماعي لا يقف على النقيض من مفهوم الانعكاس بطبعته السطحية فحسب، بل يفتح الآفاق لدراسة البنية الداخلية الجمالية للنص التي يقف بينها وبين الواقع مسافة هي مسافة الإبداع التي يرصفها المبدع ذاته، وهذا سيقودنا لاحقاً لدراسة العلاقة بين بنية الرواية الداخلية والبنية الاجتماعية كم ظهرت في أعمال لوسيان غولدمان، كتطوير لعلاقة الانعكاس ذاتها (بليخانوف، 1982: 10).

ولكن قبل الوصول للوسيان غولدمان لا بد من التوقف عند جورج لوكاش ومساهماته البارزة في حقل الرواية ونظريتها.

بين عامي 192-1923 قدم **لوكاش** سلسلة من الأعمال النقدية للأعمال الفنية (شعر ورواية ومسرح وغيرها) ربط فيها بين الفلسفة والأدب والسياسة. إن الربط يعني التأكيد على محورين هامين، لا يُظهران الثالث الأهم، الذي أغفلته هنرييت عبودي في مقدمتها للوكاش. إن الربط بين الأدب والسياسة(الصراع الطبقي بالمفهوم الماركسي تحديداً) هو تحديدٌ لوضع الأدب في موقعه الاجتماعي كبعد طبقي، وهذا مفهوم

باعتبار لوكاش منظراً وفيلسوفاً ماركسياً. كما أن الربط بين الأدب والفلسفة يتفق والنزوع الفلسفي للوكاش (والربط هذا يجد خلفيته الفلسفية في مقولتي الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي الفلسفيتين) ويعكس استناد مقالاته تلك لكتابه الأهم(التاريخ والوعي الطبقي)، غير أن ما لم تنتبه له عبودي أن لوكاش وإذ يظهر أيديولوجياً ماركسياً لا تنقصه الصراحة والوضوح عند الحديث عن البعد الاجتماعي للأدب، إلا أنه طعم تحليله الماركسي بأبعاد جمالية وفنية، باشتقاقه لمقولات كانت جديدة حينها على هذا التحليل. فالانعكاس عنده " طبيعة خفية وعلاقة لا مباشرة" بين الأدب والأيدولوجيا الطبقية.(لوكاش، 1980: 10)، وهو، كما يسميه - الانعكاس الفني- من حيث العلاقة الديالكتيكية بين الواقع الاجتماعي وظواهره وبين جوهر هذا الواقع. وعندما ينتقد النقاد الروس من القرن التاسع عشر (بيلنيسكي/ دوبروليوبوف/ بيساريف) فهو يأخذ عليهم عدم التقدم بتقييم جمالي للأدب والفن والتقويم الجمالي البحت، يؤشر لفاصل متسع في العلاقة بين الأدب والواقع، وإن كان هذا الفاصل ينهض على قاعدة مفهوم الانعكاس. (مرجع سابق، 1980: 7-15).

ومن أبرز المفاهيم التي اشتقها لوكاش من علاقة الانعكاس، وعكست في الآن ذاته جدلية الانعكاس لا ميكانيكيته، كان مفهوم **المتعة** عند تحليله للمأساة في الأدب، و**الصدق** في أعمال هوبتمان، ورغم أنه يأخذ عليه برجوازيته الصغيرة إلا أنه "ينصفه" فنياً وجمالياً، مع أنه لم يطلق هذا الحكم الموضوعي على أعمال شاعر الهند طاغور- ربما بسبب تواطؤ الأخير المزري مع الاستعمار البريطاني حسب لوكاش- فأسقط عنه كل قيمة جمالية.(مرجع سابق،1980:70 - 75)

إن هذين المفهومين (المتعة والصدق) المرتبطين بمفهوم الجمالية، يتخذهما لوكاش، إضافة لاستناده على ماركس مدخلاً لتوضيح موقفه من مفهوم الانعكاس. إذ يعتبر لوكاش " أن المضمون الطبقي الأصلي للعمل الأدبي قد يكتسب، **من خلال تطوره**-التشديد للباحث- وظيفة تقف على طرفي نقيض من مدلوله الأصلي"(مرجع سابق: 78) ولمعرفة سبب ذلك ينبغي القيام " بتحليل جمالي للأثر الأدبي" يستند بالتحليل النهائي" للوضع التاريخي العيني" (مرجع سابق: 78) وهذا ما فعله بمقالاته أعلاه.

1: 2 لوسيان غولدمان- آفاق جديدة

متكئاً على مفاهيم هيغلية ولوكاشية حول (الفرد الإشكالي/ التشيؤ والاغتراب/ الكلية والتاريخ..) أكد غولدمان العلاقة بين البنية الاجتماعية والاقتصادية والأدب، وبالاستناد للألسني دي سوسير وعالم النفس بياجيه صاغ العلاقة بين البنية الداخلية للنص والبنية الاجتماعية الأعم، ليصوغ منهجه النظري الخاص الذي دعاه **بالمنهج البنيوي التكويني**. وفي التعريف التالي الذي قدمه خشفة تتضح تلك التوليفة النظرية التي شكلت

الفرضية الأساسية للبنيوية التكوينية لدى غولدمان. يقول خشفة " إن فرضيتها الأساسية هي أن الطابع للإبداع الأدبي صادر عن كون بنيات الأثر الأدبي هي بنيات متجانسة مع البنيات الذهنية لبعض الفئات الاجتماعية أو أن علاقتها بها علاقات مفهومة مدركة. أما على صعيد المضامين-أي على صعيد الإبداع لعوالم متخيلة، فإن للكاتب حريته المطلقة" (خشفة، 1997: 63). في هذا التعريف يطل دي سوسير برأسه عبر مقولة البنية الأدبية- وستغدو لاحقاً هي المدخل المفاهيمي لتشكل البنيوية كمنهج نظري- ويحضر بياجيه في الحديث عن البنية الذهنية، فيما ماركس يشكل خلفية العلاقة المنهجية بين البنية الاجتماعية والواقع وارتباط المبدع بالفئة الاجتماعية. (دراج، 1999)

وبالنسبة لغولدمان لا يعتبر مفهوم الانعكاس مفهوماً يتسع لإسهامه النظري، ويستعيض عنه بمفهوم "الرابطة الوظيفية" الذي " يبرز فيه تساوقاً أو ترادفاً بنيوياً بين الآثار الأدبية وبين توجهات الوعي الجماعي للفئة الاجتماعية" (خشفة، 1997: 10) علماً أن الانعكاس هنا لا يعني به الصيغة الماركسية الكلاسيكية(انعكاس الوجود الاجتماعي في الوعي الاجتماعي) بل انعكاس الوعي الاجتماعي في الأثر الأدبي. ومع مصطلح الرابطة الأدبية صاغ غولدمان حفنة من المفاهيم الجديدة أضيفت للتحليل الماركسي لظاهرة الأدب والرواية تحديداً، بما جعله يحمل بجدارة لقب مؤسس علم سوسيولوجيا الرواية وواضع منهج البنيوية التكوينية.

إن مفاهيم **الكليات النسبية، والتماسك**(وهو ذاته مفهوم كلية الارتباط الذي اشتقه هيغل ووظفه ماركس)، **والفهم، والتفسير** كمراحل في تحليل العمل الأدبي(والتفسير مأخوذ من لوكاش) **والكاتب الوسيط، والرؤية الكونية، والسلوك النفسي للكاتب**..كلها وغيرها باتت مفاهيم-أدوات تحليلية- في منهج البنيوية التكوينية. إن المفاهيم أعلاه تعد مخزوناً إضافياً لسلسلة المفاهيم الماركسية التي تعمل كأدوات تحليلية للعلاقة بين الواقع والوعي(مأخوذاً بشكله الفني).

نستنتج مما تقدم أن لوسيان غولدمان قد أحدث تطوراً قطعياً مع الماركسية في هذا المجال-مفهوم الانعكاس والنظرية الروائية على العموم- ينطبق عليه ما يسميه حسين مروة " وحدة القطع والاستمرارية" (مرّوة، 1978: 181) المشتق من الديالكتيك الهيغلي أساساً ولاحقاً الماركسي، فمن جهة يستند للأساس الفلسفي الماركسي للعلاقة بين الأدب والبنية الاجتماعية والرؤية الكونية للطبقة متضمنة في إبداع الأديب، ويطوره، ومن جهة ثانية يتجاوز، إلى حد القطع، المنظور الكلاسيكي لعلاقة الأدب بالبنية الاجتماعية المعبر عنه بمفهوم الانعكاس، ويطور تالياً، سلسلة من المفاهيم المتسقة مع هاتين العمليتين: القطع والاستمرارية. وإذ نكتفي في هذا السياق لتوضيح وجهة نظر لوسيان من موضوعة الانعكاس، فسنعرج لاحقاً على إسهاماته عند استعراضنا لبقية القضايا النظرية، لتظهر، بالتالي، أكثر فأكثر ملامح منهجه البنيوي التكويني.

ومن الباحثين والنقاد العرب من عمق الفهم الماركسي الكلاسيكي لمفهوم الانعكاس. لا يصل **محمود أمين العالم** إلى ذات التخوم التي وصلها غولدمان، ولكنه مع ذلك يؤكد أن الأديب يعبر عن وعيه-في علاقته بالواقع- بنوعية خاصة تميزه باعتباره شكلاً خاصاً من الوعي الإنساني، فالانعكاس والحال هذا " ليس مرآوياً وآلياً، وإنما هو انعكاس جدلي يتضمن وقائع الحياة كما يتضمن فاعلية الإنسان وموقعه وموقفه من هذا الواقع"

(العالم 1989 :208). والعالم، وإن بدا هنا لا يأتي بالجديد، إلا أنه أولى تحليل الشكل والمضمون أهمية استثنائية في دراسته السابقة، ما يوحي بإيلاءه لجمالية النص الأدبي المكانة التي يستحقها. والأهم أن العالم في جهده النقدي التطبيقي المتواصل منذ أكثر من نصف قرن أولى تحليل المسائل الجمالية والفنية الأهمية التي تستحقها ولم يقف عند حدود "التصنيف" الطبقي والأيديولوجي المحض، علماً أنه يربط بين الأيديولوجيا والخطاب الروائي مستنداً إلى تعبير ألتوسير بأن الإنسان (حيوان أيديولوجي) ويقرر " أن الأيديولوجيا في الخطاب الروائي أيديولوجيا **محايثة باطنية**- التشديد للباحث- نابعة من بنيته الداخلية من ناحية، وهي كذلك أيديولوجية وظيفية تتحقق بمدى ودلالة تأثيره الموضوعي الخارجي من ناحية أخرى، وهي ليست أيديولوجية قصدية أي يقصدها الكاتب الروائي قصداً، وهي ليست تعبيراً بالضرورة عن أيديولوجية الكاتب الروائي نفسه" (العالم، 1994: 28). إن هذا التأكيد على محايثة وباطنية الأيديولوجيا للخطاب الروائي يؤشر لموقفه من الانعكاس ويدعم ما سجلناه له لاحقاً حول جدليته (العالم، 1989 و 1994).

1: 3 في الاستقلالية النسبية

كما قلنا أعلاه فإن الاستقلالية النسبية نتاج منطقي لمفهوم الانعكاس وديناميته، فطالما أن الانعكاس جلي فبالضرورة هناك حيز من الاستقلالية للوعي الاجتماعي- نقرأ الإبداع- في علاقته بالوجود. ولكن القضية لا تقف عند هذا الحد الذي أكد عليه الأدب الماركسي منذ ماركس وحتى اليوم. هناك أسئلة كثيرة تتداعى انطلاقا من مفهوم الاستقلال النسبي وفعله. كيف يتجسد الاستقلال تحديداً؟ ما حدود استقلال الإبداع في علاقته بالواقع؟ والأهم كيف يتجسد الاستقلال عبر العلاقة البنيوية بين البنيتين، الداخلية الأدبية من جهة والخارجية من جهة ثانية؟ (ريديكر:1977).

والسؤال الأخير لم يوله التنظير الماركسي الكلاسيكي اهتمامه، فماركس وبليخانوف ولوكاش لم يكونوا بالنهاية مختصين بالنقد الأدبي كعلم وتقنية مع تمايز الأخير كممارس للنقد، إذ لم يقدموا سوى ملاحظات عامة حول خصوصية وفرادة الإبداع واستقلاليته انطلاقاً من مفهوم الانعكاس. ولكن **غولدمان** ربط بين مفهوم الاستقلالية بالعلاقة بين البنيتن الأدبية والداخلية. فإذا كانت البنيوية، كمنهج في دراسة وتحليل الأعمال الأدبية اشتقت من أعمال الألسني الكبير دي سوسير، فهي ولدت محكومة بهذا الاشتقاق: وقفت عند حدود البنية الداخلية للنص، ولم تتجاوزها لبحث العلاقة بين البنيتين الداخلية والخارجية وتلك كانت نقيصتها الكبرى، كما فائدتها العظيمة: فهي وإن قصّرت عن التقاط العلاقة بين البنيتين إلا أنها فتحت آفاقاً واسعة لتحليل النص الأدبي كنص قائم بذاته.

والسؤال حول العلاقة بين البنيتين بالنسبة **ليمنى العيد** هو سؤال يتخطى حدود الأيدولوجيا (ربط الأدب بقاعدته الاجتماعية) ليطال جمالية العلاقة بين الأدب والوجود، إذ إن غياب هذه العلاقة يحول النص الأدبي لمجرد هيكل معزول عن علاقاته التي لعبت دوراً حاسماً في إنتاجه(العلاقات الخارجية). والعيد إذ تقر بالأهمية الكبيرة للمنهج البنيوي خاصة لجهة قدرته على عزل مكونات وعناصر معينة في النص لبحثها(

تطور الشخصية، الزمان والمكان في النص، بحث تطور عناصر معينة في شكل أدبي معين)، أو لجهة قدرة البنيوية الألسنية على فحص الدلالات الكامنة في لغة النص، رغم ذلك فإن العيد ترى أن الوقوف عند حد البنيوية يودي إلى التالي:

1. يحرم النقد الأدبي من الوقوف على الأدب " كنسيج دلالي حي" - تعني قوانينه الداخلية التي يركز عليها المنهج البنيوي.
2. إن التركيز على الدلالات في النص وتشكيلاتها تبقى وباعتماد البنيوية عملية معزولة عن الحقل الثقافي الأعم، دون إغفال أن صراعية الحقل الثقافي ملازمة ومحايثة لصراعية الحقل الاجتماعي. وبالنهاية فالاستقلالية، ومن باب تحصيل الحاصل لدى العيد، تعني في التحليل الأخير وجود الواقع المؤثر في العمل الأدبي.
3. وأخيراً تلخص العيد موقفها من الاستقلالية باعتبارها - شكلاً للعلاقة مع الظواهر الأخرى في البنية الاجتماعية، محذرة في نفس الوقت من أن عزل الظاهرة في مرحلة معينة كضرورة لدراستها " ليس عزلاً عن خارج، بل هو رؤيتها في تميزها، وهو محاولة فهم بنية هذا التميز حين تنهض البنية من أرضها السديمية المشتركة"(العيد، 1999: 58).

أما غولدمان الذي استند لألسنية دي سوسير ونقّدها في آن - من جملة ما فعله- ليشكل منهجه البنيوي التكويني، فقد أولى العلاقة بين البنيتين الداخلية والخارجية الأهمية التي تجعلنا نعتبرها القضية الأبرز في منهجه ككل، ناهيك عن أن تلك العلاقة هي الوجه الآخر، إن جاز التعبير، لمفهوم الاستقلالية النسبية.

1: 4 **في العلاقة بين البنيتين**

ينطلق غولدمان من أن الفئات والطبقات الاجتماعية هي التي تحمل ما يدعوه **بالرؤية الكونية** والتي تجسد مشروع الفئة والطبقة من خلال الأدب والرواية تحديداً. يشرح خشفة غولدمان هنا بالقول " إن التأكيد على وجود صلة بين المؤلفات الثقافية الكبرى، وبين الفئات الاجتماعية المتجهة نحو إعادة تشكيل شاملة للمجتمع، أو نحو الحفاظ عليه- تلغي دفعة واحدة كل محاولة لربطها بعدد آخر من الفئات الاجتماعية، وعلى الأخص بالأمة والأجيال والمناطق والأسرة...ولم نذكر سوى هذه الفئات" (خشفة، 1997: 65).

نؤكد هذا النص- المدخل لفحص العلاقة بين البنيتين عند غولدمان، مؤجلين مناقشة ما يبدو حكماً اطلاقيا غير علمي، لاعتبار أن الطبقات وحدها هي صاحبة الرؤية الكونية لحين طرح المنهج الذي نستند له في دراستنا.

إذن، وطالما أن الرؤية الكونية- لطبقة أو شعب نضيف من عندنا- تتجسد في الأدب، فالعلاقة والحال هذه حتمية بين البنية الداخلية للنص والرؤية الكونية التي تجسد مشروع الطبقة في(إعادة تشكيل شاملة للمجتمع). وهذا المشروع يحمله الفرد المبدع لا بصفته(الأنا) بل بصفته(النحن) أي الطبقة. ولتدعيم مقولة (النحن) في مواجهة (الأنا) ينقض غولدمان ما يسميه النقص الكبير لمعظم أعمال علم النفس التي أخذت الفرد (الأنا)

وتناست الفرد(النحن)، ويستعين لذلك ببياجيه وعلم النفس الجمعي أو الجماعي. فالذات" في الفعل الإنساني هي الفئة، (النحن) على الرغم من أن البنية الحاضرة للمجتمع تنزع، مستعينة بظاهرة التشيؤ، نحو حجب هذا ال (نحن) وتحويله إلى عدد من المفردات المفارقة، والمنغلقة على بعضها بعض." (مرجع سابق:42) ولذلك يفضل غولدمان استخدام تعبير" الذات المتجاوزة للفردية وهو تعبير أفضله على الذات الجماعية الذي قد يؤدي إلى الالتباس مع فكر دوركهايم" (غولدمان في خشفة، مرجع سابق:95).

لذلك كانت العلاقة بين البنيتين تتشكل لدى غولدمان وفق المنحى التالي: الفئات الاجتماعية كحاملة لرؤية كونية تعبر عن مشروعها هذا من خلال الأدب عبر الكاتب المأخوذ هنا **كوسيط-** وسنأتي على توضيح دور هذا الوسيط عند فحص دور المبدع وعلاقته بالواقع لاحقاً- يعبر هو عن الجماعة- عن وعي أو من غيره-لا عن فرديته بشكل خاص. وبالتالي فالبنية الداخلية للنص بما أنها إبداع لهذا الوسيط- الجماعة، هي بالتالي في علاقة وثيقة مع البنية الخارجية- مشروع الفئة المتجسد في رؤية كونية، وكل ذلك يقوم على قاعدة **كلية الارتباط** كمفهوم هيغلي اشتق منه غولدمان ما دعاه **بسلسلة من الكليات** التي يندرج أي عمل أدبي في نسقها، باعتبار أن سلوك الكاتب هو سلوك الفئة الاجتماعية. ونلحظ هنا أن الفارق بين العيد وغولدمان هو في زاوية النظر لهذه العلاقة. فالعيد تبحث العلاقة على المستوى الجمالي من حيث إن العلاقة بين المبدع والواقع هي علاقة جمالية بين الإنسان والواقع، فهي إذ تطرح الأسئلة حول معيار تقويم الأعمال الأدبية، تعتمد الصحة والكذب معياراً للتقويم، كناقدة تقنية أكثر منها أيديولوجية، رغم أيديولوجيتها الظاهرة للعيان. في حين يبحثها غولدمان على المستوى الأيديولوجي من حيث هي علاقة بين المبدع والطبقة، وذلك فارق يوحي بتكاملية دراسة العلاقة أكثر مما يوحي بتناقض المدخلين، دون نسيان مساهمة غولدمان في دراسة آلية فحص علاقة النص مع البنية الخارجية إنطلاقاً من مفاهيم خاصة نحتها لمنهجه، أبرزها مفاهيم التفسير والفهم والكليات...مؤكداً أن البنيوية تتيح المجال " لتسليط الأضواء على بنية سكونية (ستاتيكية) متوازنة "(غولدمان في خشفة، مرجع سابق:100) كمرحلة في الدراسة غير كافية في التحليل النهائي.

1: 5 في العلاقة بين المبدع والواقع

على قاعدة كل ما سبق تنهض العلاقة بين الكاتب المبدع والواقع المعاش. والنقد الأدبي المتخذ من الماركسية منهجه لا يكتفي بالحد الذي ذهب إليه العالم من أن (الأديب محصلة علاقاته الاجتماعية)، بل ذهب بعيداً في تحليل تلك العلاقة، وخاصة في أعمال غولدمان والعيد كما رأينا. فالعلاقة الجمالية بين الإنسان والواقع هي ما يميز ويمنح الاستقلالية للعلاقة بين الكاتب المبدع والواقع كما تذهب العيد، وتربط بين الإبداع والصحة- أو الصدق بمعنى آخر- وبين جمالية الشكل الفني في عكسه للواقع كما لاحظنا أعلاه.

أما دور الكاتب حسب غولدمان، فهو وسيط يعبر عن مصالح الجماعة التي تحمل رؤية كونية-إعادة تشكيل شاملة للمجتمع. وحتى يتمكن المبدع من ذلك-أي من لعبه دور الوسيط- عليه أن يتحلى **بأقصى وعي ممكن-** هو ذاته أقصى الوعي الممكن لطبقته- للقيام بعمله الإبداعي. ينقل خشفة عن غولدمان قوله" كبار

الكتاب هم الذين يعبرون بطريقة متماسكة نوعاً ما عن رؤية كونية تتماشى مع أقصى وعي ممكن لطبقة اجتماعية"(غولدمان في خشفة، مرجع سابق:12).

إن غولدمان يربط بين الرواية وشكلِ الانتاج من أجل السوق، أي بمعنى آخر بين الرواية والقيمة التبادلية المتضمنة بالبضاعة. وفي الانتاج من أجل السوق ينفصل المنتج عن السلعة، يغدو غريباً عنها، فتنشأ ظاهرة التشيؤ والصنمية البضاعية كما استنتج ماركس. من هذا التشيؤ ينشأ لدى غولدمان البطل الإشكالي، الذي كان لوكاش قد أعتبر الرواية تعبيراً عن أزمته في المجتمع الرأسمالي. إن غولدمان يعتبر الرواية والحال هذا " عبارة عن نقل الحياة اليومية في المجتمع الفردي- التي تم خلقها عن طريق إنتاج السوق- إلى المستوى الأدبي " (جولدمان في فصول، 1991: 39) مؤكداً أن الرواية بالتالي لا يمكن فهمها دون ربطها بالبنية الاجتماعية التي أنتجت التشيؤ، أي بنية الانتاج من أجل السوق التي تنتج القيمة التبادلية. (غولدمان، 1991)

وكما نلحظ فعظمة الكاتب لا تتأتى إلا من قدرته على التعبير عن الرؤية الكونية، دون الأخذ بعين الاعتبار- كما يبدو- القدرة الفنية للكاتب لصياغة العلاقة بين النص والرؤية الكونية للطبقة صياغة جمالية، كما أشار لوكاش مرة، وهذا يتفق والمنحى الأيديولوجي البين لدى غولدمان الذي ظهر في دراسته للعلاقة بين البنية الداخلية والخارجية وعاد للظهور، كتحصيل، عند تحديد العلاقة هنا بين الكاتب والواقع، وربما ما يشفع له أنه سوسيولوجياً يوشح خطابه التحليلي بمسحة أيديولوجية واضحة، أكثر منه ناقداً أدبياً.

مرة أخرى نرى الفارق بين المدخلين الأيديولوجي والجمالي في العلاقة بين الإبداع والواقع كما عالجها العيد وغولدمان كتنويعات تنطلق من ذات النقد الماركسي في العلاقة، مأخوذة هذه المرة في العلاقة بين الأديب والواقع.

ثانياً: الرواية والعلاقات الكولونيالية

ربما كان طرابيشي أول ناقد ومفكر عربي يتنبه لطابع الرواية في ظل العلاقات الكولونيالية. وإذا كان الآخرون قد تلمسوا ما للقضية الوطنية من تأثير على الرواية العربية، خاصة الفلسطينية منها عندما نقدوا كنفاني وحبيبي وجبرا، إلا أن ميزة الطرابيشي أنه يضع هذا التأثير في إطار العلاقة التي تحكم المستعمِر بالمستعمَر أي طابع العلاقات الكولونيالية، وإن كان قد بَحَثَ هذه العلاقة في إطار محدد هو تجنيس هذه العلاقة، وكيف يظهر في الرواية العربية، آخذاً توفيق الحكيم وعبد الرحمن منيف والطيب صالح وآخرين نماذج تحليلية. أما خضرا فتحقب بحثها حول الأدب الفلسطيني الحديث تحقيباً يتصل بهذه العلاقة بالذات- بمراحل الصراع بين الشعب الفلسطيني والمشروع الاستعماري الكولونيالي الصهيوني، قبل 1948 وبين 1948-1967وأخيراً بعد1967 (طرابيشي، 1977؛ الخضرا، 1997).

وإذا كان من الصحيح أن الكاتب الوسيط حسب غولدمان يحمل رؤية كونية هي ذاتها رؤية الطبقة التي شكلته كوسيط-ممثل لرؤيتها، فمن الصحيح القول أيضاً أن الوقوف عند هذا فيه الكثير من اللاعلمية. إذ كيف يمكن

والحال هذا دراسة أدب شعوب العالم الثالث التي تعاني من وطأة العلاقات الكولونيالية، كشعوب يعبر أدباؤها-بغض النظر عن مدى الصدق والإبداع- عن هموم شعب بأكمله، وعن واقع العلاقات الكولونيالية لا عن طبقة معينة، دون نفي الأثر الطبقي حتى في هذا الأدب؟ إن مقولة غولدمان تصلح والحال هذا فقط بعد تعميم الرؤية الكونية لتشمل (رؤية شعب) لا (رؤية طبقة) فحسب. وبغض النظر عن التناقضات القائمة بين الرؤى الطبقية لمختلف طبقات وفئات الشعوب العالم الثالثية فإن واقع تجربة الأدب في العالم الثالث تشير إلى أن هنالك سمات وخصائص وعلاقات تظهر في هذا الأدب تحيل على رؤية كونية لشعب وليس لطبقة، هي الرؤية المنطلقة من الرغبة بالتحرر من العلاقات الكولونيالية هذه. وقد عالجت مجلة (Social Text) الأدب ارتباطا بالعلاقات الكولونيالية في أكثر من دراسة. فالكتاب الثلاثة درسوا بالضبط واقع هذا الأدب من منظور العلاقات الكولونيالية. ولا غرابة أن تأخذ Harlow رواية كنفاني (عائد إلى حيفا) لتحللها كنموذج للرواية والأدب من منظور العلاقات الكولونيالية، فتلك الرواية التي تعالج موضوع الهوية في تحليل الصراع الفلسطيني-الصهيوني- وهي من أعقد القضايا التي كان لكنفاني شرف الريادة في طرقها- من أكثر الروايات التي تصلح لتحليلها من منظور العلاقات الكولونيالية(Jameson 1986; Harlow1986;Hassan2003).

والخضرا في استعراضها السريع للأدب الفلسطيني الحديث تسجل هذا الاستنتاج الذي يوحي برؤية كونية في إطار العلاقات الكولونيالية تكاد تشمل مبدعي هذا الأدب. تقول الخضرا" الأدب الفلسطيني تناول بالدرجة الأولى معاناة جزءٍ من الإنسانية، وجد نفسه عالقاً في شرك وضع سياسي أُحكمت هندسته وفرض عليه دون رضا منه ودون ذنب ارتكبه" (الخضرا، 1997: 96) وهي إذ تحلل سريعاً أعمال الروائيين الفلسطينيين(كنفاني وجبرا وحبيبي وعزام وغيرهم) تشير باستمرار لوحدة الهم الوطني الذي حمله هؤلاء الروائيون بما يؤشر لرؤية كونية مأخوذة في إطار الصراع الذي خلقته العلاقات الكولونيالية.

2:1 في مفهوم الرؤية الوطنية للشعب

وفي تحوير الدراسة لمفهوم (الرؤية الكونية للطبقة) إلى (الرؤية الوطنية للشعب) ما يستدعي الوقوف. يعيد دوماني بدايات تشكل الوعي الوطني الفلسطيني إلى التغيرات الحاصلة في فلسطين مع حملة إبراهيم باشا في أربعينيات القرن التاسع عشر، وأهمها ثورة الفلاحين الفلسطينيين المعادية لإبراهيم باشا وتململ الزعماء المحليين من تهميش دورهم الذي اكتسبوه من وظيفتهم كجباة للضرائب. فيما يذهب فرسون إلى أن منتصف القرن التاسع عشر قد شهد ظهور وعي فلسطيني. أما شولش فيربط بين هذا التشكل وبين طرح فلسطين على جدول أعمال التقسيمات الإدارية العثمانية ما بعد منتصف القرن التاسع عشر عندما تغيرت تقسيمات السناجق العثمانية، معتبراً أن النضال ضد الصهيونية ومشروعها هو الذي بلور(صورة كيان فلسطيني) لدى الفلسطينيين. ولا يبتعد الشريف كثيراً عن هذا التحديد هو الآخر. وفي مراجعة (جداول) أعمال المؤتمرات الفلسطينية في العشرينيات يمكن اكتشاف أن طرح استقلال فلسطين بمعزل عن سوريا الكبرى، وكتعبير عن تبلور الشعور بالهوية الوطنية، بدأ ليس قبل منتصف عشرينيات القرن العشرين (دوماني، 1998: 293؛

فرسون، 2003: 103؛ شولش، 1990: 19-28؛ الشريف، 1995: 427؛ الحوراني، 2003: 253-325).

إن الدراسة لا تهمل ما ذهب إليه دوماني وشولش، غير أنها تعتبر أن التبلور الفعلي للشعور الجمعي للفلسطينيين بهويتهم الوطنية تم بالفعل نتيجة تأثير عاملين أساسيين: أولهما تفكك الدولة العثمانية وبروز المسألة القومية لدى كافة رعاياها السابقين، بمن فيهم الفلسطينيين، خاصة أن سياسة التتريك حفزت هذا الشعور. وثانيهما: الصراع مع المشروع الصهيوني ومن خلفه الانتداب البريطاني. وهذا ما يمكن استشفافه من التحليل التاريخي للحوراني لمجريات تبلور المطالب الفلسطينية بالاستقلال عبر مؤتمرات العشرينيات. (مرجع سابق: 253-325).

إن الرؤية الوطنية للشعب بهذا المعنى، هي الشعور الجمعي بالهوية الوطنية المشتركة لشعب من الشعوب، والتي تعبر عن نفسها بإعلان (خصوصية ما) أمام خصوصيات أخرى. وفي هذا تحتل الذاكرة الجمعية دوراً هاماً في تشكيل هذا الوعي وذاك الشعور، إذ ليس من وعي وطني دون ذاكرة مشتركة، رواية مشتركة لتاريخ الشعب. في معرض تحليل دراج لرواية (عائد إلى حيفا) يؤكد أن " الذاكرة هوية ضعيفة، أو هوية محتملة بشكل أدق، لأنها لن تصبح هوية حقيقة إلا بعد صراع مع الآخر الذي يجبرها على الخيال، وصراع آخر أكثر طولاً مع أوهامها الموروثة" (دراج، 1997) والآخر هنا هو المشروع الصهيوني. أما أندرسون ففي تحليله لتشكل القوميات الأوروبية والآسيوية، يربط بين اللغة ونشوء القومية، لينتقل لتقرير حقيقة أن الشعب تتشكل لديه رؤية وطنية جمعية تعبر عن نفسها في السرد، وخاصة الرواية(أندرسون، 1999). ويصل لذات الاستنتاج صبري حافظ أيضاً. (Sabri,1993)

لذلك فالتبلور الفعلي لرؤية الفلسطينيين لأنفسهم كشعب، ولهويتهم الوطنية، إنما تم في الصراع مع الآخر- المشروع الصهيوني، ففي هذا الصراع تطورت رؤية وذاكرة فلسطينية مشتركة في مواجهة (هذا الآخر) المتسلح هو الآخر برؤيته وذاكرته النقيضة. وفي الشعر، كما في الأدب والموروث الحكائي الشعبي، كما في السياسة، تم صياغة معالم هذه الهوية: شعب يمتلك تاريخ وحضارة منذ آلاف السنين فوق وطنه، ويتصدى للمشروع الصهيوني في سبيل تحرره وتأكيد استقلاله.

والرؤية الوطنية لا تنفي الرؤية الطبقية، بل تتعايشان في علاقة تناقضية. كل طبقة تعبر عن نفسها برؤية ما، بثقافة ما، حتى لو لم تكن تلك الطبقة قد "وجدت لذاتها" بعد حسب المفهوم الماركسي، إذ إن المصالح المشتركة والرؤى والطموحات للفئات والشرائح...سرعان ما تجد تعبيرها عبر منظومة من الرموز الثقافية والتصورات، وهذه تتشكل في ما يسمى بالرؤية الطبقية. إن الخصوصية الفلسطينية تكمن تحديداً في تمكنها- وهذا شأن كل الشعوب الخاضعة للاستعمار- من صهر كافة الرؤى، دون تذويبها، في رؤية واحدة تعبر عن الهوية الوطنية في مواجهة الهوية المقابلة. إن تناول دراج مثلاً (للوعي الريفي المسيطر على منظمة التحرير) ولمفهوم الوعي الريفي لدى غرامشي، يشير إلى تلك الرؤية الطبقية التي تمكنت من تحديد، نتيجة هيمنتها، مجمل الوعي الوطني الفلسطيني. إن هذا التناول يعد مثالاً على ما ذهبنا إليه من تعايش الرؤيتين، أو

هيمنة واحدة على الأخرى، وتحديد معالمها، كما لدى دراج. إن تنوع الرؤى السياسية والفكرية الفلسطينية في إطار حركة التحرر، هو بشكل ما، تعبير عن اندماج هذا العدد من الرؤى الطبقية في رؤية وطنية واحدة، باعتبارها القاسم المشترك لمجموع الرؤى، عبر عنها الميثاق الوطني في مرحلة سابقة، وبرنامج التوافق الفلسطيني، المعروف ببرنامج الإجماع في مرحلة لاحقة، ومجمل الخطاب التاريخي الوطني الفلسطيني في سياقاته العامة، مع بقاء سيادة ما لثقافة ووعي ريفي، طبعت هذا الخطاب كما يذهب دراج(دراج، 1996).

ثالثاً: قضايا نسوية في التجربة الفلسطينية

ولأن موضوع دراستنا مكانة المرأة في الرواية الفلسطينية ارتباطاً بالواقع الاجتماعي فإنه لزامٌ علينا أن نعرج على ما نعتقده أبرز القضايا المرتبطة بواقع المرأة ومكانتها في المجتمع. إن هنالك العديد من القضايا النظرية (وهي مفاهيم أيضاً) ذات الطابع الجدالي مطروحة على بساط البحث تتعلق بالمرأة وحركتها ودورها كقوة اجتماعية، ولكن أبرزها على الإطلاق أربع قضايا شغلن التنظير والبحث منذ أكثر من عشر سنوات: الوطني والاجتماعي في حركة المرأة الفلسطينية، الحيزان العام والخاص الذي تشغله المرأة في المجتمع، الدور النضالي للمرأة، موقف الآخر من قضية المرأة(العائلة، الرجل، الثقافة، المؤسسة السياسية).

ستتناول دراستنا هنا القضيتين الأولتين فيما القضية الثالثة هي نتاج لهما ومندغمة في ثناياهما، أما القضية الرابعة فسيجري التطرق لها لاحقاً. وإضافة لأهميتها كقضايا فرضت نفسها في النقاش المجتمعي، فإن دراستنا ستركز على مكانة المرأة انطلاقا من ارتباط هذه المكانة بالقضايا أعلاه تحديدياً، باعتبارها أدوات قياس/ مؤشرات على تلك المكانة.

3: 1 الوطني والاجتماعي

مثلما تطورت الحركة النسوية من الدور الإغاثي-باعتباره دوراً اجتماعياً بالأساس- إلى الدور الوطني، وسنأتي على ذلك لاحقاً، حدث تطور على فهم المرأة لدورها الاجتماعي أيضاً في المرحلة ما بعد العام 1967 والمرحلة ما بعد اتفاق أوسلو.

يقدم الخليلي وصفاً واقعياً مؤثراً لدور المرأة في العمل المسلح دفاعاً عن المقاومة الفلسطينية في لبنان وخاصة في تل الزعتر، ويقرر أن " الخط العام للثورة الفلسطينية كما تبلور في السنوات الأخيرة-يعني أواسط السبعينيات- يؤكد على اشتراك المرأة في جميع المجالات النضالية والسياسية والتعبوية، وتجنيد طاقتهن لخدمة المعركة." (الخليلي، 1977: 111) ويضيف بأن هذا الدور ارتبط بكفاءة المرأة وجدارتها. ويعدد الخليلي "مهام المرأة" ابتداءً من القتال والقيام بالعمليات العسكرية وتعبئة وتنظيم الرجال والنساء، مروراً بإعداد الطعام للمقاتلين والإسعاف، وصولاً لإدارة المكاتب والمؤسسات. دون أن يتجاهل على أية حال واقع التجريبية في سلوك فتح فيما يتعلق بالمرأة، أو التناقض القائم بين الطرح النظري الرسمي للجبهة الشعبية لقضية المرأة والممارسة الفعلية (مرجع سابق: 115-130).

فالطرح الاجتماعي كما يشير الخليلي كان نظرياً أكثر منه برنامجاً اجتماعياً، رغم ما يؤكده من أن هذا الطرح كان مبكراً، مشيراً لثلاث مقالات فتحاوية مبكرة طرحت المسألة الاجتماعية(مرجع سابق:117).

وما يمكن استنتاجه من رصد الخليلي المبكر للوطني والاجتماعي هو التالي:

1. طغيان الاعتبار الوطني على الاعتبار الاجتماعي في مشاركة المرأة في المقاومة الفلسطينية، على قاعدة الرغبة بتعبئة الشعب بكافة فئاته في المعركة المسلحة ضد الاحتلال الصهيوني، ودفاعاً عن المقاومة في وجه الاعتداءات على حقها بالتواجد والقتال عبر الدول العربية(لبنان والأردن تحديداً). دون نسيان حقيقة أن هذه المشاركة الوطنية عززت الطابع الشعبي- الديموقراطي للمقاومة، وطرحت النساء كقوة اجتماعية.
2. دور المرأة الاجتماعي تحديداً كان يتأتى من ذات المشاركة في المقاومة المسلحة وكنتيجة لها، باعتبار أن تلك المشاركة كانت توسع من الحيز العام للمرأة-كحيز مقاوم- على حساب الحيز الخاص، وتطرحها كقوة اجتماعية في المقاومة إضافة للقوى الأخرى المشكلة للحركة.
3. كانت مكانة المرأة ودورها كقوة اجتماعية ذات خصائص محددة تطرح نظرياً في برامج القوى دون أن يعنى هذا تلازم الطرح النظري البرنامجي مع الممارسة الفعلية أو مع القناعات السائدة.
4. التوجه نحو تعزيز مكانة المرأة كان براغماتياً تتطلبه المعركة أكثر منه قناعة أيديولوجية(على الأقل بالنسبة لحركة فتح) (الخليلي، مرجع سابق)

أما داخل فلسطين فكانت الصورة مختلفة بعض الشيء. فالتأطير الواسع للنساء في الأحزاب والمؤسسات واللجان الشعبية، والمشاركة الميدانية في فعاليات النضال الشعبي، والانخراط في تشكيل التعاونيات الإنتاجية، وتشكيل الفروع الريفية للمنظمات النسائية، والتضحيات النسوية، إن كانت اعتقالاً أو جرحاً أو استشهاداً او معاناة يومية....كل ذلك نقل دور المرأة الاجتماعي والسياسي نقلة نوعية، وتعمقت أكثر الصلة بين الدور السياسي بالمفهوم الحصري(مقاومة الاحتلال) والدور الاجتماعي (الإنتاجي والاقتصادي) (كتاب، 1990: 385-403).

وتؤكد (كتاب) في دراستها هذه حول المرأة والانتفاضة الأولى على الأهمية الكبيرة للتعاونيات الإنتاجية التي شكلتها النساء بمبادرة من القوى اليسارية، ناقدة بذلك تحليل من أسمتهم" بعض الأكاديميات" اللواتي يشككن في تأثير الأفق التقدمي على المضمون الاجتماعي لهذه التعاونيات (مرجع سابق: 400 ;Hiltremann1991:215).

لذلك يصح وصف الانتفاضة الأولى كنقطة تحول هامة على صعيد دور المرأة الاجتماعي ومكانتها. ففي هذه المرحلة تبلورت الكادرات والقيادات النسوية، وتعمقت خبرة العديد من النساء في الحقول الاجتماعية والسياسية والتنظيمية، وتحولت إلى قوة اجتماعية ذات حضور في الحركة الشعبية الفلسطينية ببعديها الوطني والاجتماعي. وكان لا بد لكل ذلك أن يترك تأثيره على وعي النساء للمسألة الاجتماعية (بالمعنى الحصري)

فنشطت النساء في التثقيف الاجتماعي التقدمي الذي يطرح قضايا المرأة ببعديها الوطني والطبقي.(كتاب، 1990: 390).

إن كل هذا لم ينتج فقط من تأثير الانتفاضة بل ومن طابع عمل وبرامج وتعبئة المنظمات النسوية منذ مطلع الثمانينات، ومن حقيقة " تشكيلها على قاعدة فكرية ديموقراطية تنطلق من الفهم الجدلي للتحرر الوطني والديموقراطي وما يترتب عليه من ترسيخ للمساواة والعدالة الاجتماعية" (كتاب وعواد، 2003: 99) نستنتج من كل ما سبق أن الانتفاضة الفلسطينية قد أرست بداية التوازن المطلوب بين الدور الاجتماعي والوطني للمرأة (Hiltremann 1991:. 215).

ولكن هذا التوازن سرعان ما تضعضع بفعل التطور الحاصل في الحركة النسوية ما بعد أوسلو ونشوء السلطة الفلسطينية كما مر سابقاً. إذ جرى التركيز على المسألة الاجتماعية بمفردات جديدة (النوع الاجتماعي، حقوق النساء، القوانين، الأحوال الشخصية، المشاركة في مواقع القرار...) بمعزل عن البعد الوطني- الديموقراطي، فيما بدأ يترنح أكثر فأكثر الطابع الشعبي للحركة، وتهتكت العلاقة بينها وبين الحزب، وتأسست المنظمات ذات الطابع النخبوي المعتمدة على التمويل الخارجي، وتراجع كثيراً دور النساء السياسي في مقاومة الاحتلال. وقد عرجت كتاب وعواد على هذه المظاهر بالتفصيل،[1] وإن كانت كتاب افتقدت القدرة على التقاط ما للتمويل الخارجي من أثر على بنية وبرامج المؤسسات النسوية الجديدة ما بعد أوسلو (كتاب، 1996: 144-148؛ كتاب وعواد، 2003).

وكل هذا عنى طغيان الطابع الاجتماعي بشكل مشوه، وعبر أجندات لا تتفق دائماً ومتطلبات إعادة بناء حركة نسوية فاعلة اجتماعياً ووطنياً.

3: 2 الحيزان العام والخاص

والمفهومان وإن وجدا واقعياً في واقع المرأة ودورها ومكانتها إلا أنهما تغلغلا في التنظير النسوي الفلسطيني حديثاً، بفعل الاتصال بالفكر النسوي الليبرالي الغربي تحديداً والذي نشط بعد أوسلو، حتى لا تجدن أية دراسة نسوية منذ أواسط التسعينيات إلا وتستند للمفهومين كأداة لتحليل مكانة المرأة، وعلى العكس من الدراسات السابقة على هذا التاريخ، التي كانت تنطلق من مفهوم قضية المرأة ذي الملامح اليسارية.(الجبهة الشعبية، 1994).

والخليلي يعالج مكانة المرأة في الثورة الفلسطينية من خلال المفهومين وإن لا يعتمدهما كمفهومين اصطلاحيين. وما سجلناه سابقاً عند استعراضنا لموقف وتحليل الخليلي يؤشر على أن المقاومة الفلسطينية لعبت دوراً بارزاً في خروج المرأة من الحيز الخاص"المنزل" إلى الحيز العام" السياسة بمفهومها الواسع"،

[1]- استندت كتاب وعواد في بحثيهما المشترك في الوصول للاستنتاجات أعلاه على منهجيتين: تحليل مضمون البرامج النسوية للمؤسسات ومقابلات موسعة مع قيادات العمل النسوي في فلسطين.

وهذه على أية حال ظاهرة تلازم الشعوب التي تعيش في ظل العلاقات الكولونيالية، وتطرح أهدافاً تحررية (كتاب، 1996: 127).

وفي تعريف كتاب وعواد للحركة النسائية من زاوية تشكلها وارتباطاتها فإنهما تعزيان للارتباط بحركة التحرر السبب في نشوء الحركة النسوية في البلدان التي تواجه مهام التحرر، وإضفاء الطابع الوطني على هذه الحركة أصلاً، وبالتالي لعب الدور الأساسي في التأثير على موقع المرأة في الحيز العام. أما هيلترمان فيعتقد أن العمل الوطني ضد الكولونيالية(يجتاح النساء) وينقل عن بيتيت اعتبارها أن المقاومة منحت النساء شرعية وطنية واجتماعية (كتاب وعواد، 2003 ;Hiltremann 1991.)

إن المتتبع للدراسات حول المرأة والمقاومة الفلسطينية- وأهمها دراسة الخليلي المذكورة أعلاه- يلحظ دون عناء حقيقة أن الاشتراك في العمل المسلح، على تنوع أشكال هذا الاشتراك، نقل المرأة جذرياً من الحيز الخاص التقليدي إلى حيز عام ذي طابع مقاوم بشكل مباشر، هذا على الأقل يتعلق بالنساء الفلسطينيات في ما بات يعرف (ببلدان الطوق)، وقد طبع علاقة المرأة بحيزها المقاوم لسنوات تمتد منذ 1967 حتى العام 1982 وفي لبنان بشكلٍ خاص. وقد تأكد هذا الطابع أكثر فأكثر في لحظتين سياسيتين: الأولى في مراحل النهوض الوطني وتصاعد المقاومة، والثانية في مراحل الدفاع عن مشروع المقاومة الفلسطينية.

أما في داخل فلسطين ومع أن دخول الاحتلال قد عجّل من خروج المرأة للحيز العام نتيجة إجراءاته التي فرضت " تحويل المنزل"الخاص" إلى ميدان تمارس فيه عدداً من أعمال المقاومة ومن الأنشطة السياسية" (جاد، 2000: 19) فإن الانتفاضة الأولى قد هتكت تماماً، وبالنسبة لقطاعات واسعة من النساء، الجدران التقليدية للحيز الخاص، وشكلت حيزاً عاماً شعبياً ونضالياً استوعب أدواراً جديدة للنساء، وفرضهن كمكانة متميزة، وكقوة اجتماعية. فالمشاركة النسوية في الفعاليات التي أشرنا إليها سابقاً في أكثر من موقع، ونضال وتضحيات النساء تحديداً، هي التي خلقت هذا الحيز، حتى لقد بات من الجائز الحديث عن انتفاء الحدود بين الحيزين لقطاعات واسعة من النساء.. لقد طُبعت معالم هذا الحيز الجديد بسمات جوهرية لعل أهمها:

1. الطابع الشعبي لهذا الحيز خاصة بانتقال العمل النسوي من بين الأوساط المدينية النخبوية التي شغلت الحيز العام السابق، إلى العمل في الأوساط الشعبية في الأرياف والمخيمات، ما أضفى بالضرورة طابعاً طبقياً جديداً على هذا الحيز.
2. أصبحت المنظمات النسوية التي تشكلت في مطلع الثمانينات وحصلت على دفعة هائلة في الانتفاضة من حيث عضويتها ومهامها وبرامجها، هي الأساس الذي نهضت عليه هذه المشاركة النسوية في الحيز الجديد(Hiltremann 1991) .
3. اندماج الوطني والاجتماعي كما ذهبنا لاحقاً كان هو الآخر سمة هامة من معالم هذا الحيز الجديد، ليتأكد من جديد الدرس الأهم الذي سجلته كتاب وعواد من أن نضال التحرر الوطني يشكل الحركة

النسوية ويحدد برنامجها، ونضيف أنه يعيد أيضاً صياغة العلاقة بين الحيزين لجهة انتفاء الحدود بينهما.

أما بعد أوسلو فالصورة تغيرت. فالنخبوية في العمل النسوي ومؤسساته، وتراجع النضال الوطني وتفكك الحزب السياسي، والارتهان للتمويل الخارجي بأجندة جديدة لا تتفق بالضرورة واحتياجات النساء، والمبالغة في الاجتماعي على حساب الوطني...كل ذلك ضيق الحيز النسائي العام وأعاد صياغة طابعه الذي يمكن استنتاج أهم ملامحه مما ذكرته كتاب وعواد بالتالي:

1. النخبوية سمته البارزة بعد تفكك المنظمات النسوية المرتبطة بالأحزاب.
2. انتفاء البعد الوطني النضالي في هذا الحيز كان بارزاً.
3. الأمر الذي طبع هذا الحيز بطابع ضيق، معزول عن الأوساط النسائية الشعبية، وعن المسألة الوطنية، كحيز تأسس على قاعدة المنظمات غير الحكومية الممولة خارجياً، فأعيد إنتاج هذا الحيز بطبعة جديدة هي على النقيض من طبعة الحيز المقاوم في الخارج والحيز الانتفاضي في الداخل.
4. حتى بتنا أمام ظاهرة جديدة: رغم كل الهالة الإعلامية التي يحيط هذا الحيز الجديد نفسه بها- وهو حيز نشط إعلامياً- إلا أنه من حيث سعته وتركيبه ومهامه حيز ضيق، ومعزول شعبياً. وبالمقابل انكفأت النساء بقطاعاتها الواسعة داخل حيزها الخاص الذي عاد للتوسع من جديد. (كتاب وعواد، 2003).[2]

رابعاً: أدبيات في حقل المرأة الفلسطينية والرواية

في كتاب**(الرواية المغربية والواقع الاجتماعي- دراسة بنيوية تكوينية، 1985)** يتناول الباحث المغربي **(الحميداني حميد)** ذات الموضوع الذي تتناوله هذه الدراسة باختلاف البلد بين المغرب وفلسطين، كما أنه يستخدم المنهج الذي تبنته هذه الدراسة، البنيوية التكوينية، فيما هو أيضاً رسالة لنيل درجة علمية-لم يظهر أهي الماجستير أم الدكتوراة، أو إن كانت في الأدب العربي أم في علم الاجتماع.

ولم يضعف من أهمية الدراسة بالنسبة لنا دمجها بين التحليلين، الفني-الجمالي للأدب و الاجتماعي، لذلك نرجح بأنها رسالة في الأدب العربي- فالوقوع على دراسة تتناول ذات المنهج والموضوع والهدف أمر أفادنا كثيراً.

ومقدمة رسالة حميد تتناول الإطار النظري للبحث والأدبيات الهامة ومنهجيته وخلفية تاريخية-اجتماعية-فكرية عن الواقع المغربي، فيما يتناول بابا الرسالة الموقفين اللذين وقفتهما الرواية من المجتمع- المصالحة والانتقاد. وفي البابين المذكورين تحليل جمالي-اجتماعي لعينة من الروايات الأساسية قبل الوصول للتصنيف الذي اعتمده لكل رواية حسب موقفها.

---

[2]- يستند الباحث في استنتاجاته حول العمل النسوي قبل وبعد الانتفاضة، إضافة لما ذُكر، إلى خبرته السياسية والحزبية في العمل مع النساء لأكثر من 15 عاماً.

وفي التصنيف بعض من التعسف الذي يحشر الرواية والإبداع في قوالب، والرواية بالأصل كعملية إبداعية تبدو عصية على تعسف القولبة، وهو أمر لم يغب عن قلم المشرف على الرسالة وكاتب تقديمها، محمد الكتاني، حينما يشير إلى ما يظهر أنه نقد دوغمائي من الباحث الذي " يتعاطف مع كل عمل روائي يرفض التصالح مع الواقع، ويدين كل عمل روائي متفائل، لأن التفاؤل-والحال هكذا- ليس سوى عاطفة لا مبرر لها من منظور جدلية الصراع الطبقي"(حميد، 1985:التقديم د).

والكتاني يعزو ذلك إلى حماسة الباحث لمنهجه حتى تغيب عنه(كل سلبياته). ليست المشكلة كما نرى في المنهج بل في استخدامه. فالقيمة الاجتماعية والفنية للعمل الأدبي ليست في تنظيره الأيديولوجي بل في صدق إعادة بناءه للواقع، الصدق الذي يحيل القاريء على إعادة قراءة الواقع بطريقة جديدة، أي في قدرة المبدع على اجتراع المتخيل الروائي من الواقع الاجتماعي، وهذا المتخيل على تعقيده عصي على تصنيفي المصالحة والانتقاد، عصي على تصنيفي المتشائم والمتفائل. ولقد كان من الأولى بحميد أن لا يقع في هذا لاعتبار أخذه التحليل الفني-الجمالي وليس فقط الاجتماعي، فهذا التحليل يمكن من الكشف على معايير الصدق أكثر من الوقوف عند حد التحليل الاجتماعي فحسب.

و**عز الدين مناصرة** في بحثه القيم والجديد بعنوان: (**المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية الفلسطينية المعاصرة- بحث في نماذج مختارة، 2002)**، يتناول المرأة من زاوية العلاقة مع الرجل، كما تظهر في الرواية الفلسطينية، وكجزءٍ من التشكيل الروائي الجمالي، وفي سياق اللغة السردية الروائية الجديدة، التي أضفت بعداً جمالياً على صورتها، ليصل بعد تحليله لعدة نماذج لروائيين (كنفاني، ليانا بدر، جبرا إبراهيم، وسحر خليفة)، إلى أن أنماط شخصية المرأة في الرواية لا تتجاوز الأربعة نماذج: المستغَلة، الجسد، العبء، والرمز، علماً أن مناصرة لا يربط بإحكام العلاقة بين هذه النماذج الأربعة التي توصل إليها وبين التغيرات ذات الصلة في البنية الاجتماعية قبل وبعد أوسلو.

إن بحث المناصرة الكبير والوافي (530 صفحة من القطع الكبير) يمكن اعتباره محاولة للدمج بين منظور النوع الاجتماعي والدراسة الأدبية- هذا المنظور القائم على ثنائية المرأة/الرجل- وبين التحليل الفني-الجمالي لعلاقة الرجل بالمرأة كما ظهرت في الرواية، وهي محاولة ليست مبتكرة على أية حال. فقد نشطت وفي السنوات الأخيرة وبفعل تنامي الاهتمام بالدراسات النسوية، الكتابات التي تحلل الأدب وفق هذه الثنائية، فصدرت عشرات الدراسات الأدبية والنسوية كلها تحاول فحص العلاقة بين الرجل والمرأة في الأدب العربي والفلسطيني.[3]

ومع أن المناصرة يؤكد في حديثه على منهج الدراسة، اختياره للمنهج البنيوي التكويني بما يوفره هذا المنهج من آلية لفحص الأبعاد الاجتماعية في الرواية، غير أن بحثه لم يختص بتناول مكانة المرأة بين مرحلتين، ما قبل أوسلو وما بعدها. كما جاء بحثاً في النقد الأدبي أكثر منه بحثاً سوسيولوجياً في الأدب، رغم تركيز الكاتب في بحثه على الأبعاد الاجتماعية. فهو يتناول العلاقة بين المرأة والرجل(كثنائية منهجية في بحثه) من

---

[3]- يمكن بمراجعة ثبت المراجع لدى المناصرة التدليل على ما ذهبنا إليه.

خلال تقنيات فنية في الكتابة الروائية (المرأة بين الواقع والتمثيل في الرواية الذكورية/ المرأة بين الاستلاب والتمرد في الرواية النسوية/ جماليات المرأة وعلاقاتها بالآخر في الرواية الفلسطينية)، معتمداً تصنيف الروايات لروايات ذكورية (جبرا، كنفاني، وحبيبي) وروايات نسوية (خليفة، بدر، الأطرش، والبنا)، وحينما يتناول البعد الاجتماعي فعلى قاعدة هذه الثنائية، لا العكس، تناول الثنائية في سياق البعد الاجتماعي للرواية، وتلك القضية المفصلية التي تميز الدراسة السوسيولوجية للأدب عن الدراسة الأدبية النقدية له (المناصرة، 2002: 17-20).

ومع ذلك فدراسة المناصرة تقدم فائدة كبيرة لبحثنا، فهي توفر الفرصة للإطلاع على تقنية استخدام البنيوية التكوينية في تحليل الروايات، وتفتح الآفاق على فحص ما لجنس المبدع من أثر على إبداعه، وتلك قضية ستأخذها دراستنا بعين الاعتبار وإن ليس بشكلٍ مركز. وأخيراً فإن دراسة المناصرة تضيء جوانب من تحليل العينة المنتقاة (وجزء منها من ذات عينة دراستنا) هي ذات الجوانب لتي سنتناولها إضافة لجوانب أخرى.

أما **فيصل دراج** فقد حلل في كتابه **(بؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية، 1996)** جملة من العلائق بين الثقافة من جهة والمؤسسة والممارسة السياسية من جهة أخرى. ويستند دراج في فحصه للعلائق تلك إلى تحليل عام ومكثف وذي طابع نظري لأعمال كنفاني وحبيبي ودرويش وناجي العلي وسحر خليفة وإدوارد سعيد. إن الأبحاث القيمة الذي قدمها دراج في هذا الكتاب ستفرض حضورها على كل دارس للعلاقة بين مكانة المرأة الاجتماعية وصورتها كما ظهرت في الأدب، لاعتبار أن تحليل موقع المبدع من الثقافة ومؤسستها سيترك تأثيرها بلا شك على موقفه من قضية المرأة. ودراستنا بالاستناد لمنهجها البنيوي التكويني تستخدم (رؤية المبدع) كمفهوم-أداة تحليل، لفحص رؤيته لمكانة المرأة، ومدى نجاحه في تقديم تلك المكانة روائياً، وبطريقة صادقة. إلا أن دراسة دراج واطابعها العام لا تكفي لفحص العلاقة بين مكانة المرأة الاجتماعية ومكانتها وصورتها كما ظهرت في الأعمال الروائية، وإن كانت ستضيء بلا أدنى شك حقولاً ستستفيد منها هذه الدراسة. بقي القول أن مكانة دراج التي تجمع بين الكفاءة في ممارسة النقد الأدبي كمتخصص، وقدرته على التنظير للرواية وعلاقتها بالحياة الاجتماعية كمفكر، ستوفر لهذه الدراسة فرصاً عديدة لإضاءة جوانب هامة فيها(دراج، 1996).

أما **سعيد مضية** فقد كتب دراسة قصيرة (**حول المرأة في الرواية الفلسطينية)** ضمن كتاب**(تأملات نقدية في نماذج من الأدب الفلسطيني المعاصر، 2001).** قِصَر دراسته وكبر الموضوع تشي بالنقص الكبير في الدراسة. فعبر استعراض سريع لبضعة روائيين (إلياس خوري، أحمد حرب، ليانا بدر...) استنتج ما بات يعرف كلاسيكياً بالنماذج الروائية للمرأة. وتلك منهجية تتكرر في عشرات الدراسات التي تنمذج صورة المرأة، ولكن بتكثيف وتجزيء أفقد الدراسة قدرتها على الوصول لما ارتآه العنوان (مضية، 2001).

أما الباحث الفلسطيني **عادل الأسطة** فقد درس الأدب الفلسطيني وموقف الأديب انطلاقا من سؤال الهوية تحديداً، في كتابه**(سؤال الهوية-فلسطينية الأدب والأديب، 2000).** وقد عرج الأسطة على أعمال عديدة

(يحيى يخلف، محمود شقير، ليانا بدر...) وأفرد حيزاً لتأثير الانتفاضة الأولى على رؤية الأدباء لليهودي. إن بحث الأسطة، وتحديداً جزءه الأول، يلامس ما ستتطرق له هذه الدراسة من زاويتين مهمتين: الأولى موقف الأديب وأثره على عمله الإبداعي من حيث قدرته على عكس الواقع جمالياً، والزاوية الثانية محاولته إيجاد القاسم المشترك(القانون إن جاز التعبير) الذي ينظم الإبداع الفلسطيني في محاورته للواقع.

وقد أفردت الباحثة والناقدة اللبنانية **يمنى العيد** حيزاً لدراسة خاصة حول **(تنامي الوعي والبعد الرمزي في رواية غسان كنفاني).** تركز قراءتها النقدية على ثلاث روايات لكنفاني: أم سعد، وما تبقى لكم، وعائد إلى حيفا، مع التطرق السريع لروايات أخرى. إن بحثها قيم لدراستنا خاصة تحليلها لرواية أم سعد وعائد إلى حيفا اللتين ستتناولهما دراستنا. لكن البحث يقتصر على هاتين الروايتين، ولا يفرد حيزاً خاصاً كافياً لمكانة المرأة، ناهيك عن أنه لا يتناول عينة واسعة من الرواية الفلسطينية تغطي الفترة الزمنية التي تتناولها دراستنا، ونربط من خلالها مكانة المرأة كما ظهرت في الرواية بالتغيرات الاجتماعية بين المرحلتين اللتين حددتهما الدراسة(العيد، 1975).

وكجزء من العمل الموسوعي، ، كتب دراسته التوثيقية- النقدية بعنوان (**الرواية والقصة القصيرة والمسرحية الفلسطينية).** في الدراسة ربط محكم بين الرواية الفلسطينية وتطورها منذ العام 1948حتى العام1985 والتطورات التاريخية التي واكبت الصراع الفلسطيني-الصهيوني والآثار الاجتماعية لهذا الصراع. ولأن الرواية جزء من عمل موسوعي توثيقي فهي تخدم أية دراسة سوسيولوجية تنطلق من اعتبار الرواية وثيقة تاريخية-اجتماعية كهذه الدراسة، ولا يقلل من أهميتها بالنسبة لنا اقتصارها على فترة زمنية غير التي تحددت في هذه الدراسة، فهي على الأقل تشمل الفترة من 1967حتى 1985 وهي جزء هام من فترة دراستنا هذه. فالنماذج الروائية التي يتناولها تلتقي كثيراً مع بعض نماذج العينة في دراستنا، وبالتالي سنستفيد من تحليل شريتح استفادة كبيرة(شريتح، 1990: 167-237).

وأيضاً كجزء من عمل توثيقي، وكمقدمة تاريخية ونقدية له، جاءت مساهمة الباحثة والناقدة سلمى الخضراء الجيوسي في دراستها**(الأدب الفلسطيني في العصر الحديث)** الذي يرصد مسيرة هذا الأدب منذ ما قبل النكبة حتى ما بعد مرحلة أوسلو. ولطابع التأليف الموسوعي، شأن الموسوعة الفلسطينية، كان رصد الجيوسي للأدب يربط بإحكام الرواية الفلسطينية بالتطورات التاريخية للصراع الفلسطيني- الصهيوني، وما واكبه ونتج عنه من تغيرات اجتماعية. لذلك كانت فائدة الدراسة بينة لدراستنا هذه. هذا من ناحية، أما من الناحية الثانية فالجيوسي تغطي تقريباً كامل الفترة التي تغطيها هذه الدراسة، وبالتالي تتناول العديد من النماذج الروائية التي سنتناولها، وعليه فالفائدة مزدوجة(الخضرا، 1997: 31-109).

وأخيراً فالدراسة أيضا ستستأنس بما كتبه **يوسف سامي اليوسف** في دراسته**(غسان كنفاني-رعشة المأساة)**، ودراسة **(غسان كنفاني- الجمال الحزين والعطاء المتوهج)** للكاتب **سهيل كيوان،** خاصة لجهة تحليليهما لروايتي أم سعد وعائد إلى حيفا المثبتتين في عينة هذه الدراسة (اليوسف، 1998؛ كيوان، 2003).

استنتاجات

بعد إطلاعنا على الأدبيات في حقل الرواية الفلسطينية والمرأة يمكن تسجيل الاستنتاجات التالية:

1. كان الطابع الأدبي النقدي الذي يبحث المسائل الجمالية هو الطاغي في الدراسات(المناصرة، العيد، مضية، اليوسف..)، لا الطابع السوسيولوجي الذي يعطي الأولوية لفحص العلاقة بين البنية الاجتماعية والرواية من زاوية سوسيولوجية. لذلك لم تغطِّ الدراسات ذات الحقل الذي تبغي هذه الدراسة تغطيته- حقل سوسيولوجية الرواية.
2. وعندما يتم تناول المرأة فإما أن يتم تناولها من زوايا أدبية-نقدية ذات بعد اجتماعي تتخذ من ثنائية مرأة-رجل مدخلاً لها(المناصرة)، وإما كجزء من كل هو الشعب بأكمله، وكيف ظهرت صورته في الرواية (شريتح والجيوسي...). لم نعثر على دراسة تتناول المرأة في الرواية والتحولات على مكانتها ارتباطاً بالتحولات في المجتمع، كدور وحركة وقوة اجتماعية، أي من زاوية التحليل السوسيولوجي للتحولات على دور ومكانة المرأة.
3. وبأخذ الفترة التاريخية بالاعتبار فإن الفترات التي تغطيها الدراسات لا تتفق مع الفترة التي تغطيها دراستنا (1967- بداية القرن الحالي).
4. وأخيراً لم نعثر على دراسة تستخدم المنهج المقارن(بين مرحلتين تاريخيتين)، لفحص التغيرات على مكانة المرأة في الرواية في هاتين المرحلتين: ما قبل أوسلو وما بعد أوسلو.

لذلك كان لدراستنا ما يبررها من الزاويتين الفكرية-الاجتماعية، والعلمية.

خامساً: سؤال الدراسة وفرضياتها

باستعراض القضايا النظرية والأدبيات التي تناولت العلاقة بين المرأة الفلسطينية والرواية فإن سؤال الدراسة الذي تحاول التصدي له هو: إلى أي مدىً كانت التحولات على مكانة المرأة ودورها في الرواية الفلسطينية المعاصرة، تتناسب والتحولات على مكانتها ودورها في الحياة الاجتماعية والسياسية الفلسطينية قبل وبعد أوسلو، خاصة لجهة الأسئلة الكبيرة التي تُطرح حول هذه المكانة وذلك الدور من نوع الوطني والنسوي، الحيزان الخاص والعام، الدور النضالي للمرأة، وموقف الآخر[4]، من ذلك الدور وتلك المكانة. وباختصار ستحاول الدراسة الوقوف على مدى محايثة الإبداعي الفلسطيني للاجتماعي والسياسي فيما يتعلق بالمرأة ومكانتها ودورها في المجتمع، والكيفية التي ظهر فيها التحايث، إن وجد.

والفرضية الأساسية التي تنطلق منها الدراسة أن الرواية الفلسطينية أخذت تنوع في تناولها للمرأة في مرحلة ما بعد أوسلو بما يختلف عما قبلها وتستجيب للقضايا الجديدة المطروحة. لقد بقي الموضوع الوطني حاضراً وطاغياً ولكن أخذ الموضوع النسوي يغزو الكتابة حتى ما قبل أوسلو. والرواية الفلسطينية طرحت إشكاليات تتعلق بمكانة المرأة بجرأة لم يتطرق لها الفكر السياسي المهيمن، وتحديداً في العلاقة مع الرجل، المؤسسة

[4]- الآخر هنا مأخوذ بمعناه الشمولي: الرجل، العائلة، الثقافة، والمؤسسة السياسية.

السياسية، والعائلة، ومشاركتها بالنضال وتداعيات هذه المشاركة عليها وعلى علاقتها بالفكر والثقافة السائدة المتعلقة بالمرأة، فالأدب بالعادة أكثر جرأة من السياسة خاصة في مجتمعات تهيمن عليها السلطة القمعية في السياسة كما في الثقافة، خاصة لجهة المسكوت عنه في النص الأدبي[5]

[5]- المسكوت عنه، مقولة تستخدم للكشف عن قضايا غير مطروقة في ظاهر النص بينما يمكن تلمسها عند تحليله، لجهة العلاقة بين النص الروائي من جهة والواقع الاجتماعي من جهة أخرى. وبالعادة فالمسكوت عنه نتاج، إما للمخيلة التي تناسب العمل الفني او لاعتبارات القمع السياسي للمبدع. (أنظر: ثامر، 2004)

الفصل الثاني

منهج الدراسة وعينتها

أولاً: منهج الدراسة

إن المنهج الذي نستخدمه في دراستنا والذي توصلنا إلى اختياره بعد الاطلاع على القضايا النظرية الأساسية في الإبداع الروائي ونظرية الرواية، وبعد مراجعة مجموعة من الأعمال التطبيقية، هو **منهج البنيوية التكوينية** الذي اختطه غولدمان كتطوير على أعمال جورج لوكاش في حقل سوسيولوجيا الرواية.

واصطلاحاً، تعني البنيوية التكوينية في شقها الأول" اعتبار النص الروائي بنية فنية ذات استقلال وتميز عن باقي البنى الأخرى للأشكال الأدبية، باعتبار هذه البنية دالة بذاتها على ذاتها"(حميد، 1985: التقديم). وهي منهجية في التحليل تطورت واستندت إلى المنهج الألسني الذي رسخ محدداته وأصوله الألسني السويسري دي سوسير كما تطرقنا له في مساهمات غولدمان والعيد في استعراضنا للقضايا النظرية سابقاً.أما الشق الثاني(التكوينية) فتعني" الأخذ بالسياق الفكري والاجتماعي الذي يعكس بنية سوسيولوجية مناظرة للبنية الفنية"(مرجع سابق: التقديم).

وفي شرح حميد للمنهج يفسر غولدمان بالقول" الإنتاج الأدبي الإبداعي ليس فقط من صنع مبدعه ولكنه قبل أن يكون كذلك فمضمونه العميق موجود في فكر الجماعة التي ينتمي إليها المبدع أو يعبر عنها"(مرجع سابق:12).

أما المناصرة الذي استخدم ذات المنهج فيعتبره" منهجاً حيوياً في البحث لقدرته على سبر أغوار النصوص، خاصة أنه استفاد من النظريات الاجتماعية في دراسة الأدب، ومن النظريات النقدية الهيكلية التي تحققت في المناهج البنيوية الحديثة" ويتابع إن هذا المنهج يمكنه" من خلال دمج العمل الأدبي في الحياة الشخصية لمبدعه، وفي خلفية النص الاجتماعية والتاريخية.....رؤية العالم عند الجماعة التي ينتمي إليها هذا الكاتب، والتساؤل عن الأسباب الاجتماعية والفردية التي أدت إلى هذه الرؤية كظاهرة من ظواهر الوعي الجمالي"(المناصرة، 2000: 17).

وفي كتابه (نظرية الرواية والرواية العربية) يقدم دراج شرحاً وافياً لإسهامات غولدمان في نظرية الرواية بتأسيسه للمنهج البنيوي التكويني. إن ما يهمنا هنا هو النقد الذي سجله دراج في خاتمة تقديمه هذا لمحاولة الاستناد لغولدمان لتحليل الرواية العربية. يعد دراج منهج غولدمان –البنيوية التكوينية- حاوياً لعناصر أربعة: البنية الدالة المتسقة، الاندراج الأيديولوجي، الأيدولوجيا والطبقة الاجتماعية، ووظائف الطبقة. ويؤكد دراج بقطعية غريبة على البحث، أن العنصر الوحيد الذي " يتكشف لحظة الاقتراب من النص الروائي العربي، هو العنصر الأول" فيما العناصر الثلاثة الأخرى غير موجودة نتيجة انتفاء الطبقات وبالتالي الأيديولوجيا في البلدان الظرفية- بلدان المحيط، ليصل في النهائية إلى حكم على كل نظريات الرواية الغربية وعدم صلاحيتها-إن طبقت آلياً- على الرواية العربية، ونفي الأيدولوجيا والطبقات عربياً، يجعل من الإشارة

للتطبيق الحرفي، كشرط منفي، أمراً لا معنى له أمام نفي المكون الفكري-الاجتماعي للنظرية الروائية أصلاً (دراج، 1999: 163).

إن دراج هنا لا يميز بين الشروط التاريخية لنشأة النظرية الروائية الغربية- والبنيوية التكوينية منها- وبين الاستخلاصات المنهجية التي توصل إليها البحث النظري الغربي عند ملامسته- تحليلياً- للشروط أعلاه. فالعلوم الإنسانية بعامة كونت أطرها النظرية لتحليل ذات الشروط التي لازمت تكون النظريات الروائية الغربية-شروط نشأة المجتمع الرأسمالي والمراحل المختلفة لتطوره وتطور أزماته. ولكنها مع ذلك، كونت مناهج نظرية يمكن الاستناد إليها، وتطويرها مفاهيمياً، في تحليل شروط تشابه- إلى هذا الحد أو ذاك- الشروط الأوروبية. فمفهوم القيمة الزائدة في ترسانة ماركس النظرية أضحى مفهوماً منهجياً لدى سمير أمين في تحليل علاقات التبعية الاقتصادية، ولكنه هذه المرة ليس مأخوذ في المجتمع الرأسمالي كما فعل ماركس، بل مأخوذاً في سياق العلاقات الاقتصادية الدولية، ولفهم ظاهرة "التصنيع الكمبرادوري" كما أسماها أمين. وقس على ذلك مفاهيم البنية والفعل لدوركهايم، وآليات الحفرية لدى فوكو والأمثلة كثيرة.

ونفس الشيء يمكن التعامل مع إسهامات غولدمان. فهو وإن استند لمفهوم (الرؤية الكونية للطبقة)، يمكننا تحوير هذا المفهوم ليغدو (الرؤية الوطنية لشعب) عند تحليل الرواية في ظل العلاقات الكولونيالية، ففي النهاية الصحيح ثابت في الحالتين: لا يمكن للمبدع أن يصدر عن فراغ في إبداعه، وهو حينما يعبر فنياً إنما يعكس رؤية جماعة، طبقة كانت أم شعباً. وبالتالي فالمنهجية صحيحة في الحالتين. وقس على ذلك كافة المفاهيم التي نحتها غولدمان، العلاقة بين البنيتين والتماسك الداخلي، والفهم والتفسير...

ومن زاوية أخرى فإن اعتبار دراج أن غولدمان ولوكاش وإذ استندا لمقولة(الفرد الإشكالي) في صياغتهما النظرية للرواية - والرواية لديهما تعبير عن هذه الإشكالية- التي هي بالتحليل الأخير إشكالية الفرد في المجتمع الرأسمالي، فلا يضعف تحليليهما هذا الواقع التالي: أن الفرد الإشكالي وجد دائماً في التاريخ العربي ما دون الرأسمالية[6]، وبالتالي لا تنتفي إمكانيات استخدام منهجيهما(مرجع سابق، 1999). فالفرد الإشكالي موجود وإن اختلفت الشروط التاريخية لنشأته، والرواية تعيد صياغته فنياً، ولن ينتهي هذا الفرد إلا بانتهاء الاغتراب في المجتمع بغض النظر عن شرطه التاريخي: الرأسمالية، السلطة القمعية، الثقافة المهيمنة، التناقض بين الذات وشروط الموضوع.[7]

وأخيراً يبدو من الغريب على باحث وناقد متمكن مثل دراج أن يشطب بجرة قلم وجود الطبقات والأيديولوجيا في البلدان الطرفية، فإشكاليات النشوء والتكون والتطور والطابع المشوه لتشكلها... كل ذلك لا ينفي وجودها في البنية الاجتماعية، ولا تنعدم الدراسات الاجتماعية والاقتصادية التي تؤكد ذلك. علماً أن نحتنا لمفهوم

---

[6]- يمكن الوقوف على هذا النموذج في شخصية الزير سالم التي صاغها الكاتب المسرحي ممدوح عدوان في عمله التلفزيوني الدرامي(الزير سالم أبو ليلى المهلهل) وعرض على قناة أبو ظبي الفضائية في تشرين الثاني/ 2004، إذ أن كل مسار الشخصية يعبر عن إشكاليات مركبة لدى الزير.

[7]- لقد تميز نجيب محفوظ بشخصيات رواياته الإشكالية حتى باتت تلك الشخصيات أدوات تحليل قائمة بذاتها، لما في صياغة إشكالاتها من حنكة تميز فيها محفوظ. نذكر على سبيل المثال شخصية أحمد عبد الجواد في الثلاثية، والتي تحولت لرمز/ أداة تحليل للذكورية العربية، وشخصية سعيد مهران في اللص والكلاب التي ترمز لاغتراب الفرد عن مجتمعه.

"الرؤية الوطنية للشعب" بالاستناد لغولدمان يجعل من النقاش حول وجود أو عدم وجود الطبقة –والدراسة تقر علمياً بوجودها- أمراً لا يؤثر على منهجية بحثنا.

1: 1 تحقيب الرواية والعينتين الرئيسية والثانوية.

إضافة للتحديد السابق لمنهجية الدراسة، فسنعتمد على الآلية المنهجية التالية:

تحقيب الرواية الفلسطينية إلى ثلاث حقب أساسية مندمجة مع تقسيم جغرافي يتطلبه واقع الشتات الفلسطيني، هي حقب هامة من زاوية التغيرات التي عصفت بها. إن الاستعراض التاريخي للتغيرات السياسية والاجتماعية يُظهر أن ثلاثة مفاصل أساسية طبعت الواقع السياسي والاجتماعي بطابعها الخاص، هي هزيمة 1967 ووقوع فلسطين بالكامل تحت سيطرة المشروع الصهيوني وتالياً نشوء المقاومة الفلسطينية، واندلاع الانتفاضة الشعبية في العام 1987 في الأرض المحتلة، وأخيراً توقيع اتفاقات أوسلو. إن تلك التغيرات قد أثرت على مجمل الحقل السياسي الفلسطيني وعلى مكانة وأدوار القوى الاجتماعية الفلسطينية، وبضمنها المرأة. هذا من زاوية، أما من الزاوية الأخرى، فالتغير السريع يبدو سمة ملازمة للواقع الفلسطيني، الأمر الذي يجعل البحث العلمي ملزماً بالربط بين التغيرات والتأثيرات التي تتركها، على الإبداع، كما في دراستنا.

1: 2 العينتان **الرئيسية والثانوية**.

ستتناول الدراسة بالتحليل **تسع روايات** عبرت عن هذه الحقب باعتبارها **العينة الروائية الرئيسية** للدراسة:

أ- الرواية الفلسطينية من مرحلة المقاومة الفلسطينية وبعد الهزيمة. وهنا نتناول رواية كنفاني(أم سعد) كأبرز روائي في حركة المقاومة، وإميل حبيبي في روايته (سعيد أبو النحس المتشائل)، كتعبير عن الرواية في فلسطين المحتلة في العام 1984. ورواية عزت الغزاوي (جبل نبو).

ب- الرواية الفلسطينية التي تعبر عن مرحلة الانتفاضة الشعبية في العام 1987. وهنا سنتناول رواية أحمد حرب (الجانب الآخر لأرض المعاد) ورواية سحر خليفة (باب الساحة) ورواية عزت الغزاوي(الحواف).

ت- الرواية الفلسطينية ما بعد أوسلو. وهنا سنتناول رواية خليفة(الميراث) وعزت الغزاوي (الخطوات) ومايا أبو الحيات (حبات السكر).

ث- أما-ولهدف تعميم نتائج الدراسة- فسنتناول بعض الروايات **كعينة ثانوية** (عائد إلى حيفا) لكنفاني، (صورة وأيقونة وعهد قديم) لخليفة، روايتي (حارة البيادر وذاكرة لا تخون) لوداد البرغوثي، و(إسماعيل وبقايا) لأحمد حرب، الأمر الذي يحقق فائدة إضافية: المقارنة بين كتابات لنفس الروائي من مراحل مختلفة(الغزاوي وخليفة وحرب) ومحاولة فحص تأثير جنس الروائية على طرحها لقضايا المرأة، من خلال الروائيات الثلاث(خليفة، والبرغوثي، وأبو الحيات).

إن اختيار هذه العينة يعود للأسباب التالية:

1. إن الروائيين/ ات مثلوا المراحل التاريخية الثلاث التي استندت إليها الدراسة، فأعمالهم عالجت قضايا، والمرأة في الصلب منها، تنتمي حصراً لتلك المراحل. إنها بهذا المعنى تشكل عينة جيدة للإجابة، من خلالها، على سؤال الدراسة وفرضياتها.
2. إنها أسماء حفرت أسمها في الأدب الفلسطيني المعاصر، وليس أدل على ذلك من كمية الدراسات النقدية التي تناولت أعمالها.
3. إن في تنويعة هذه الأسماء ما يتفق وكثير من المتغيرات التي تدرسها الرسالة: التوزع الجغرافي(م. 48/ داخل/ خارج)، الانتماءات السياسية والفكرية للروائيين (فتح، جبهة شعبية، وشيوعيين/ ماركسيين، قوميين، ونسويات) التوزع الجنسي(نساء ورجال).
4. إن المنهج البنيوي التكويني الذي تستخدمه الدراسة يحمل الرؤية الكونية للكاتب أهمية كبيرة، ولفحص تلك الرؤية كان لزاماً علينا أن نتناول، على الأقل، بضعة روايات لذات الروائي، لنتمكن من كشف رؤيته، دون أن نتمكن _ لمحدودية دراستنا بطبيعة الحال- من تناول كل نتاجات الروائي كما فعل المناصرة مثلاً، في دراسته المشار إليها.

1: 3 استخدام **منهجية السيرة الذاتية** لأبرز الروائيين (روائيو العينة الرئيسية) لفحص مدى تأثير حياة الروائي، وقناعاته ورؤاه الفكرية، وانتماءه الطبقي، وموقعه الجغرافي على إبداعه، قناعة منا، كما سجلنا سابقا، بأهمية تأثير حياة الروائي منهجياً على إبداعه.

ثانياً: حول منهجية تحليل النص

2: 1 الفني والاجتماعي

لما كانت الدراسة تنتمي لحقل علم اجتماع الرواية لا لحقل النقد الأدبي فإن على تحليلها دائماً أن يظل قابضاً على الخيط الفاصل بين التحليل النقدي للرواية، وهو شأن الدراسات النقدية، وبين التحليل الاجتماعي للرواية، وهو شأن الدراسات الاجتماعية. ندرك الصعوبة المتأتية من عملية الفصل هذه، فالنص في النهاية كل متكامل، وحدة واحدة يصعب تفتيتها وتناول أجزاء منه وإهمال أخرى دون الإخلال بوحدته أو تماسكه، ولكننا ندرك أيضاً أن متطلبات الدراسة- كرسالة جامعية في علم الاجتماع- تبرر منهجياً، لأغراض الدراسة فحسب، عملية التجزيء هذه. هذا من جهة. أما من جهة ثانية فطبيعة المنهج الذي نستخدمه، المنهج البنيوي التكويني، لا ينفصل - بل يقوم أصلاً على الجمع- بين البنية الداخلية للنص وبنيته الخارجية، ولتحقيق هذا التواصل بين البنيتين يقتضي منا التطرق للبنية الداخلية، بالحدود التي تمكننا من فحص هذا التواصل أصلاً.[8] وعليه فالدراسة إذ تلحظ مثلاً الصياغات اللغوية المتوترة أحياناً لدى سحر خليفة (**باب الساحة** نموذجاً) فهي إنما تفعل ذلك بقصد ملاحظة العلاقة بين هذه الصياغات وبين التوتر الناشيء في العلاقة بين الرجل والمرأة

[8]- نسترشد في استخدام هذه التقنية بما قدمه مناصرة في كتابه (المرأة وعلاقتها بالرجل في الرواية العربية الفلسطينية المعاصرة، 2002) من تحليل مستند لنفس المنهج الذي نعتمده.

في الحياة، وما يمكن تسميته بلهاث الجمل أحيانا(أيضاً في **باب الساحة**) نجده يتفق وسرعة الأحداث الانتفاضية وتأثيراتها الاجتماعية على مكانة المرأة. والأمر نفسه ينسحب على طريقة السرد الحكائي التي نلحظها لدى وداد البرغوثي في (**ذاكرة لا تخون**) أو لدى إميل حبيبي في (**سعيد أبو النحس المتشائل**)، كما وينسحب هذا على رمزية أسماء الشخصيات-وهي ظاهرة معروفة في الرواية العربية-[9]وتظهر في معظم روايات العينة الرئيسة التي اخترناها: مثلاً لدى أحمد حرب في ثلاثيته(**إسماعيل، الجانب الآخر لأرض المعاد، وبقايا**)، أو لدى الغزاوي أيضا في ثلاثيته(**جبل نبو، الحواف، والخطوات**).[10] أو لدى البرغوثي في (**حارة البيادر**).

فالصياغات اللغوية، وطريقة السرد، ورمزية الأسماء، وملاحظة تطور الشخصية، والسياق العام لتطور الأحداث، كلها موضوعات سيجري ملاحظتها ارتباطاً بملاحظة موقعها من بالبنية الفنية، وتالياً بالبنية الخارجية.

2 : 2 تقابلات المرأة والرجل

إذا كانت دراستنا تتناول مكانة المرأة في الرواية فمن الاستحالة بمكان فعل ذلك دون التعريج في تحليل الروايات على مكانة الرجل أيضاً. إن مكانة الرجل في المجتمع العربي- والفلسطيني منه- هي نتاج تغييب مكانة المرأة، وهذه الحقيقة تأكدت منذ لحظة "الانقلاب التاريخي" -على حد تعبير فريدريك إنجلس- الذي أزاح سيطرة المرأة في المجتمع الأمومي لصالح سيطرة الرجل في مجتمع أبوي جرت صياغة ملامحه بما يتفق وتسيد وهيمنة الرجل.[11] ولا يمكن والحال هكذا تناول طرف ما في العلاقة (المغيب) دون الطرف الآخر (الحاضر). ولكننا في هذا التناول لا نستند منهجياً إلى "صراع أزلي" بين الرجل والمرأة كما يشتم من بعض التحليلات النسوية الجنسوية،[12] أو "تفارق أبدي" في المكانة كما في الموروث الديني، بل إلى رؤية للعلاقة في إطار البنية الاجتماعية التي أفرزت هذا الشكل من العلاقة، والتي بتغيرها تتغير العلاقة نفسها. إننا نستند في رؤيتنا للعلاقة بين الرجل والمرأة، فوق ذلك، إلى المقولة الفلسفية الاسبينوزية (نسبة لسبينوزا الفيلسوف الهولندي) التي اعتمدت في الفكر الهيغلي ولاحقاً الماركسي، من أن تعريف الشيء إنما يتم بنزع، نفي، تعريف نقيضه. وسنجد أن هذه المقولة تنطبق تماماً على تحليلنا لأدوار ومكانة المرأة في الرواية، باعتبار هذه المكانة لا تتحدد ولا تدرس إذا لم نأخذها في سياق العلاقة مع النقيض. فلا يمكن مثلاً تناول مريم

---

[9]- يمكن اعتبار اللص والكلاب لنجيب محفوظ فاتحة هذا الأسلوب الذي يستخدم أسماء ذات مدلولات ومضامين تتفق وما يبغي الكاتب قوله من خلف السطور.

[10]- لم تصدر هذه الروايات أصلاً كثلاثية شأن ثلاثية أحمد حرب، ولكن الكاتب في الطبعة الصادرة عن مركز أوغاريت رأى تقديمها للقراء كثلاثية تتناول مراحل ثلاث، بعد العام 1867، الانتفاضة، وما بعد أوسلو، ورتبها حسب هذا التتالي الزمني رغم عدم صدورها بالأصل حسب هذا الترتيب.

[11]- إضافة لإنجلز في كتابه (أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة) يمكن الوقوف على حقيقة هذا الانقلاب في عمل هشام شرابي (مقدمات لدراسة المجتمع العربي، 1975) وحليم بركات(المجتمع العربي في القرن العشرين- بحث في تغير الأحوال والعلاقات، 2000) وإبراهيم محمود في بحثه(الضلع الأعوج، 2004) وإبراهيم الحيدري (النظام الأبوي، 2003). علماً أن الموضوع لا زال محط جدل بين الأنثروبولوجين وعلماء الاجتماع على العموم.

[12]- خير من تمثل هذا المنهج على مستوى الدراسات النسوية باتمان(باتمان، كارول، 1988) حيث تطالب بعقد جنسوي بديل للعقد الاجتماعي الذكوري على حد تعبيرها.

في (**صورة وأيقونة وعهد قديم**) لسحر خليفة دون العلاقة مع إبراهيم، أو تناول نزهة دون حسام في (**باب الساحة**) وهكذا.

2: 3 حول رمزية المرأة- الرمز والتمثيل

لما كانت الرواية إعادة صياغة فنية للواقع، فالشخصيات تعكس بالضرورة تمثيلات معينة من هذا الواقع، وهذا في لب العلاقة بين الرواية(والفن عموماً) والواقع الاجتماعي كما مر معنا في الفصل الأول من هذه الدراسة. ولكن أن يقال هذا شيء، وأن تختزل الشخصيات الروائية لمحض رموز ونماذج شيء آخر. أن يقال مثلاً أن المرأة كشخصية روائية تمثل "واقع" الرؤية الذكورية الرجعية للنساء في مكانتهن المهمشة والمضطهدة (شأن شخصية نزهة في باب الساحة)، لا يعني أن تُختزل تلك الشخصية الروائية في محض هذا الرمز، فلا نرى لتلك المكونات الإنسانية لهذه الشخصية في أبعادها المتعددة. إن هذا الفهم يحيل إلى القناعة التي تنطلق منها الدراسة: لا يمكن اختزال أية شخصية، روائية كانت أم واقعية، في بعد واحد، قالب واحد، بل إن تعقد وتنوع العلاقات الاجتماعية ومنابع تكوين الملامح النفسية والشخصية للفرد تكسب شخصيته تنوعاً بالغ التعقيد، يصعب معه والحال هكذا، قولبته في إطار واحد.

والدراسات العربية النقدية تميل على العموم للنمذجة والتأطير القالبي في دراستها لشخصية المرأة في الرواية. لقد تشكلت مجموعة من القوالب التي باتت "كالمعطى الأولي غير القابل للنقد"، يجري حشر المرأة وما تمثله روائياً فيها: المرأة البطلة، العاهرة، الجسد، اللعوب، السلبية والايجابية، المناضلة، المتمردة والتابعة، العميلة، العاملة، المرأة الأم والمرأة الهامش....إلى آخره من هذه القوالب التي يجري حشر الشخصية النسوية الروائية فيها.[13]

لكل ذلك يمكن أن نفهم النقد الذي وجهه طرابيشي إلى قضية الترميز بأنه، أي الترميز، " يختزل المرموز إلى محض بعده كموضوع، بينما يحتكر الرامز أو صانع الرمز كل الذاتية لحسابه" فيما أن الترميز نفسه يفترض " أصلاً بالموضوع المرموز أن يكون قابلاً للتشكيل، أي مادة مطاوعة يحدد الآخر مصائرها" كما جاء في تظهير الكتاب. وفي هذا نجد تشابهاً مع ما ساقه إدوارد سعيد عن الغرب في (الاستشراق) الذي يشكل الشرق على الصورة التي يريدها لا على ما هو عليه حقيقة. والأهم حسب طرابيشي أن المرأة عندما تُرمز فإنها "تخسر استقلالها وسؤددها الذاتي، وتصير أشبه بمادة صلصالية يصنعها الآخرون ولا تصنع نفسها، تملك اللادائنية ولا تملك طاقة الحرية(طرابيشي، 1981: تظهير الكتاب؛ سعيد، 1995)

ومع ذلك يصعب الذهاب بعيداً مع طرابيشي! وإن كان الترميز يفقد الشخصية استقلالها، لكن التحليل الاجتماعي لا يمكنه أن يغض النظر عما تشكله الشخصية من تمثيلات، وإلا غدا تحليلاً بنيوياً محضاً في أحسن الأحوال، لا قيمة له في دراستنا هذه! وبين الترميز والتمثيل مساحة يجب تحديدها. الترميز قولبة تحيل على المطلق، تُفصل على مقاس نموذج معد مسبقاً ويجري حشر الشخصية فيه دون ملامسة أن الشخصية،

---

[13]- لتأكيد على ما ذهبنا إليه يمكن أن نؤشر للدراسات التالية على سبيل المثال لا الحصر: الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة لمحمد أيوب (1996). المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية للمناصرة(2002). ونماذج المرأة البطل في الرواية الفلسطينية لفيحاء عبد الهادي(1997)

أية شخصية، هي أكبر من قالبها. فأن نقول مثلاً إن هذه المرأة في رواية كذا تمثل نموذج المرأة البطلة وطنياً(مثال سحر في **حبات السكر** لمايا أبو الحيات)، فهذا يعني أن لا نرى ما هو خارج هذا القالب من تعقيدات في شخصية سحر نفسها، ويعني أيضاً القول "بجوهرانية" معينة، ثابتة- هي البطولة هنا- تذكر بالمطلق الديني الإيماني، "جوهرانية" لا تلامس التناقض، الأمر الذي يتناقض والمنطق العلمي أصلاً. أما أن نقول إن سحر تمثل شخصية المرأة المناضلة في الواقع الفلسطيني فهذا يعني، لربطها في الواقع، ما في هذه الشخصية من أبعاد أخرى يجب ملامستها، أي أننا، والحال هذا، نبحث في سحر **الإنسانة** التي لها **مكانة المناضلة**، لا سحر "**مطلق**" البطلة أو المناضلة. ونفس الشيء عندما نبحث شخصية العاهرة نزهة في **باب الساحة** كما سيظهر لاحقاً. فالترميز صورة ثابتة تحيل على المطلق، فيما التمثيل، وإن كان يتضمن عناصر جوهرية أساسية، إلا أنه أقرب للوحة الواقعية منه إلى الصورة.

2: 4 **النص بين المنتج والقاريء**

إن النص حالما يصدر عن المنتج تنقطع علاقته معه وتبدأ علاقة القاريء به لحظة شروعه بالقراءة. والقراءة هنا نعني بها القراءة التي تتذوق ما تقرأ وإن لم تكن بالضرورة نقدية، علماً أن النقد بالنهاية قراءة. إن القاريء والحال هذا يعيد تشكيل وصياغة النص وفقاً لذوقه، معرفته، مزاجه، موقفه الفكري، موقعه الاجتماعي...فيرتفع بالتالي إلى مستوى جديد في علاقته بالنص- مستوى المنتج الثاني للنص، والذي يملك "حقوق إنتاجه" إن جاز التعبير. وأول حق من هذه الحقوق قراءته الخاصة به، وبغض النظر عما قصده المنتج أو لم يقصده، فتلك قضية لا تعود بأهمية بالنسبة للقاريء بالتحليل النهائي. لذلك جرى بالعادة وصف النص كنصٍ مبدع عندما يكون هذا النص منفتحاً بتركيبته على القراءات المختلفة التي لا تكاد تنتهي، ومن هذا المنطلق يمكن فهم القضية التالية: إن بعض النصوص، العالمية والعربية، مضى على إنتاجها من كتابها عشرات، بل ومئات السنين، وما زالت منفتحة على القراءة الجديدة، نصوص عصية على الموت رغم مرور عشرات السنين، تُقرأ وتُنقد من جديد... ويمكن هنا دون تردد ذكر (**رجال في الشمس) و(سعيد أبو النحس المتشائل)** ضمن هذه النصوص، والأخيرة أخذناها في عينتنا.

ما استدعى هذه الملاحظة هو الواقع التالي: في أحيانٍ كثيرة تكون التمثيلات الاجتماعية للشخصيات الروائية واضحة لدرجة يبدو معه وكأن تحليلها نافلاً وليس بمنتج أي جديد. بل إن كنفاني يذهب أبعد من ذلك: ففي المقدمة التي كتبها لروايته **(أم سعد)** يسوق التمثيل الاجتماعي لأم سعد (الطبقة المسحوقة في المخيم) بما يبدو وكأنه يقول للمحلل(لا عليك بالتحليل، فهذا ما عنيته في شخصيته أم سعد)!!

إن قراءتنا لن تأخذ بما يظهر على السطح من تمثيلات ولن نكتفي بما رغبه كنفاني، وإلا لا معنى للقراءة النقدية. إن قراءتنا ستحاول الغوص في البنية لاكتشاف "وتأمل صورة الغائب في الكاتب والمكتوب" (درّاج، 1996: 125)، لاكتشاف المسكوت عنه حسب تعبير ثامر(2004)، أي ما لم يقله النص صراحة من خلال تحليل العلاقات وتطور الحدث والشخصية واللغة والسرد، وربط كل ذلك، بنيوياً مع البنية الخارجية في

علاقة جدلية، تأخذ بالتناقض لا داخل كل بنية على حدا، بل وأحياناً التناقض بين البنيتين نفسيهما، وهذا ما ستواجهه دراستنا عند قراءة(سعيد أبو النحس).

2: 5 وحدة التحليل

إن وحدة التحليل المستخدمة في الدراسة هي الروايات المختارة في العينتين الرئيسية والثانوية. من خلال وحدة التحليل هذه سيجري تحليل قضايا فنية لقياس التحولات على مكانة المرأة في الرواية ومدى إندغامها مع التحولات في مكانتها في المجتمع. إن أبرز قضايا التحليل، كوحدات فنية للتحليل، هي الشخصية النسوية أساساً، والرجولية بقدر تأثيرها على الشخصية النسوية، وتطور الأحداث بما يعكسه من تحولات، وأخيراً موضوعات مثل السرد والحوار والراوي....

2: 6 أدوات القياس- المؤشرات

تعتمد الدراسة على أدوات القياس التالية لفحص التحولات على مكانة المرأة في البنيتين الداخلية والخارجية، مع تمييز شكل التعبير عن" أداة القياس " في البنية الداخلية عنه في البنية الخارجية.

مقولتي العام والخاص/ الوطني والديموقراطي(النسوي)/ الدور النضالي للمرأة/ موقف الآخر من نضالها(الثقافة، العائلة، الرجل، والمؤسسة السياسية). إن هذه الأدوات (المؤشرات) لفحص تحولات المكانة في البنية الاجتماعية، لها "معادل فني روائي" ستجهد الدراسة في الوصول إليه عبر التحليل. ويمكن من زاوية فنية تحديد الموضوعات التالية لفحص هذا المعادل الفني الروائي لتحديد هذه التحولات: تطور الشخصيات النسوية/ موقع المرأة من الحدث الروائي/ علاقة المرأة بالرجل من زاوية موقف الثاني من دور ومكانة الأول في الحدث الروائي/ بنية الحوار وموقع المرأة به/ رمزية الأسماء وما تؤشر إليه من مكانة ودور/ طابع اللغة المستخدمة، إن كان في السرد أو في الحوار/ توتر العلاقة بين شخصيات الرواية وتحديداً مستوى توتر العلاقة بين المرأة والرجل/الملامح الأيديولوجية للشخصيات وأثرها على مكانة المرأة.

ثالثاً: الصعوبات التي واجهت الدراسة

يمكن إجمال الصعوبة الأساسية التي واجهت الدراسة بالتالي:

1- إن الدراسات النقدية الفلسطينية والعربية لم تتناول الروايات انطلاقا من الحقل التخصصي (علم اجتماع الرواية) لحداثة هذا الحقل، خاصة في الدراسات الأكاديمية الفلسطينية، بل من حقل (النقد الأدبي)، باستثناء دراسة مناصرة والتي لا تتناول المقاربة التاريخية بين المرحلتين، ما قبل أوسلو وما بعده، ناهيك أن المناصرة يتخذ من ثنائية المرأة والرجل منطلقاً وهدفاً لدراسته، باختلاف عن هدف الدراسة هذه. وعليه كانت الصعوبة تكمن في أن التحليل على الأغلب يتناول المسائل الأدبية، المفيدة لا شك ولكن غير الكافية، لدراسة تنتمي لحقل علم اجتماع الرواية لا الدراسات الأدبية، من جهة، ومن جهة لدراسة تقارب بين مرحلتين في الواقع الاجتماعي/ السياسي، ما قبل أوسلو وما بعده.

2- الصعوبة المتأتية منهجياً من "الفصل" بين التحليل الفني والتحليل الاجتماعي للنصوص، لطبيعة المنهج الذي تبنته الدراسة. وقد حاولت الدراسة معالجة هذه الصعوبة باتخاذ موقف "وسطي" إن جاز التعبير: التطرق للتحليل الفني حيثما فرض النص نفسه لفحص المؤشرات الفنية في الرواية ودلالاتها الاجتماعية، ذلك في محاولة لاكتشاف علاقات البنية الفنية مع البنية الخارجية، وهي صعوبة فصلناها سابقاً في الحديث عن منهجية التحليل.

القسم الثاني

الواقع السياسي/ الاجتماعي الفلسطيني

1967- ما بعد أوسلو

في هذا الفصل من الدراسة نسعى لهدفين اثنين يخدمان معاً الموضوع الأساسي لدراستنا. فمن ناحية نهدف لتقديم استعراض سريع للبيئة الاجتماعية والسياسية منذ العام 1967وحتى ما بعد أوسلو كمرحلة جديدة، ومن الناحية الثانية نبغي التعرف على مكانة المرأة في الواقع الاجتماعي والسياسي الفلسطيني. والهدفان معاً يشكلان الخلفية التي لا بد منها لدراسة مكانة المرأة في النص الروائي(هي البنية الخارجية حسب منطوق المنهج البنيوي التكويني الذي نعتمده). وهذا النص إنما يتموضع في هذه البنية تحديداً، يتأثر بها ويؤثر فيها في علاقة تكتسب جدليتها من الطابع الجدلي لعلاقة الرواية بالبنية، حتى ليصح عند مستوىً من مستويات التحليل القول أن البنية الداخلية هي ذاتها البنية الخارجية وقد صِيغت (عُولجت) فنياً.

وقد اتخذت الدراسة منحىً يسعى لاستعراض البيئة الاجتماعية والسياسية انطلاقا بما نعتقده الأكثر أهمية (وقطعاً ليس الوحيد) في هذه البيئة ارتباطاً بمكانة المرأة وموضوع الدراسة. فمن تحليل النظام السياسي الفلسطيني، مروراً بأدوار القوى الاجتماعية كنتاج ليس للتركيب الاجتماعي الطبقي فقط، بل وللتبدلات الحاصلة على النظام السياسي، في الخارج والداخل، في الضفة والقطاع ومنطقة 48 ومخيمات اللجوء، وللظواهر السوسيولوجية المختلفة أيضاً، وصولاً لفحص قيم الثقافة السائدة عبر مؤسسة العائلة وطبيعة الحركة النسوية...أخذاً كل ذلك بالاعتبار، يمكننا بناء مقومات هذه البنية التي نحن بصددها. أما ما ينظم الاستعراض منهجياً(يقولبه إن جاز التعبير) فهو التركيز على مكانة المرأة وكيفية تجليها في هذه القضايا، وعبر الحقبتين (القطعان) الأهم في السياق الفلسطيني المعاصر:

الأولى: هزيمة حزيران وخضوع كامل فلسطين للاحتلال الصهيوني.

الثانية: توقيع اتفاق أوسلو ونشوء السلطة الفلسطينية دون سيادة فعلية(سيادة الدولة المتعارف عليها في القانون الدولي)[14]على أجزاء من الضفة الغربية وقطاع غزة.

أولاً: التحولات الاجتماعية والسياسية على الجماهير الفلسطينية بعد النكبة- نشوء اللاجئون

كان لسيطرة المشروع الصهيوني على 76% من فلسطين نتائج مدمرة على البنية الاجتماعية والسياسية للفلسطينيين، إذ أن طبيعة المشروع، الإحلالية، عنت السيطرة على الأرض وتفريغها، واستقدام المستوطنين اليهود إليها. يمكننا تلخيص أم نتائج النكبة بما يلي:

1. تشرذم المجتمع الفلسطيني وتشتته في عدة دول وأنظمة سياسية، حيث بقي في الضفة حوالي 30% وغزة 14% وفقط 5% داخل الدولة العبرية، أما ما تبقى فقد توزع على الدول المجاورة كلاجئين(

[14]- السيادة حسب تعريف القانون الدولي هي السيادة على الأرض والسكان في إقليم محدد جغرافياً. والسيادة تكون لسلطة تحتكر القوة المنظمة. وهذا ما اتفق على عدم توفره في اتفاقات أوسلو، حتى من أيد هذه الاتفاقات.

حوالي 50%)، فبعد النكبة أصبح بين 750-800 ألف فلسطيني لاجئين من مجموع 900 ألف تقريباً كانوا في المناطق الفلسطينية التي احتلها الصهاينة بين عامي 1947-1948.

2. إفقار شامل لكافة الطبقات الاجتماعية، إذ أن الاستيلاء على الأرض والتهجير أفقد تلك الطبقات الأساس الاقتصادي لقيامها. فقدت البرجوازية الناشئة حاضنتها السياسية والاقتصادية، وانتُزع الفلاحون والملاك من أراضيهم.
3. انعزال المرتفعات في وسط فلسطين(الامتداد الجبلي بين نابلس والخليل والذي يعرف بالضفة الغربية) والشريط الجنوبي من الساحل، عن الساحل الزراعي وأسواقه وموانئه عل البحر (تماري، 1994: 10-20؛ فرسون، 2003: 191).

لقد تركت النكبة تغييرات كبيرة على الفلسطينيين المشتتين في بقاع الأرض، فبفعل تدمير البنية الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين، واللجوء بالتالي، حدثت تحولات طالت الفلسطينيين المهاجرين، وبرزت ظواهر، سوسيولوجية عديدة، اجتماعية وسياسية، يمكن إيجازها بالتالي:

1. التوجه للتعليم باعتباره إحدى أهم وسائل تحصيل مصدر الرزق بعد فقدان الأرض والأسس الاقتصادية للحياة، وهو بالتالي استراتيجية التكيف الأساسية التي استخدمها الفلسطينيون في مواجهة واقع ما بعد اللجوء. وهذا أنشأ لاحقاً شرائح من الفئات الوسطى المنتشرة في العالم(أطباء، محامون، مهندسون، موظفون...) وهذا ما سيلاحظ على الدور الذي لعبته هذه الشرائح في تأسيس حركة المقاومة، والهيمنة على الحقل السياسي الفلسطيني خارج الوطن.
2. التحولات التي أصابت الفلاحين معدومي الملكية، وقد أصبحوا لاجئين. فقد تحول الفلاحون إلى عمال في المشاريع الإنشائية في الدول العربية(خاصة في أقطار الخليج)، والأراضي الزراعية في جنوب لبنان، ومستخدمين في المؤسسات والشركات... إن هذه البلترة القسرية للفلاحين كانت النتيجة المباشرة للنكبة.
3. البروز اللاحق لظاهرة التمركز الشديد في مخيمات المدن نتيجة عوامل الجذب الاقتصادية لسكان مخيمات الأرياف، حيث في المدن المشاريع الإنشائية والمصانع التي تتطلب أيدي عاملة رخيصة وفرتها المخيمات، وهذا ما يُلحظ أساساً في مخيمات لبنان بشكل كبير.
4. تشكيل العديد من المنظمات الاجتماعية والسياسية في الخمسينيات والستينيات، الأمر الذي استدعته حالة الفراغ الناشئة عن تردي واندثار تعابير الحقل السياسي ما قبل العام 1948 ممثلة بالأحزاب واللجنة العربية العليا واللجان القومية. إن هذا التحول، وبتأثير الأفكار العلمانية، القومية واليسارية، أحدث تحولاً في الوعي السياسي في المخيمات سيظهر مع تشكيل حركة المقاومة. وقد جر هذا التحول ممارسات قمعية وتضييقات على الفلسطينيين في أقطار اللجوء.
5. الدمار الذي لحق بالعائلة الممتدة نتيجة تمزقها بفعل التهجير، وبروز أكثر للعائلة النووية، علماً أن العائلة مع ذلك بقيت تنظيماً جامعاً ومؤثراً في حياة الفرد في المخيم، بل كانت أحد الأشكال المعتمدة

للتقسيمات الجغرافية للمخيم. (فرسون، 2003: 191- 248؛ زريق، 1998: 38-89؛ صايغ، 1980: 121-176).

ثانياً: الفلسطينيون داخل الدولة العبرية

تغيرت حياة (الأقلية) الفلسطينية التي بقيت في وطنها تحت سيادة الدولة العبرية جوهرياً. وقد طالت التغيرات المستويات الاجتماعية(التحولات الطبقية والمهنية) والمستويات السياسية (أدوار القوى والحقل السياسي الفلسطيني).

2-1 التحولات السياسية

إن اهم ما يمكن تسجيله هنا يتمحور على التالي:

1- انطلاقا من تعريف إسرائيل لنفسها كدولة يهودية(أي عرقية بمفهوم أكثر جوهرية) فقد اختطت سياسة تمييز عنصري ضد الفلسطينيين فيها. إن محاور هذه السياسة بالأساس كانت:

أ- فرض نظام الحكم العسكري حتى العام 1964 بما عناه هذا من تقييدات على الفلسطينيين في التنقل والإقامة والعمل والتعليم والتعبير السياسي...

ب- إصدار سلسلة من القوانين التمييزية ضد الفلسطينيين والتي طالت من جملة ما طالت حق العودة للوطن، التعليم، الملكية، البناء، العمل، الاستثمار، السكن...

ت- مناهضة وقمع أية محاولات لإنشاء تعبيرات سياسية جديدة بعد اندثار التعبيرات السابقة ما قبل النكبة (اللجان القومية والأحزاب). وقد برز هذا أكثر ما برز في التصدي لتأسيس حركة الأرض في الخمسينيات بتأثير الفكر القومي الناصري والجبهة الشعبية في العام 1958 (تحالف بين الشيوعيين والقوميين)، الأمر الذي جعل الحزب الشيوعي الإسرائيلي هو المتنفس الوحيد لأي عمل سياسي فلسطيني مناهض للدولة العبرية، باعتباره، وإن تشكل على قاعدة شرعية وقانونية، يناهض الممارسات العنصرية للدولة العبرية.(فرسون، 2003: 249-298؛ زريق، 1997: 315-348؛ صباغ، 1990: 21-75)

2- التحولات على الحقل السياسي الفلسطيني بعد إنشاء إسرائيل ويمكن تحديدها بالتالي:

أ- نجاح الدولة العبرية في حصد تأييد أوساط تقليدية، عائلية وحمائلية، وتشكيلها ما بات يُعرف (بالقوائم العربية)، وهي القوائم التي تشكلت كتابعة للأحزاب الصهيونية في الانتخابات البرلمانية. لقد تشكلت هذه القوائم، على الأغلب من رموز تقليدية ارتبطت مصلحياً مع الدولة العبرية، اقتصاديا ووجاهياً، وحتى استخبارياً.

ث- توزَع الحقل السياسي الفلسطيني بالتالي على ثلاثة اتجاهات أساسية: 1- المتعاونون مع الدولة والمنتفعون منها، ومثلته أوساط حمائلية تقليدية. 2- الملتفون حول نضال الحزب الشيوعي ضد التمييز ومن أجل الحقوق اليومية، وكانوا من العمال والفلاحين والمتعلمين. 3- الاتجاه القومي الذي

عبر عنه أوساط مثقفة من الفئات الوسطى وتعرض للقمع المتواصل لمنع تبلوره، وهذا الاتجاه لم يتبلور فقط كردٍ على واقع النكبة، بل وتأثراً بالحركة القومية العربية في الخمسينيات، ومثلت هذا الاتجاه حركة الأرض بشكل خاص.

ج- كان لتصاعد النضال الفلسطيني بعد تأسيس المقاومة والاعتراف الدولي بمنظمة التحرير والانتفاضة الأولى تأثيره على الحقل السياسي الفلسطيني من عدة جوانب: 1- انتعاش الخط السياسي القومي وبلورته في تعابير حزبية سياسية خاصة (حركة أبناء البلد، الحركة الوطنية التقدمية، القائمة التقدمية، والتجمع الديموقراطي)، وعامة(اتحادات الطلاب والنساء والمثقفين، لجنة المتابعة العربية، النشاطات السنوية في يوم الأرض).2- نشوء التيار الإسلامي كتيار شعبي بفرعيه.3- وهذا النشوء الجديد للتيارين أعلاه كان بالأساس على حساب شعبية الحزب الشيوعي ونفوذ الأحزاب الصهيونية بين الجماهير العربية. (فرسون، 2003: 249-298؛ صباغ، 1990: 21-75).

2-2 التحولات الاجتماعية

لقد استخدمت الدولة العبرية سلسلة من السياسات الاقتصادية والاجتماعية تجاه الفلسطينيين يمكن تحديدها بالعناوين الرئيسية التالية:

أ- التحويل القسري للبنية الاجتماعية والاقتصادية عبر مصادرة الأرض، وبالتالي تحويل الفلاحين والمزارعين إلى عمال غير مهرة بأجر في المؤسسات الإسرائيلية وبشروط عمل تتمايز عن العمال اليهود. أدى هذا الواقع لنشوء طبقة عاملة مزدوجة الانتماء بين حاضرها العمالي الجديد وارتباطاتها الريفية، ثقافياً وديموجرافياً.

ب- التهميش الاقتصادي للفلسطينيين، وربط اقتصادهم بالكامل بالاقتصاد الإسرائيلي، كسياسة تستهدف القضاء على أية مكونات اقتصادية فلسطينية، يمكن أن تشكل قاعدة لكيانية سياسية مستقبلاً.

ت- وهذا أدى إلى تبعية كاملة من بقايا مدمرة لبنية اقتصادية فلسطينية لصالح اقتصاد رأسمالي متطور تحركه سياسة عنصرية تجاه الفلسطينيين.

ث- وكل ذلك قاد لاحقاً لعملية تحضير واسعة(التوجه للسكن في المدن). ففي العام 1955 كان 74%من الفلسطينيين يعيشون في المناطق الريفية، تناقص في العام 1995 إلى 7% وذلك لحساب المناطق الحضرية(93% في العام 1995)[15](صباغ، 1990: 21-75؛ زريق، 1997: 315-348).

[15]- تعريف المنطقة الحضرية لدى فرسون هي ما يزيد عدد سكانها على الألف، وهذا ما يمكن مناقشته على أية حال. ولكن هذا النقاش لا ينفي حقيقة الاستنتاج الأساسي بأن التحضر واسع، سواء بالانتقال للمدن، أو، وهو الأكثر، تحول القرى لمدن واسعة(أم الفحم، الطيبة، شفا عمر، الطيرة...)

ثالثاً: التحولات السياسية بعد حزيران 1967وأدوار القوى الاجتماعية

تتفق معظم الكتابات التحليلية التي تناولت هذه المرحلة على اعتبار أن الهزيمة قادت لتحولات جذرية مترابطة، وذات طابع تاريخي (فرسون، 2003- الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني"المجلد الخامس"، 1990؛ الشريف، 1995؛ الصايغ، 2002؛ توما، 1986) كان من أهمها:

1. خضوع كامل فلسطين للاحتلال الصهيوني الكولونيالي المباشر.
2. انهيار برنامج النظام العربي الرسمي المتعلق بتحرير فلسطين، وتحديداً البرنامج القومي للبعثيين والناصريين.
3. نشوء حركة المقاومة الفلسطينية كبديل، وعلى أنقاض التشكيلات السياسية السابقة.
4. التبدلات الحاصلة في أدوار القوى والفئات الاجتماعية الفلسطينية.

ومع أن بعض الباحثين (الشريف والصايغ تحديداً) يعيدان بدايات تبلور الحركة الوطنية الفلسطينية للأعوام السابقة على الهزيمة(وتحديداً مع إرهاصات العمل الفلسطيني المستقل عن الأنظمة نهاية الخمسينيات، وإعلان تأسيس م.ت.ف في العام 1964، ووضع الميثاق القومي الفلسطيني)، إلا أننا نعتقد أن التبلور الفعلي للحركة الوطنية المعاصرة- كأحد أشكال النظام السياسي الفلسطيني المعاصر- كان مع ظهور حركة المقاومة المسلحة العلنية للشعب الفلسطيني، فهذا الظهور العلني أكد سعي الحركة لامتلاك قرارها الخاص بديلاً لسطوة الوصاية العربية(الناصرية والبعثية والهاشمية)، وعكس التنوع الواسع لتيارات الحركة، بما أكسبها صفة تمثيلية تستند لقوة الشرعية الثورية والمبادَرة للقتال، الأمر الذي خلق التفافاً شعبياً حولها. هذا في الوقت الذي كان " التبلور" قبل ذلك شكلياً ورسميا و"إرهاصيا" أكثر منه تبلوراً فعلياً تجسد في السنوات التالية للهزيمة.

وكان تأسيس حركة المقاومة قد نهض على حساب، وبالاستناد، للتراث السابق للتشكيلات السياسية العربية والفلسطينية، الإسلامية والقومية واليسارية، فكانت نفياً لما سبقها بقدر ما كانت تطويراً له فرضه مستجد الهزيمة، وانهيار برامج تلك التشكيلات.[16]

وبالاستناد لمبادرة امتشاق السلاح والالتفاف الشعبي سيطرت الفصائل المقاومة على منظمة التحرير وأكسبتها طابعاً جديداً يختلف عما اكتسبته في ظل قيادة الشقيري لها، وطرحت برامجها وتصوراتها(وإن كان الميثاق يشكل برنامجاً وآلية موحدة من الناحية الرسمية) للصراع الفلسطيني والعربي-الصهيوني، ولأسلوب الكفاح المسلح، وتصوراتها للأعداء وللأصدقاء، ولمستقبل الوطن بعد التحرير. والأهم، أنها شرعت ببناء مؤسسات فلسطينية(سياسية واجتماعية وخدماتية.....) تستند لشرعية المقاومة المسلحة وللإسناد الشعبي (صايغ، 2002؛ فرسون، 2003؛ الشريف، 1995).

---

[16]- كانت فتح قد تشكلت من الطلبة الفلسطينيين المقيمين في مصر وحفنة من الموظفين العاملين في الخليج، وكان هؤلاء ذوي اتجاهات متنوعة(وإن لم يكونوا ذوي انتماءات حزبية) فعرفات مثلاً كان معروفاً بتوجهه ألإخواني والقدومي بتوجهه البعثي وهكذا....فيما الشعبية والديموقراطية كانتا من أصول تنظيمية تنبع من القوميين العرب. أما الصاعقة فكانت فرع حزب البعث في فلسطين.(راجع الموسوعة الفلسطينية: 1990، القسم الثاني، المجلد الخامس)

إن المظهر الأبرز بعد تأسيس وإعلان حركة المقاومة هو الالتفاف الشعبي حولها، والذي تجسد في البدايات(1967-1971) في ظاهرة الكفاح المسلح في قطاع غزة، والدفاع عن حق التواجد العلني لها في الأردن. أما بعد ذلك في لبنان فقد تجسد بتحول المقاومة لقوة عسكرية يحتضنها الشتات الفلسطيني، انتزعت اعتراف السلطة اللبنانية بها، وامتلكت حق التواجد والقتال انطلاقاً من الأرض اللبنانية(وهو ما عرف حينه باتفاق القاهرة بين المنظمة والسلطة اللبنانية). إن هذا الالتفاف وطبيعة المؤسسات الفلسطينية الناشئة خلق تغييرات جديدة في العمل السياسي الفلسطيني طبعت النظام السياسي بطابعه الخاص إلى حدٍ ما، وتركت بالتالي بصماتها على البنية وأدوار القوى الاجتماعية. ومن أهم ملامح تلك التغييرات:

1. البعد الشعبي للمقاومة والذي تأتى تحديداً من التفاف المخيمات حولها ما أكسبها بعداً طبقياً ثورياً في الواقع، حتى أمكن اعتبار المخيم هو المؤسس الفعلي لحركة المقاومة. لقد كان تأسيس حركة المقاومة فاتحة مرحلة جديدة في أدوار القوى الاجتماعية: احتلت البرجوازية الصغيرة موقعها القيادي في الحركة(الموظفون، المهنيون، الطلاب والمثقفون) ودخلت الفئات الشعبية معترك العمل السياسي والمسلح من أوسع أبوابه-الثورة الناشئة (الفلاحون عديمو الملكية، العمال، المستخدمون، المثقفون، المهنيون، والنساء). (هلال، 2002: 42)
2. وهذا اكسب الحركة- موضوعياً- طابعاً ديموقراطياً شعبياً، وإن لم ينعكس هذا في آليات تشكيل المؤسسة ذاتها، وآليات اتخاذ القرار فيها.
3. تبلور واسع لمختلف التيارات السياسية والفكرية(القومية واليسارية)، في ظاهرة لم يعرف التاريخ الفلسطيني نظيراً لها من حيث تنوعها الواسع، وحالة الجدل التي نشأت بينها كبرامج ورؤى وتصورات، وانخراط هذه التيارات في القتال اليومي تأكيداً على ارتباط البرنامج بالممارسة، وبما عكسه ذلك من حالة تثوير للجدل الفكري بين صفوف الجماهير الشعبية في الشتات، والمخيمات تحديداً، وتأثير ذلك على وعيها السياسي والطبقي، الأمر الذي يمكن اعتباره من الزاوية التاريخية كأول عملية تثوير للوعي الشعبي والنقدي في التاريخ الفلسطيني (هلال، 2002؛ فرسون، 2003؛ الشريف، 1995).

أما في الوطن فلم يكن التغيير بالحجم ذاته خارج الوطن. فلاعتبار عدم التماس المباشر والعلني بين الفصائل وسكان الداخل الفلسطيني، ونتيجة للإهمال البرنامجي لدى فصائل المقاومة للعمل السياسي والجماهيري والثقافي في الداخل، فقد ظلت الهياكل السياسية القديمة على حالها وإن أخذت تتدرج رويداً رويداً في النضال الوطني العام. فباستثناء الحزب الشيوعي، الإطار الوحيد المنظم ولكن المحدود في آن، لم تخلق فصائل المقاومة امتدادات شعبية منظمة لها(باستثناء التجربة القصيرة للجبهة الشعبية في قطاع غزة من 1968حتى1971)، واقتصر عملها على أنوية عسكرية صغيرة تفتقد لقوة وآلية الاستمرار. ويمكن النظر لمحاولة بناء الجبهة الوطنية في العام 1974 في الداخل كأول محاولة جدية لبناء ركائز النظام السياسي

الجديد، ولكنها لم تعمر طويلاً لاعتبارات عديدة لا مجال للتطرق لها هنا، كذلك ينظر في ذات السياق للجنة التوجيه الوطني التي تشكلت في العام 1978 (فرسون، 2003؛ الصايغ، 2002؛ هلال، 2002: 50-51).

ويمكن النظر لهبة 1974 الشعبية في الداخل(والتي جاءت دعماً لاعتلاء عرفات منصة الأمم المتحدة) وبناء الجبهة الوطنية وانتخابات البلديات في العام1976 وتشكيل لجنة التوجيه الوطني، كمنعطفات بارزة على طريق بناء النظام السياسي الجديد في الداخل، وعنوانه الأبرز المنظمة بفصائلها وقياداتها وتعبيرات ذلك الاجتماعية، وكذلك مظهراً على بروز نجم النخب الجديدة ذات الأصول البرجوازية الصغيرة والشعبية الكادحة والمرتبطة بالمنظمة، الأمر الذي تجلى بشكلٍ بارز في بناء المنظمات والاتحادات الشعبية للفصائل الفلسطينية في عقد الثمانينيات بتركيبتها الطبقية الشعبية، وقاعدتها الواسعة بمن فيهم المنظمات النسائية. لقد بدأت أوساط من البرجوازية الصغيرة تزاحم القيادات العائلية، والبرجوازية المحلية على مكانتهم القيادية، وبرز هذا تحديداً في انتخابات البلديات في العام 1976. (Hiltermann 1991: 209-210 ؛ هلال، 2002:52-53)

لقد تحول العمل النسائي، بفعل النشاط التنظيمي للفصائل منذ أواخر السبعينيات، من طابع النشاط الخيري الإغاثي الذي تتزعمه النساء المتحدرات من أوساط العائلات الأرستقراطية التقليدية، إلى طابع النشاط السياسي والاجتماعي المباشر الذي نهض على أكتاف النساء المتحدرات من أصول شعبية(مهنيات ومثقفات وطالبات)، وتجلى هذا أكثر ما تجلى في بناء المنظمات النسائية الشعبية المرتبطة بالفصائل السياسية منذ أواخر السبعينيات، وفي الاشتراك الواسع في الانتفاضة الشعبية في العام 1987 (Hiltermann 1991 ؛ هلال، 2002: 54)

لقد جاءت الانتفاضة الشعبية في العام 1987 نقطة التحول الأبرز في هذا السياق لأكثر من اعتبار نوجزهم بالتالي:

1. تأسيسها للهياكل والأطر الشعبية بما عناه هذا من انخراط شعبي عريض في العمل السياسي، وبما عكسه من دور قيادي للعمال والطلاب، ليس على مستوى الحركة القاعدية بل على مستوى التشكيلات القيادية للانتفاضة- وأبرزها القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة (هلال، 2002: 52-54؛ Hiltermann1991:215).
2. الحراك الناتج في أدوار القوى الاجتماعية، حيث اندحر إلى حدٍ بعيد دور الرموز العائلية التقليدية، والبرجوازية المحلية السابقة، لصالح العمال والطلاب والنساء والمثقفين والمهنيين، الأمر الذي أحدث حراكاً بالتالي في أدوار النخب السياسية والاجتماعية، فأدى لبروز نخب جديدة من أوساط عمالية ذات أصول ريفية وبرجوازية صغيرة شعبية(حرفيين وموظفين) مرتبطة بالفصائل السياسية، وتستمد شرعيتها من نضالها الميداني وتزعمها للانتفاضة (هلال، 2002: 52؛ Hiltermann1991: 209-215).

3. لذلك يعتبر سويدنبرغ الانتفاضة الفلسطينية، شأن الثورات كافة في التاريخ الفلسطيني منذ عام 1936، ثورة فلاحية، لا بمفهوم هيمنة الفلاحين، بل بمفهوم هيمنة الريف الفلاحي، ثقافة وعلاقات(Swedenburg 1995) الأمر الذي يؤكده مسار الحدث الانتفاضي نفسه(شحادة وأبو صوي، 1990: 43-121؛ كلافانس، 271- 289).
4. التبلور- النهائي تقريباً- للجناح الثاني في النظام السياسي الفلسطيني،الداخل، إضافة للجناح الأول،الخارج، بما عناه ذلك من توازن جديد في علاقات القوى داخل نفس النظام السياسي، سيكون له تأثيره اللاحق في مرحلة بناء النظام السياسي بعد أوسلو، لجهة حصول ممثلي الجناح الثاني على الحصة المناسبة عند تشكيل هذا النظام الجديد.(Heltirmann1991:209-210 ؛ الشريف، 1995)

3: 1 النظام السياسي بعد أوسلو

إذا كان من الصحيح تاريخياً أن النظام السياسي بعد أوسلو قد نشأ بفعل الاتفاقات والترتيبات بين المنظمة والحكومة الإسرائيلية، فأنه من الصحيح أيضاً أن هذا النظام نشأ على أنقاض ما أفرزته الانتفاضة- وما كان له أن ينشأ دون ذلك- وعلى أساس من نتائجها: الدور الأساسي لفرع الداخل في النظام السياسي، وأدوار القوى الاجتماعية الجديدة، لذلك يمكننا فهم التحولات العديدة التي جرت بعد أوسلو.

أخذاً بعين الاعتبار نشأة النظام على قاعدة أوسلو وترتيباته، يمكننا اعتبار الطابع الوظيفي لهذا النظام كطابع طاغ في سلوك وتركيب وتوجه هذا النظام، الأمني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي(فرسون، 517:2003).

ما يهمنا في هذا الجانب هو ملاحظة السمة الرئيسة للنظام وما ارتبط بها من تغيرات اجتماعية. وللفحص السريع لهذه السمة وتعبيراتها يمكن الاستناد إلى مقولة-مفهوم **الاستبدالية** الذي نحتها إسحق دويتشر في بحثه الموسع (ثلاثيته) حول تروتسكي (دويتشر، 1981؛ 1982؛ 1983). ويتحدد قوام هذا المفهوم في أنه عملية منظمة، سياسية، وتاريخية، لاستبدال المؤسسات والأدوار بما يتطلبه ذلك من إجراءات وسياسات ذات طابع استراتيجي وتكتيكي. وقد استخدم دويتشر هذا المفهوم كمدخل لفهم التحولات التي جرت على مؤسسات السلطة والحزب في الدولة السوفيتية عقب تسلم ستالين للسلطة، وعلى دور الطبقة العاملة في النظام السياسي-الاجتماعي هناك.

إن السمة السياسية الأبرز كما يحددها هلال هي أفول المنظمة لصالح التشكيل السلطوي الجديد-السلطة الفلسطينية. فقد تم استبدال المنظمة بالسلطة برنامجياً وسياسياً وتنظيمياً وبغض النظر عن الخطاب الإعلامي السائد للسلطة. فبرنامجياً جرى الاستعاضة عن الميثاق الوطني الذي قُرغ من أبرز بنوده في العام 1996، وبناءً على الاشتراط الأمريكي-الإسرائيلي، لصالح برنامج جديد، قوامه الاعتراف بإسرائيل بما عناه ذلك من شطب الحق التاريخي للشعب في المنطقة المحتلة في العام 1948، وإعلان طريق المفاوضات كطريق وحيد

بعد التنديد بالإرهاب، والاعتراف بإسرائيل قبل اعترافها بحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم (فرسون، 2003: 536؛ هلال، 1998: 80).

وعليه تهمش دور المنظمة بتهميش القاسم المشترك البرنامجي الذي جمعها كائتلاف منذ العام 1964، وشُرع ببناء مؤسسة السلطة بتنويعاتها التنفيذية والتشريعية على أنقاض مؤسسات المنظمة التي بقيت هياكل مفرغة من أي دور، لا تلتئم إلا عند الحاجة للتوقيع على ما يتطلبه سلوك السلطة من شرعية مفتقدة[17]. ومؤسسة المنظمة وإن كانت بنيت على قاعدة الشرعية الثورية وتوزيع الحصص والكوتا عبر التنظيمات دون ممارسة ديموقراطية حقيقية تدعم الشرعية إياها، غير أن مؤسسة السلطة بُنيت مع ذلك على قاعدة الاتفاقات السياسية مع الاحتلال، وعلى قاعدة دور وظيفي محدد برز في ثنايا الاتفاق، الأمر الذي حرمها من السيادة على الأرض والسكان بمفهوم القانون الدولي، ووضع شرعيتها موضع التساؤل. وعليه تحددت السمة الرئيسية للنظام السياسي بعد أوسلو بحقيقة، تصفية مؤسسة المنظمة الفعلية، أي تصفية عنوان النظام السياسي السابق، وبالمقابل عدم بناء نظام سياسي جديد وطني على أنقاض الاحتلال، بل بناء نظام زبائني محدث، يخضع بالنهاية، للسيادة الاحتلالية الشاملة، نظام مكبل بثقل الاتفاقات ومعدوم السيادة تُطرح شرعيته على طاولة النقاش (فرسون،2003: 536؛ هلال، 2002: 195-213).[18]

وهذه العملية الاستبدالية استدعت بالضرورة تغييرات على النخب السياسية والأدوار الاجتماعية. يعدد حسن خضر العديد من الأطراف التي شكلت النخبة السياسية الجديدة: أفراد الجهاز البيروقراطي للمنظمة، نخبة الأجهزة الأمنية، النخبة الاقتصادية المتوالدة بفعل الامتيازات من داخل مناصب السلطة، نخب القيادات الميدانية الشابة التي برزت في الانتفاضة الأولى...وبالعموم تشكلت النخبة من تحالف الجهاز البيروقراطي للمنظمة (النظام السابق المتحول) مع أوساط واسعة(فتحاوية بالأساس) من النخب المحلية الناشئة والمتشكلة عبر الانتفاضة الأولى، وقد انحازت للنظام الجديد (فرسون، 2003: 509؛ خضر، 2003: 27-31).

ومن هذه وتلك نشأت نخب اقتصادية أضحت تحتل، بفعل دورها كوكيل تجاري، موقعاً هاماً في التركيب الطبقي لنظام السلطة الجديد. والحقيقة أن التوظيف الواسع في جهاز السلطة يعتبره خضر "كعملية لخلق الحامل الاجتماعي للسلطة" (خضر، مرجع سابق:29) وتلك يمكنها أن تفسر إحدى مناحي التشكل الجديد للنخبة الفلسطينية، وتؤكد حقيقة أن النخب الجديدة توالدت من النخب السابقة (هلال، 2003: 59-95؛ هلال، 1998 :164-168).[19]

ومع انهيار النظام السابق انهارت تفرعاته السابقة: الحزب السياسي الفصائلي الذي شكل لحمة النظام السابق، والمنظمات الشعبية القاعدية التي شكلت دعامة شعبية لهذا النظام وتلك الفصائل سابقاً. وبالمقابل- ولا غرابة

---

[17]- أبرز اجتماعين عقدتهما مؤسسات المنظمة على هذا الصعيد كان اجتماع المجلس المركزي في العام 1994 للمصادقة على التوقيع المنجز على اتفاقات أوسلو، واجتماع المجلس الوطني في غزة في العام1996 للمصادقة على إلغاء بنود في الميثاق الفلسطيني.

[18]- على الأقل قوى أساسية في حينها قاطعت انتخابات النظام الجديد طاعنة بشرعيته، قوى من داخل المنظمة(الشعبية والديموقراطية) ومن خارجها(حماس والجهاد الإسلامي).

[19]- يحدد فرسون(2003) ملامح التشكيل الطبقي للسلطة بالشرائح والطبقات التالية: التجار الرأسماليين، أصحاب الأراضي، ووكلاء الشركات. أما ما يسميه بالطبقة الحاكمة فيتشكل من: مدراء الأجهزة الأمنية والشرطية، النخب المحلية، ومدراء السلطة.

بتمويل خارجي- نشأ القطاع الواسع من منظمات غير حكومية بأجندات تتناسب والمرحلة الجديدة-أوسلو، وتراجعت (أشكال) المنظمات غير الحكومية السابقة التي تشكلت بالارتباط مع الفصائل وعير الاشتباك مع الاحتلال(هلال، 1998: 193-244)[20]

وكل تلك العملية الاستبدالية للمؤسسات والنخب وجدت بالتأكيد صداها على أدوار القوى الاجتماعية. فقد تراجعت إلى درجة كبيرة أدوار العمال والطلاب والنساء والمهنيين وعموم فئات البرجوازية الصغيرة الشعبية التي تزعمت حركة النضال ما قبل أوسلو، وتصاعد بالمقابل دور فئات وشرائح اجتماعية جديدة: الوكلاء التجاريين، وبيروقراطيو الأجهزة السلطوية الذين تحولوا لمواقع برجوازية بفعل الاستثمار واستغلال المواقع، ومدراء وكبار موظفي المنظمات غير الحكومية. وتلك الشرائح والفئات باتت تلعب دوراً متزايداً وقيادياً في العمل السياسي، وإن اختلفت مستويات تأثير وموقع كل شريحة وفئة في هذا العمل (هلال، 2003: 241-244).

ولذلك تغير طابع الدور النسائي، الاجتماعي والسياسي. فعلى أنقاض المنظمة النسوية الشعبية المرتبطة بالفصائل، والناشئة أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، والمرتبطة بالعمل الوطني والاجتماعي عبر ارتباطها بالبرنامج الوطني والفصائل، نشأت المؤسسات النسوية بعد أوسلو بطابعها الثلاثي: انعدام طابعها الشعبي، تمويلها الخارجي، وأجندتها المفترقة عن الأجندة الوطنية. ويتفق هلال مع كتاب وعواد خاصة في الحديث عن انتفاء الطابع الشعبي، وعدم البت في تحديد أولوية الوطني والاجتماعي في نضال النساء الفلسطينيات، فانحسر إلى أبعد الحدود دور النساء في العمل السياسي والاجتماعي، وإن بدا في فترة وكأن الانتعاش أصابه(مشروع البرلمان الصوري، الحركة من أجل التأثير في التشريعات) إلا أنه بقي دوراً هامشياً غير فعال نتيجة الطابع الثلاثي أعلاه، ونضيف هنا، نتيجة الانفكاك الحاصل- والذي دعم من قبل النخب النسائية الجديدة- بين النساء ودورهن من جهة، وبين الأحزاب والفصائل السياسية من جهة ثانية (كتاب وعواد، 2003؛ هلال، 2003: 82-83).

رابعاً: التركيب الاجتماعي-الطبقي في الضفة الغربية والقطاع

كان الاحتلال هو العامل المقرر في صياغة التركيب الاجتماعي- الطبقي في الضفة العربية وقطاع غزة المحتلين. لقد ورث الفلسطينيون من المرحلة الأردنية-المصرية ما قبل العام 1967، اقتصاداً مهمشاً وملحقاً بالاقتصادين المصري والأردني فيما أعمل الاحتلال مبضع الإلحاق الكامل-أي التدمير لهذا الاقتصاد الهش وبالبنية الاجتماعية ككل (هلال، 1974: 134و171-176)

ولما كان الاستيلاء على الأرض هو العنوان الأبرز لمجمل المشروع الصهيوني وسياساته تجاه فلسطين، فان استهدافها كان وراء مجمل التغيرات التي عصفت بالضفة والقطاع بعد الاحتلال. إن أول من تأثر بطبيعة الحال كان الفلاحون الفلسطينيون، فمصادرة الأراضي والمياه والتهجير عنوة عنى ضرب القطاع الزراعي

[20]- يعرج فرسون(2003) كثيراً على الفارق بين أشكال وطبيعة المنظمات غير الحكومية زمن الانتفاضة الأولى وتلك ما بعد أوسلو.

لدرجة كبيرة، وإفقاد الفلاحين وسيلة الإنتاج الأساسية، وتحولهم بالتالي للعمل في المشاريع الإسرائيلية باعتبار أن ما ورثته المنطقة من مشاريع لا يمكنها، كطاقة تشغيلية، من استيعاب الفلاحين-فاقدي الأرض.

إن التركيب الطبقي الناشيء في الضفة والقطاع تأثر بالتالي بواقعين أساسيين: فمن جهة تأثر بما ورثه من سياسة الإلحاق الأردنية، ومن جهة ثانية تأثر بالسياسة الإسرائيلية المعتمدة. ويمكننا على سبيل التركيز تسجيل الملامح الأساسية التالية للتركيب الطبقي في الضفة والقطاع حتى ما بعد أوسلو:

4-1 التركيب الطبقي الموروث من العهد الأردني.

1. ثقل ما يسمى بالبرجوازية الصغيرة التقليدية (الفلاحون وهم الشريحة الأكبر وتجار صغار وحرفيون) قبل العام 1967، حيث تشكل هذه الطبقة ما نسبته 35% من مجموع العاملين. فيما كان يشكل العاملون في الجيش الأردني ما نسبته 8% وهم يمكن إضافتهم للفئة الأولى بحيث يغدو الرقم 43%. أما الفئات العليا من هذه الطبقة(الأطباء والمهندسون والمحامون...) فلم تشكل سوى 2% من البرجوازية الصغيرة، وهو ما يؤشر لضعف البرجوازية المتوسطة عموماً (هلال، مرجع سابق: 1171-172).
2. هشاشة الطبقة البرجوازية الكبيرة خاصة شرائحها الصناعية والزراعية نتيجة سياسة الإلحاق من جهة، والتبعية الاقتصادية الأردنية للرأسمال العالمي والتي عنت تهميش قطاعي الزراعة والصناعة، فيما يشير هلال في نفس الصفحة إليها بصفتها (النسبة الضئيلة من السكان) والتي يشكلها أرباب العمل الكبار(ملاك الأراضي الواسعة، أصحاب المحلات التجارية الكبيرة، المقاولون وأصحاب الصناعات) (هلال: مرجع سابق، 173).
3. شكلت الطبقة العاملة حسب هلال ما نسبته 40% من مجموع السكان العاملين قبل حزيران 1967. والنسبة الأكبر من هؤلاء عملت في البناء والزراعة(في العام 1961 كانوا يشكلون ربع القوة العاملة فعلاً). أما عمال الصناعة ضمن هذه الطبقة فكانوا قليلي الحجم بسبب (نمو القطاع الثالث من خدمات وإدارة وتجارة ونقل على حساب الصناعة التحويلية والخدماتية) (هلال: مرجع سابق، 174)

4-2 التركيب الطبقي بعد العام 1967

1. يتفق الباحثون أن السياسة الإسرائيلية الكولونيالية تجاه الضفة والقطاع، اقتصادياً كانت تهدف إلى إلحاق كلي للاقتصاد الفلسطيني بالاقتصاد الإسرائيلي عبر ما يسميه تماري "بسياسة صيغت على المستوى البنيوي" وعلى أربعة محاور (السيطرة المادية على الأرض والموارد المادية.....جعل البنية التحتية الفلسطينية معتمدة على الخدمات الإسرائيلية.....امتصاص الاقتصاد الإسرائيلي للعمالة العربية غير الماهرة...إلحاق اقتصاد الأراضي المحتلة كسوق حرة للسلع الإسرائيلية بلا جمارك). ولكي يتم لها ذلك كان لا بد من تنشيط مصادرة الأراضي وبالتالي ضخ القطاعات الاقتصادية

الإسرائيلية وتحديداً قطاع البناء بالأيدي العاملة الريفية. ففي بحثه حول التوظيف وتدني استخدام العمالة يؤكد (غير أوفنسن) ما ذهبنا إليه بالقول" إن حصة القوة العاملة الموظفة في إسرائيل أعلى في المناطق الريفية منها في تلك المدينية. وتعكس هذه النتيجة التحول الذي طرأ بعد سنة 1967 على القوة العاملة الريفية التي أصبحت عمالة مأجورة في إسرائيل" (أوفنسن: 1994، 224؛ تماري: 1994، 24)

ومن الطبيعي أن هذا ما كان يمكن أن يحصل لولا السياسة الممنهجة في مصادرة الأراضي كسياسة كولونيالية. وفي المقابل فقد جرى أيضاً إغلاق كافة فروع البنوك العربية والأجنبية العاملة في الضفة، فيما اعتماد سياسة "الجسور المفتوحة" وربط سوق الضفة والقطاع بالسوق الإسرائيلي كما ذهب تماري سابقاً...كل ذلك ترك تداعياته على التركيب الطبقي الناشيء في الضفة والقطاع.

2. إن أول مظاهر هذا التركيب كنتاج لما سقناه أعلاه من سياسات إسرائيلية هو البلترة الواسعة للفلاحين والعاملين في قطاع الزراعة، فإضافة لما ذكره أوفنسن أعلاه يورد العديد من الباحثين إحصاءات عن تراجع حجم الأراضي المزروعة وكذا نسبة العاملين في القطاع الزراعي. (منصور، 1989 هلال، 1974: 244؛ قطامش، 1989: 40-41؛ البديري، 1990: 55).

وظاهرة البلترة هذه لها خصوصيتها في الوضع الفلسطيني، ويمكن تحديد سمات هذه الخصوصية بالتالي:

أ- إنها نتاج عملية قسرية مبرمجة قوامها تدمير البنية الإنتاجية الريفية بهدف إيجاد احتياطي من القوى العاملة خدمة للمشروع الإسرائيلي، وبالتالي ليست نتاج عملية التصنيع والتحول الاجتماعي البرجوازي للمجتمع، فالإحصاءات التي تُظهر تراجعاً في نسبة قوة العمل في القطاع الزراعي لا تُظهر في المقابل، تنامياً في القطاع الصناعي بيت تجمعات الفلاحين الأمر الذي يشير إلى أنه في الوقت الذي فقدت فيه القرية الفلسطينية طابعها الزراعي لم تكتسب المدينة بالمقابل، طابعاً صناعياً متطوراً (هلال، 1999: 27).

ب- وبالتالي، لم تترافق العملية مع هجرة واسعة للريف، فلاعتبارات سياسية، كان العامل الفلسطيني في إسرائيل يذهب إليها صباحاً ليعود ليلاً إلى القرية، وهي الظاهرة التي سُميت بظاهرة العمالة المهاجرة. (هلال، 1998 :150)

ت- وعليه ظل العامل مرتبطاً بالبنية الثقافية والاجتماعية الريفية، ما عنى ضعف تبلور الطبقة العاملة، كطبقة لذاتها، وسيادة الثقافة الريفية وعلاقاتها، وأهمها العلاقات العائلية والحمائلية.

ث- وتحول الفلاحين لعمال بالأجرة لم يقض تماماً على مصدر الدخل المتأتي من الزراعة، بل حوله لمصدر دخل ثانوي فحسب، يعتمد عليه العامل كمصدر للأمن الغذائي في الطواريء لا كمصدر دخل رئيسي. (المالكي وشلبي، 1993: 145-156)

ج- وبسبب كل ذلك كانت البلترة عملية مشوهة تعكس قسرية العملية، وإخضاعها لمتطلبات الاقتصاد الإسرائيلي، لا خضوعها لحاجات تطور اقتصادي فلسطيني متسق.

إن تحول الفلاحين لعمال مأجورين من الأرياف سيترك تأثيره اللاحق على نفوذ الطبقة العاملة الريفية، وسينعكس بالتالي على دورها كقوة اجتماعية ريفية، دوراً ظهر بشكل جلي في الانتفاضة الأولى كما سبق وأشرنا.(قطامش، 1989؛ Hiltermann 1991: 208-210؛ هلال، 1998: 152؛ هلال، 2002: 47)

3. ورغم الدمار الذي حاق بالفئات البرجوازية الصغيرة، الفلاحية والحرفية على السواء، وتحول قطاعات واسعة منها للعمل في المشاريع الإسرائيلية فقد بقيت البرجوازية الصغيرة ذات نفوذ، تعاظم أكثر فأكثر. فالدمار الذي لحق بالصناعات الحرفية لم يقض على هذه الصناعات باعتبارها الأهم في المشروع الصناعي، فبقيت تطبع الصناعة المحلية بطابعها الخاص، كصناعة حرفية صغيرة لا توظف إلا عدداً قليلاً ما العمال، إن لم تكن مشروعاً عائلياً أصلاً.. إن معدل الاستخدام يُنظر له كمؤشر هام على طبيعة المشروع كمشروع حرفي برجوازي صغير.أما إذا أخذنا معدل مساهمة هذه الصناعة في الدخل الإجمالي المحلي فسيقدم لنا مؤشراً آخر ذا دلالة: ففي الأعوام الأولى للاحتلال كانت مساهمة الصناعة 5.4% من الدخل لتصبح في العام 1985 9-10% في قطاع غزة. وكل ذلك ليس فقط دلالة على سعة البرجوازية الصغيرة بل على هشاشة وضعف البرجوازية الكبيرة على العموم (قطامش، 1989: 50؛ هلال، 2002: 166)
4. أما المؤشر الأبرز على التوسع المضطرد للفئات البرجوازية المتوسطة فهو النمو الكبير في أعداد الطلبة الجامعيين، أي الخريجين لاحقاً. وإذا كان من الصحيح أن قطاعاً من الخريجين وجد طريقه لسوق العمل في إسرائيل، فإن من الصحيح أيضاً أن قطاعاً لا بأس به التحق في صفوف البرجوازية الصغيرة(معلمون، موظفون). وتلمح تراكي هذا المتغير فتشير إلى "تزايد أعداد الطلبة الملتحقين بمؤسسات التعليم العالي المختلفة. وهذا أدى بدوره إلى تغيير في التركيب الاجتماعي للجسم الطلابي....إذ أضحى الطلبة القادمون من الريف الفلسطيني والمخيمات والشرائح الفقيرة في المدن يشكلون الأغلبية فيه" (تراكي، 1990 :12) وفيما نقلناه عن تراكي لا يهمنا فقط من حيث تزايد الطلبة-لاحقاً الموظفين، بل وتغير "التركيب الاجتماعي للطلبة" الذي سيكون له تأثير سياسي كبير على دور البرجوازية الصغيرة في النضال الوطني داخل الوطن، وتمكنها من أن تصبح مع العمال من الأرياف والمخيمات والنساء الطبقة المهيمنة في الانتفاضة الأولى كما أشرنا سابقاً.
5. ولما كان التركيب الطبقي ورث برجوازية كبيرة ضعيفة وملحقة بالنظام الأردني أبرز شرائحها كبار الملاك المرتبطين سياسياً واقتصادياً بالنظام، فقد زاد الاحتلال من هذا الواقع. من أولى خطوات الاحتلال على هذا الصعيد ضربه للبرجوازية البنكية عبر إلغاء فروع البنوك العربية والأجنبية في الضفة والقطاع كما أشرنا سابقا، فتم قبر شريحة من البرجوازية الكبيرة برمتها. أما البرجوازية الصناعية الضعيفة أصلاً فلم تقوَ على منافسة الصناعة الإسرائيلية فوجهت ضربة قاصمة لها. إن الانتعاش هنا كان لفئات من البرجوازية التجارية(المستوردون والمصدرون) سواء أكان عبر سياسة "الجسور المفتوحة" التي انتهجتها إسرائيل لمصلحتها السياسية والاقتصادية أو كان

عبر العمل كوكلاء للشركات الإسرائيلية، بحيث يتضح أن هذا النشاط الاقتصادي البرجوازي كان الأبرز في سني الاحتلال، وهذا يفسر ضعف نفوذ البرجوازية الكبيرة على العموم في المجال السياسي (هلال، 1974).

خامساً: التركيب الطبقي الجديد- ما بعد أوسلو

لم يكن لاتفاقات أوسلو بعدها السياسي فقط، بل إن للبعد الاقتصادي ثقله أيضاً. ما يهمنا هنا هو أثر الاتفاق الاقتصادي (ما عُرف ببروتوكول باريس) ونشوء النظام السياسي الفلسطيني الجديد بعد العام 1994 على التركيب الطبقي في الضفة الغربية. في بحثيهما حول واقع ومستقبل العلاقات الاقتصادية الفلسطينية-الإسرائيلية يستعرض الباحثان النقيب والعطياني ما يمكن وصفه بالتأثير الكبير للبروتوكول على تعميق التبعية الاقتصادية الفلسطينية للاقتصاد الإسرائيلي، وما تركته العلاقة المرسّمة في البروتوكول من تأثير على القطاعات الاقتصادية المختلفة وأدوار الطبقات والفئات الاجتماعية بالتالي (النقيب وعطياني، 2003: 33-34؛ هلال، 1998: 155).

ويذهب نصر للقول إن هذه الاتفاقات قد" ساهمت في استمرار بل وتعميق التشوهات التي كانت موجودة أصلاً، نظراً لأن صياغة تلك الاتفاقات تمت بشكل يتفق مع المصالح الإسرائيلية" (نصر، 2003: 23) أما السلطة الفلسطينية فهي لم تتخذ إجراءات لمعالجة التشوهات فحسب، بل اتخذت إجراءات عمقتها (نصر، مرجع سابق: 24).

يمكن التقدم بالتصور التالي لملامح التركيب الطبقي الفلسطيني بعد أوسلو:

1. وكلاء الشركات من البرجوازية التجارية الكبيرة والبرجوازية الصناعية المرتبطة بالمصانع الإسرائيلية، وتلك حازت على وكالاتها من العلاقة مع الطرف الإسرائيلي، وهي إما تكون من داخل جهاز السلطة نفسه، أو من خارجه وبتسهيلات من السلطة (نصر، مرجع سابق: 35؛ هلال، 1998: 171).

واللافت للنظر أن جهاز السلطة تدخل لتقديم التسهيلات التي تعزز من ارتباط البرجوازية الوكيلة مع إسرائيل، سواءً أكانت كانت هذه البرجوازية من داخل الجهاز أم من خارجه (نصر، 2003 :36).

أما البرجوازية الصناعية المرتبطة بجهاز السلطة والمستفيد من العلاقة المختلة مع إسرائيل فيسوق النقيب والعطياني ثلاثة أنشطة لها " مصانع الباطون، معدات البناء، ومصانع الحجارة والرخام" (النقيب والعطياني، 2003: 43).

والبرجوازية المالية وجدت في الانتعاش الكبير للجهاز المصرفي بعد أوسلو ضالتها(أفتتح بعد أوسلو وحتى العام 2000، 23 بنكاً لها 125 فرعاً). أما تأثيرها، أو سلوكها الاقتصادي إن جاز التعبير، فيمكن تلمسه من تسريب الودائع للخارج والاستثمار في القطاع التجاري، لا الزراعي او الصناعي. (نصر: 2003، 30)

ومن الفئات البرجوازية التي تملك ثقلاً في التركيب الطبقي ما وصفه الباحثون بالنخبة السياسية الجديدة، والتي جرى وصفها سابقاً، والتي تشكلت من تحالف بيروقراطيي جهاز منظمة التحرير الوافدين والكادر الفتحاوي في الضفة الغربية والقطاع، وتتمترس اليوم على رأس الأجهزة السلطوية ومؤسساته(الأمن، الوزارات، الشركات الاحتكارية...).

2. أما البرجوازية الصغيرة الصناعية غير المرتبطة بالاتفاقات، فكانت ضعيفة البنية، ومساهمتها في الدخل الوطني وقدرتها على التشغيل محدودة أيضاً، والأهم أنها سجلت تراجعاً في معدلات النمو، وبالتالي انخفضت مساهمة القطاع الصناعي. بقي القول أن تلك الصناعات حرفية أساساً (نصر، مرجع سابق: 25-26).

هذا الواقع الاقتصادي يدلل على النفوذ المحدود للبرجوازية الصناعية الحرفية في الهيكل الطبقي، ولكنه بالمقابل يدعم تصنيف هذه الفئة من البرجوازية الصغيرة على العموم، نتيجة طابع مشاريعها الحرفية من جهة ومستوى التشغيل المتدني فيها.(هلال، 1998: 169)

ومن الشرائح البرجوازية الصغيرة ذات الثقل موظفو جهاز السلطة المتضخم (120 ألف في العام 2000) ويمثلون أكثر من 22% من مجموع العاملين الفلسطينيين، وموظفو الخدمات الذين كانوا يناهزون 132 ألف في العام 2000. (نصر، 2003: -3827).

3 . أما المتغير الأكبر بعد أوسلو فهو تشكل شريحة واسعة نسبياً من مدراء ومستخدمي المنظمات غير الحكومية(926 منظمة، توظف 573 منظمة منها 10375 موظفاً) والتي تشكلت بتمويل خارجي- أوروبي وأمريكي. إن برامج هذه المنظمات المتشحة بالليبرالية الغربية، أجورها العالية نسبياً مقارنة بمتوسط الأجور العام، امتيازاتها العديدة، ونفوذها في العملين الاجتماعي والإغاثي، يجعل من الصواب توصيفها باعتبارها من الشرائح العليا من البرجوازية المتوسطة كما توصف في الأدب الاجتماعي(سالم، 1999؛ عواد وكتاب، 2003: 19-21؛ هلال، 1998: 172-174و165؛ شلبي: 2001).

ومن الفئات الوسطى أيضاً الكم الكبير من الأكاديميين والباحثين والمثقفين على العموم والذي تزايد عددهم في سني الاحتلال مع نشوء العديد من الجامعات، وتعاظم بعد نشوء السلطة ورفد هذه الفئة بالعديد من القادمين من الخارج. إن المتغير الأبرز هنا أن المجتمع الفلسطيني بات يعرف ما يسمى في الأدب الاجتماعي بالفئات الوسطى ما يترك أثره على آفاق العمل السياسي وبرامجه وتوجهاته في المجتمع (هلال، 1998: 172-174و 165)

4. أما الطبقة العاملة فقد اتسعت نسبتها من مجموع العاملين. فقد بلغ عدد العمال العاملين في المشاريع الإسرائيلية والمستوطنات فقط، 146 ألف في الربع الثالث من العام 2000 وهو ما نسبته 22% من مجموع العاملين. (نصر، 2003: 32).

5. بطبيعة الحال يصعب تناول التركيب الطبقي دون التعريج على المخيم كأوسع تعبير ديموغرافي عن وجود الفلاحين فاقدي الملكية. ومع الخلاف القائم حول عدد اللاجئين وتصنيفهم فإن الأونروا سجلت في العام 1995 ما مجموعه 6.882.000 لاجئاً في سجلاتها، منهم في الضفة والقطاع (وهذا يشمل اللاجئين المقيمين في القدس الشرقية) 2.130.000 لاجيء، وهذا الرقم يساوي 41% من مجموع سكان الضفة والقطاع. علماً أن تقديرات فلسطينية أخرى في العام 1998 تشير إلى أن عددهم 1.391.173 لاجئاً مسجلا وغير مسجل(تاكنبرغ: 2003، 26؛ المراقب الاجتماعي:2001، 17؛ الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني:2002، 22).

سادساً: ابرز الظواهر السوسيولوجية بعد العام 1967

لقد كان للتحولات التي أصابت البنية الاجتماعية والطبقية الفلسطينية تأثيرات واضحة تجلت في ظهور وتعمق ظواهر سوسيولوجية، تركت ولا زالت، أثراً على مكانة المرأة الاجتماعية ودورها السياسي. يمكن تحديد أبرز هذه الظواهر بالتالي:

1. **عرفلة التطور المديني** كان للتغيرات القسرية بفعل المشروع الصهيوني (الاحتلال والإجراءات المرافقة له) أثرها المباشر على البنية الاجتماعية والديموغرافية الفلسطينية. فمن جهة ألحقت التدمير بالبنية الإنتاجية الزراعية نتيجة الاستيلاء على الأرض (ما يزيد عن 65% من مساحة الضفة الغربية وقطاع غزة)، فخلقت عوامل طرد تجاه المراكز المدينية، كعمالة لا كإقامة. ولكن تلك العملية، لقسريتها، ولخضوع النشاط الاقتصادي بالكامل لهيمنة رأس المال الصهيوني عبر سلسلة من الإجراءات والقوانين، لم تعني خلق حواضر عمالية مدينية، تمتاز بتشكل بروليتارية عصرية، بل تحول الفلاح لعامل غير ماهر في المشاريع الإسرائيلية، نتيجة محدودية التشغيل في المشاريع المحلية، ينتقل إليها صباحاً ويعود إلى القرية ليلاً، وهو ما يسمى بالعمالة المهاجرة من الريف للمدينة، ولكن غير المقيمة في الثانية. وعدم إقامتها يمكن تفسيره أيضاً بقرب الريف من المدينة في فلسطين. والعودة للقرية تعني الارتباط ببقية من مصدر الدخل الزراعي، وبالثقافة والعائلة الريفية، والنتيجة أن الريف لم يبقي موقعاً للإنتاج الزراعي، ولا المدينة تحولت لحاضرة عمالية، تغزوها الثقافة المحايثة لأنماط الإنتاج الرأسمالي، بل غزتها على العكس الثقافة الريفية بما بات يُعرف بظاهرة " ريفنة المدينة " ومعها التنظيمات والرموز والأفكار الاجتماعية المرافقة، العائلة والحمولة وأنماط التفكير والانتماء، وهذا الوقع يشمل العمال الفلسطينيين في عموم فلسطين (Hilterman.1991 ؛ صباغ، 1999: 40؛ بركات، 2000؛ تماري، 1994: 23؛ هلال، 1999: 27)

لقد كان لهذا المتغير أثره على الطابع المديني للمدينة، من حيث أعاق التطور الطبيعي لها، وأدخلها في عملية قسرية غيرت من تركيبتها، شوهتها، لخدمة السياسات الصهيونية.

أما حول المدينة في منطقة 48 فيربط بشارة بين المدينة والحداثة، ويعتقد أن مشروع المدينة الفلسطينية قبل العام 48 قد أعيق تطوره، احتجز، ودمر. لم تتطور مظاهر هجرة ريفية للمدينة رغم تدمير الاقتصاد الزراعي، ولكن تطورت ظاهرة (القرية الكبيرة) التي سُميت مدينة دون محتوى المدينة الحداثي، فغدت المدينة اليهودية مثار " إعجاب تحول إلى عقدة نقص وكراهية في الوقت ذاته " في ذهن المواطن العربي (بشارة: 1998، 8).

إن النتيجة المنطقية لعرقلة هذا النشاط المديني متعددة الجوانب، فهي تطال على الأهم هيمنة الثقافة الريفية على المدينة كبديل للثقافة الحداثية العقلانية المفترضة للمدن المتطورة طبيعياً، وهو ما يدعوه دراج بالوعي الريفي المسيطر، مستعيناً بمفهوم غرامشي عن الثقافة الريفية، الأمر الذي سيترك تأثيره على النساء وموقف الآخر(موئسات سياسية، عائلة، الرجل، الثقافة السائدة) منها. ففي كل الأدبيات التي عالجت دور ومكانة المرأة، حتى في لحظات المشاركة الواسعة للنساء في النضال مثل الانتفاضة الأولى، يجري إبراز بقاء التأثير الثقافي الريفي المعادي لهن، وسطوة البطريركية كنتاج لاستمرار العلاقات العائلية في المجتمع المديني الجديد، فحتى مع تراجع مكانة العائلة الممتدة ونمو العائلة النووية بفعل العمل، فلا زالت العلاقات العائلية هي المحددة لطابع العلاقات في المدينة وللانتماءات في أحيانٍ كثيرة. (دراج، 1996؛ Hiltermann1991)

2- **سيطرة الثقافة الريفية**

الثقافة الريفية لم تبرح هي الثقافة السائدة في المكون الثقافي الفلسطيني العام. والملاحظ أنه رغم اندثار الفلاحين كطبقة نتيجة نجاح المشروع الصهيوني في تهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين، وبالتالي حالة اللجوء في العامين 1948و1967، رغم ذلك فإن الثقافة الريفية هي الإطار المرجعي للتصورات والقيم والمفاهيم ومنظومة التفكير بالإجمال لدى الشعب الفلسطيني. وكان دراج عزى للتناقض بين هذا المكون الثقافي الريفي" الرجعي من حيث المحتوى" والمشروع التحرري الحداثي" التقدمي من حيث المحتوى" كل أزمة الثقافة الفلسطينية، بمؤسساتها وبرامجها وتصوراتها. فيما يؤشر المالكي لانحسار التحضر والثقافة المدينية كإحدى تجليات الإجراءات الإسرائيلية بعد الاحتلال كما ذهبنا لاحقاً (دراج، 1996؛ المالكي، 2004).

ومع ذلك فالتحرر الوطني، وما تبعه من نشاط سياسي إضافة لمؤثرات أخرى لا مجال لذكرها هنا، دفعت باتجاه تأثيرات ثقافية جديدة في الواقع الفلسطيني. فمن جهة تسجل تراكمي معالم بارزة على نشوء أطر وأنشطة ثقافية جديدة في الضفة والقطاع: الشعر، الرواية، المسرح، الصحافة والمجلات المتخصصة، الجامعات والمعاهد....ويمكن الإضافة كدليل على ذلك ما أطلقه المشروع الوطني من أنشطة إبداعية لازمته (في الرواية لدى كنفاني وحبيبي ويخاف مثلاً، وفي الشعر كما لدى درويش، القاسم، البرغوثي وزيّاد

وآخرين) فيما لا يمكن إهمال الدور الذي لعبته الجامعات الفلسطينية في الثمانينيات في تنشيط الحياة الثقافية والجدل الأيديولوجي بحيث" أصبحت الجامعات والمعاهد الفلسطينية في الثمانينيات من الأماكن الرئيسية التي أفسحت المجال لتطوير الوعي الفلسطيني، وليس فقط بين الطلبة الفلسطينيين وإنما بين الفلسطينيين في الأرض المحتلة بشكل عام" (تراكي، 1990: 12؛ شريتح، 1990).

أما المؤثر الأكبر ثقافياً فكان الدور الذي لعبته القوى والفصائل (اليسارية على وجه الخصوص) ومنظماتها الجماهيرية في الثمانينيات. تلحظ تراكي هذا الدور فتسجل" رافق ظهور المنظمات الجماهيرية بروز أطر ثقافية أسهم من خلالها جيل جديد من الكتاب والفنانين في صنع هوية فلسطينية خاصة"- والهوية بالتأكيد يحايثها مكون ثقافي- وتتابع تراكي" فنجد مثلاً تشديداً خاصاً على التعلق بالأرض والصمود والتحدي، إضافة إلى نفحة تفاؤلية قوية تجاه المستقبل.."(تراكي، 1990 :11).

أما كتاب فتشير إلى ما هو أبعد من قيم التعلق بالأرض. إن كتاب تلمح التأثير الثقافي اليساري الذي مارسته المنظمات الجماهيرية التي لعبت دوراً ثقافياً ليس فقط في تثقيف النساء بل ودمجهن في النضال وفي ترويج قيم ومفاهيم ثورية حول دور المرأة الاجتماعي والسياسي (كتاب وآخرون، 1990: 390).

إن كل المجهود الثقافي الجديد الذي لازم المشروع الوطني، وإن لم يحايثه حسب دراج، لعب دوراً في تضمين البنية الثقافية السائدة مضامين جديدة، علمانية ويسارية، أضحت اليوم من المكونات الأساسية لتلك البنية وإن لم تسد فيها. بقي القول أن الدين لا يزال هو المكون الأبرز لهذه الثقافة، وبغض النظر عن كونه ديناً شعبياً أم رسمياً. والمسألة هنا ليست الدين كنص مطلق، بل مجموع القيم المشتقة من تصورات دينية غيبية بغض النظر عن صحة مرجعيتها النصية أو عدمها. وهذه التصورات تحدد موقفاً من كافة مناحي الحياة: من المرأة، حرية الاختيار، دور العقل، تفسير الظواهر، الموقف من الآخر.... (الحيدري، 2003؛ شرابي، 1975؛ بركات، 2000).

نستنج أن تدمير بنية النشاط الزراعي في الريف لم يدمر بنية الثقافة الريفية، بل ظلت تلك هي المكون الرئيسي للثقافة لا في الريف فحسب بل وفي المدينة التي تريفنت.

3- استمرار التمييز ضد النساء

كان من نتاج الوضع أعلاه، إضافة لعوامل أخرى، بقاء التمييز الواضح ضد النساء في المجتمع الفلسطيني. ورغم أن المرأة حققت نمواً واضحاً في مكانتها الاجتماعية والسياسية في المجتمع إلا أن الإحصاءات لا زالت تشير إلى التمييز القائم ضدها في المجتمع، لذلك لا زال الشعار المعتمد عند كافة الاتجاهات المناصرة لحقوق المرأة هو المساواة مع الرجل. رغم الخلافات المثارة حوله. [21]

[21]- هناك جدل بين الأوساط النسوية على المستوى النظري حول صحة طرح شعار المساواة (Equality) أو ضرورة طرح شعار العدالة والإنصاف (Equity) .

فأخذاً بعين الاعتبار التعليم والعمل والمشاركة السياسية، كمؤشرات أولية فحسب، على مكانة المرأة الاجتماعية والسياسية، يمكننا ملاحظة التطورات التالية:

التعليم:

تضاعفت الزيادة في نسبة التحاق الإناث بالتعليم الأساسي والثانوي أكثر من مرة في العشرين سنة الماضية- حتى العام الدراسي 1997/1996- **و**بلغت نسبة الإناث في الجامعات الفلسطينية في العام الدراسي1997/1996 42.54% في جامعات والقطاع. (المرأة والرجل في فلسطين، 1998)

العمل: نسب مشاركة الإناث في قوة العمل في سنتي 1968و1995 كانت على النحو التالي: في غزة كانت نسبتهن 6.4% من قوة العمل بينما في الضفة كانت 8.6% في العام 1968 لتصبح في العام 1995 على النحو التالي: في غزة 7.6% وفي الضفة 12.8% (حمامي،1977: 11). أما دائرة الإحصاء المركزية فتسجل الأرقام التالية: نسبة النساء من قوة العمل في العام 1997 كانت 12.3% (المرأة والرجل، 1998). بقي الإشارة أن الإحصاءات الرسمية" بما فيها بيانات الإحصاء المركزي" لا تحتسب النساء العاملات في العمل غير الرسمي ضمن قوة العمل الأمر الذي يعني عدم الدقة في الأرقام المثبتة.

المشاركة السياسية: رغم كل النقاش الذي يثار حول أثر حركة المقاومة الفلسطينية على النساء الفلسطينيات[22]إلا أن كافة الكتابات تتفق على أن نشوء حركة المقاومة قد عنى انخراط قطاعات نسوية باتت تتسع يوميا في العمل السياسي المباشر، وتحديداً في الكفاح المسلح، وأن الأدوار الجديدة المرتبطة بهذا الانخراط فتحت الآفاق أمام النساء للعمل العام (أبو علي، 1974).

والخليلي يؤشر كنتيجة في خاتمة بحثه إلى أن" التأثيرات الإيجابية هذه- يعني المشاركة في الثورة أو مشاركة الرجل نفسه في الثورة- تنجم بشكل أساسي عما يتيحه التحاق الفتاة في الثورة من اختلاط أوسع بالمجتمع والجنس الآخر، مما يجعلها أكثر قدرة على اختيار شريك حياتها، إضافة إلى ما يتيحه هذا الالتحاق من اكتشاف لذاتها وواقعها، ما يجعلها أكثر ثقة بنفسها" (الخليلي، 1977: 207). أما جاد فتتفق تقريباً مع ذات المنحى: ترى لميزة مشاركة المرأة في العمل السياسي من باب حركة المقاومة ولكنها تلحظ التأثيرات المحدودة لذلك على الأدوار الجديدة للمرأة، فيما تشير صايغ أكثر للمناحي الثورية الجديدة في الوعي الشعبي نتيجة العمل الثوري الفلسطيني (صايغ، 1980؛ جاد، 2000).

واليوم رغم ما يمكن أن يثار من نقاش حول المؤشرات المعتمدة لقياس المشاركة السياسية، إلا أن هذه المؤشرات تبقى ذات دلالة. لقد سبق وأشرنا للمشاركة للفصائل الفلسطينية بين النساء. أما بعد أوسلو - ومع تأكيد ما سجلناه سابقاً من انهيار المنظمات النسائية الشعبية المرتبطة بالفصائل، وتحول العمل النسوي على العموم لعمل من خلال المنظمات غير الحكومية الممولة خارجياً- فكافة المؤشرات التي تساق حول مكانة المرأة في الهيئات السياسية الرسمية وغير الرسمية تشير لتدني مكانة المرأة بالنسبة للرجل، علماً أنها تؤشر

---

[22]- الأدبيات التالية ناقشت نقدياً هذا الأثر: الخليلي، 1977و أبوعلي، 1974و جاد 2000، والمرأة والرجل في فلسطين- اتجاهات وإحصاءات 1998.

في نفس الوقت لتنامي دورها في المؤسسات الرسمية قياساً بالمرحلة السابقة على أوسلو (المرأة والرجل في فلسطين، 1998: 168-172؛ هلال، 2002: 81-85).

ومع كل ذلك لا زالت الأدبيات النسوية والسوسيولوجية تسجل العديد من مناحي التمييز في العمل، التعليم، التوظيف، صنع القرار، البيئة القانونية، الأجور... الأمر الذي يؤشر إلى أن الشوط الذي قطعته النساء الفلسطينيات على طريق المساواة لا يزال بعيداً عن المساواة فعلاً مع الرجل (وضعية المرأة الفلسطينية، 2001؛ تحديات وخيارات المرأة الفلسطينية، د.ت؛ المرأة والرجل في فلسطين، 1998؛ المرأة والعدالة والقانون، 1995).

4- سيطرة العائلة الفلسطينية-إعادة إنتاج لعلاقات القوة والثقافة السائدة

والسلطة الأبوية لا زالت هي الطاغية في العائلة الفلسطينية كما هي في العائلة العربية، علماً أن الإحصاء يسجل تنامي العائلة النووية على حساب العائلة الممتدة فيما لم تتغير طبيعة السلطة تلك. ويعزو المراقب هذا التحول الذي يعتبره حاسماً(من الممتدة للنووية) إلى التحول من الإنتاج الزراعي إلى الأعمال التجارية والخدمية (شرابي: 1975؛ المراقب الاجتماعي: 2003، 12).

وهذه تطورات حاسمة أصابت بنية العائلة الفلسطينية منذ العام 1967 وحتى اليوم، ونعني به واقع أن 69% هي نسبة العائلة النووية مقابل 28% للعائلة الممتدة، وما يتركه هذا التراجع من تأثير العائلة الممتدة على مكانة المرأة خاصة والأبناء عامة لجهة تحررهم بعض الشيء من ثقل السلطة الأبوية في العائلة. وليس من الغريب بالتالي، أن هذا التراجع يترافق مع متغيرات أخرى: ارتفاع مستوى تعليم الفتيات، تزايد محدود في مساهمة المرأة في سوق العمل الرسمي، تزايد انخراط النساء في العمل الاجتماعي والسياسي... (المرأة والرجل في فلسطين، 1998).

ومع ذلك لم تتغير علاقات القوة داخل العائلة الفلسطينية، إذ بقي الرجل هو المهيمن في العلاقة ضمن آلية قديمة ومتجددة هي آلية السيطرة الأبوية. لقد حلل شرابي آليات هذه السيطرة مطولاً، وما يدعم ذات التحليل بتقديري هو عامل القوة الأساسية للرجل في الأسرة-أعني العامل الاقتصادي، معززاً بثقل التبرير الأيديولوجي للسيطرة الذكورية (تراكي في الباحثات، 2003-2004).

والأبوية كأداة تحليلية تنسحب على المجتمع ككل: الثقافة والاقتصاد والقيم والسياسة والمؤسسات..إنها "تشير إلى المجتمع التقليدي الذي يتخذ طابعاً مميزاً بالنسبة إلى البنية الاجتماعية الكلية- المجتمع والدولة والاقتصاد والثقافة-" (الحيدري، 2003، 310). وعليه تستخدم كأداة تحليلية للمجتمع ككل ولمكوناته المختلفة، والأهم المؤسسات منها، والعائلة من أهم تلك المؤسسات (بركات: 2000).

والعائلة هي بمثابة المعمل الأهم-إضافة لنظام التعليم- في إعادة إنتاج علاقات القوة القائمة على الأبوية والتسلط على النساء وقمعهن. فمنذ تنشئة الأطفال القائمة على الخضوع للكبير، والتمييز ضد الإناث حتى وهن في الأرحام، وتعميق التبعية للأب، وتهميش الفتيات وتحديد أدوارهن، مرورا بترسيخ نظام يكون فيه

الأب هو المالك للقرار، وصولاً لتحديد الخيارات للأبناء وعلى حساب الفتيات ولصالح الذكور.... إن التنشئة والحال هكذا، تسم ملامح هوية أفراد العائلة، كهوية تتحدد ملامحها أساساً بالاستناد لعلاقات السيطرة الأبوية...عبر كل ذلك تترسخ الأبوية وتتعمق وتعيد إنتاج نفسها جيلاً بعد جيل طالما أن البنية الاجتماعية التي أنشأتها لم يطالها التغيير الجذري(الحيدري، 2003؛ جقمان، 1998).

والمجتمع الفلسطيني والعائلة فيه ليسا خارج هذا السياق، إنما يجب أيضاً رؤية التأثيرات الثقافية التي تعصف بعائلته رغم أنها لم تتمكن من أن تغدو السائد بعد. فبتأثير العمل الوطني والاتجاهات الأيديولوجية المعاصرة والتفاعل الحضاري والتحولات الاجتماعية... والكثير من الأسباب الأخرى، بدأت ملامح ثقافية أخرى تغزو العائلة الفلسطينية. إن جيل ما بعد 1967 وتحديداً جيل ثورة العمل الوطني والصراع الأيديولوجي في الثمانينيات قد غزته المفاهيم العلمانية والوطنية واليسارية كبديلٍ للتربية التقليدية القائمة على التسليم والغيبيات والتمييز ضد المرأة، وهذه المفاهيم وإن تركزت في أوساط الشباب الأقرب للعمل الوطني(نساءً ورجالاً) ومن الأوساط البرجوازية الصغيرة(طلاب ومثقفين) وعمال نشطاء ونساء وجدن ضالتهن في العمل السياسي والاجتماعي، نقول، رغم ذلك فإن الريف أيضاً كان له حظه من هذا الغزو المحدود.

5- انعدام الاستقرار السياسي والاقتصادي- تشرذم المجتمع الفلسطيني

عانى المجتمع الفلسطيني طوال العقود السابقة من ظاهرة أساسية كنتاج للسيطرة الصهيونية أثرت على استقراره السياسي والاقتصادي، وتركت بالتالي تأثيرها على مكانة العائلة واستراتيجياتها على التكيف، نعني بذلك حالات القطع المتتالي لسياقات تطوره، غير الطبيعية أصلاً، ما أدخله في حالة شديدة من انعدام الاستقرار السياسي والاقتصادي، وبالتالي خلق حالة واسعة من التشرذم والتشتت. فبعد الخضوع للانتداب البريطاني وبدايات الغزو الصهيوني أُخضع المجتمع لعلاقات تبعية شاملة للإنتاج الرأسمالي البريطاني والعالمي. وفي عام 1948 جرى تدمير المجتمع من كافة النواحي وأُدخل بالتالي في منظومة متعددة من الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية (لوتسكي، 1980؛ سعد، 1985: 45-59؛ حوراني، 2003: 55-74؛ تماري، 1974: 19-21).

وفي العام 1967 جرى مرة أخرى إحداث القطع الحاد في سياق المجتمع، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، بعد علاقة 20 عاماً من الإلحاق الأردني والوقوع تحت الإدارة المصرية. لقد أخضع الاحتلال الإسرائيلي الضفة والقطاع إلى سلسلة من الإجراءات القسرية التي ألحقت الضرر بالبنية الاجتماعية الفلسطينية وكانت بهدف: تحقيق الإلحاق الكامل للاقتصاد الفلسطيني بالاقتصاد الإسرائيلي، وإعادة تشكيل الضفة العربية وقطاع غزة المحتلين كسوق احتياطي للأيدي العاملة للمشاريع الإسرائيلية وللاستهلاك منها (تماري، 1994: 24).

لقد ترك هذا الواقع سلسلة من التأثيرات أهمها: 1- تهميش متسارع للأنشطة الزراعية لصالح أنشطة غير زراعية شكلت المصدر الأساسي لدخل العائلة، أهمها العمل المأجور داخل الدولة العبرية، والذي امتص ثلث القوة العاملة في السبعينيات 2- التوجه للعمل الحر في قطاع الإنشاءات داخل الضفة والقطاع 3- الاعتماد

المتزايد على التحويلات المالية من الخارج. وكل ذلك غدا مصدراً رئيسياً لدخل العائلة، متعايشاً مع الزراعة الكفافية التي بقيت مصدراً للأمن الغذائي فحسب (المالكي وشلبي، 1993: 145-156).

ويسوق هلال بهذا الصدد جملة من التأثيرات الإضافية:

1- تراجع قوة العمل العاملة في الزراعة(51% عام 1945إلى 40% في العام 1960إلى 26% العام 1980 هبطت إلى 16% في العام 1997)، ولكن دون أن يقابله نمو في قوة العمل العاملة في فروع الصناعة في الضفة الغربية والقطاع (17% في الضفة و13% في غزة طوال فترة الاحتلال وحتى العام 1997). فالتحول في قوة العمل كان بالأساس للعمل في المشاريع الإسرائيلية لا المشاريع الفلسطينية التي حوصرت تماماً، وهذا التحول وإن دمر الريف كبنية للإنتاج الزراعي لم يحول بالمقابل المدينة لبنية الإنتاج الصناعي.

2- وكنتيجة للوضع أعلاه فقد تسارعت وتيرة الهجرة للخارج بعد العام 1967 وحتى أواخر الثمانينيات، والتي شملت تحديداً الفئات الشبابية(20 ألف مهاجر كمعدل سنوي) (هلال 1999: 27).

ونتيجة لذلك فقد تعزز التعليم والهجرة للخارج باعتباريهما الشكلين الأساسين للحراك الاجتماعي في الضفة والقطاع، وبالتالي نشأت العلاقة بين توقعات العائلة وبين ضرورة الاستثمار في تعليم الأبناء ومتطلبات سوق العمل(المالكي وشلبي، 1993: 46-61).

ونتج عن كل ذلك أن فقراء المدن في المخيمات كانوا الفئات الأكثر حرماناً، علماً أن قرب الريف من المدينة جغرافياً لم يعزز من هجرة الريف للمدينة، وبالتالي توسع المخيمات لأحياء مدينية فقيرة من المهاجرين واللاجئين، بل ظلت العمالة الريفية في المدينة عمالة مهاجرة لا مقيمة(Hiltermann 1991؛ تماري، 1994: 21).

وسلسلة الإجراءات الإسرائيلية ضد الانتفاضة في العام 1987 ساهمت هي الأخرى من حالة عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي للعائلة الفلسطينية. تحضر هنا الاعتقالات الواسعة، مصادرات الأراضي، هدم المنازل، وحظر التجوال، وأخيراً الإغلاق الشامل للضفة والقطاع. كل ذلك خلق معاناة إضافية نتيجة تراجع مصادر الدخل وتدني مستويات المعيشة.

أما بعد أوسلو، ورغم تحسن مؤشرات الحياة الاقتصادية لفترة محدودة(1994-1999)، إلا أن الاتفاقات الموقعة (أوسلو وباريس) والعلاقة غير المتكافئة لطرفي التوقيع، مكنت الاحتلال من خلق الشروط لمزيد من عدم الاستقرار والتشرذم: إغلاق سوق العمل الإسرائيلي لفترات طويلة، السيطرة الأمنية الواسعة للاحتلال، وبقاء الإلحاق الإسرائيلي للاقتصاد الفلسطيني، توسع مصادرات الأراضي وبناء المستوطنات، تقطيع التواصل الجغرافي بين أجزاء الضفة من جهة، وبينها وبين القطاع من جهة أخرى، الإجراءات التعطيلية للحياة اليومية(الحواجز، والتطويق، والشوارع الالتفافية..). كل ذلك عنى تشرذماً فوق تشرذم، وخلق ظروفاً صعبة جديدة أمام العائلة، تطلبت التكيف من جديد.

إن الاستعراض السابق يقود لتحديد جملة من الاستراتيجيات التكيفية التي لجأت لها العائلة الفلسطينية طوال فترة الاحتلال، وما بعد قيام السلطة الفلسطينية، ومكانة المرأة ضمن هذه السياسات:

1- كان التعليم والهجرة للخارج من أبرز سياسات التكيف منذ العام 1967 وحتى نهاية الثمانينيات. وبفعل تدمير الإنتاج الزراعي غدا العمل في المشاريع الإسرائيلية خياراً تكيفياً إجبارياً. هذا عنى ارتفاعاً في نسبة قوة العمل، وهذا يشمل النساء، أما الهجرة للخارج فقد عنت أعباءً إضافية على النساء، فزادت نسبة النساء التي ترأس أسراً هاجر رجالها. أما التوجه للعمل فقد رفع نسبة النساء من قوة العمل (2,5% من مجموع العاملين في إسرائيل) ، وانتشر في القرى المشاغل النسوية المحلية المتعاقدة من الباطن مع المشاريع الإسرائيلية، كخيار يجمع بين الحاجة لمصدر دخل وبين الرغبة في بقاء المرأة داخل إطار القرية (قطامش،1989: 102). علماً أن الرقم المذكور لا يحتسب النساء العاملات من خلال مشاريع الباطن.

2- في الانتفاضة لجأت العائلة لسلسة من الإجراءات لمواجهة تردي مستوى الدخل: تعزيز التضامن الاجتماعي، الاقتصاد المنزلي، التعاونيات المحلية، استصلاح الأراضي، اللجان الزراعية في الأحياء. لقد كانت مشاركة المرأة حاضرة بقوة في هذه الهياكل والأشكال التكيفية الأمر الذي عزز من دورها الإنتاجي والاجتماعي (شحادة وأبو صوي، 1990: 43-121).

3- أما إجراءات التكيف بعد أوسلو، وتحديداً في ضوء ممارسات الاحتلال ضد الانتفاضة الثانية، فيعددها المالكي وآخرون بالتالي، بعد وصفها بالتكيف المقاوم: "المبادرات الشعبية للمجتمعات المحلية والتي حاولت تعويض النقص في الخدمات المقدمة من المؤسسات الرسمية وغير الرسمية، الاستناد للمؤسسات المحلية القائمة، وبناء مؤسسات جديدة لتنظيم آليات التكيف المقاوم، تفعيل الثقافة التضامنية في المجتمعات لمحلية، تنويع مصادر الدعم الخارجي، وأخيراً التكافل الاجتماعي غير الرسمي (المالكي وآخرون، 2004: 167-233).

6- التحولات المهنية وتأثيراتها على البنية الاجتماعية

من استعراض ما سبق من جملة تحولات يمكننا إيجاز مجموعة التحولات المهنية وتأثيرها على البنية الاجتماعية بالتالي:

1- تحول أصاب شرائح واسعة من العاملين في الإنتاج الزراعي في الريف نتيجة تحولهم للعمل المأجور في المشاريع الإسرائيلية أو الحرفية المحلية. وهذا التحول كان بمثابة بلترة مشوهة، فالعمال الناشئون لم يقطعوا صلاتهم بالريف وينتقلون للسكن إلى المدينة لتتأسس ما بات يُعرف تاريخياً بالحواضر المدينية العمالية (مدن

الصفيح حسب بعض التعريفات)، بل استمروا بالسكن في الريف، فأضحت الأرياف مخزناً للعمل المأجور. وكان من نتيجة هذا، أن العمال الجدد حافظوا على صلاتهم الوثيقة بمؤسسة الريف الأهم (العائلة) وثقافته(الثقافة الريفية) وبنيته الإنتاجية (الاقتصاد الزراعي) والتي أضحت عاملاً ثانوياً في مصدر الدخل، وإن بقيت مع ذلك مصدراً للأمن الغذائي في الأزمات(كالانتفاضة الأولى مثلاً).

هذا التحول أصاب البنية الاجتماعية بتأثيرين:

الأول: عدم تحول المدينة لمدينة صناعية بالمفهوم الاجتماعي، بل خضوعها لريفنة ثقافية حملها العامل معه. وهذا يعني إعاقة التطور المديني، وفرض سيطرة ثقافة الريف على المدينة، الأمر الذي طبع العلاقات في المدينة ومؤسساتها- والتي من المفترض أنها مؤسسات مدينية عصرية(مؤسسات العمل السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي...)- بطابع العلاقات الريفية. إن بقاء العلاقات العائلية في المدينة مصحوب بالسيطرة البطريركية في العائلة، وهيمنة الرجل وسيطرته على المرأة، يعد أهم تأثيرات الريفنة على مجتمع المدينة، الأمر الذي يترك تأثيرات معيقة على المكانة الاجتماعية للمرأة ودورها في العمل السياسي والاجتماعي.

الثاني: التشوه الذي أصاب بنية الريف الاجتماعية. فالريف لم يحافظ على طابعه الريفي الزراعي، وهو أيضاً لم يتحول ليغدو مدينة. بعض القرى في الضفة والقطاع تزايد عدد سكانها ومستوى الخدمات فيها، وقد باتت من هذه الزاوية تصنف كمدن، لكن بقي الطابع الريفي هو الطاغي فيها، وفي المناحي ذاتها التي سادت المدينة(العلاقات العائلية، السيطرة البطريركية، هيمنة الرجل على المرأة).

إن هذا يعني، على الإجمال، تشوهاً أصاب البنية الاجتماعية الفلسطينية في الريف كما في المدينة، كنتيجة مباشرة لتدمير البنية الإنتاجية الزراعية والتحولات المهنية، بالتالي، للفلاحين.

2-وانتشار التعليم على قطاع واسع، كأبرز آليات التكيف لدى العائلة، رفد الفئات الوسطي بقطاعات جديدة من الفئات الوسطى(الموظفين، المهنيين، الأكاديميين...). ويقدم هلال رقماً للعاملين في قطاع الخدمات يتجاوز 32% في العام 1972 من مجموع قوة العمل الفلسطينية، ويعزو هذا إلى اهتمام إسرائيلي سياسي بتطوير مستوى معين لقطاع الخدمات خدمة للتصور الإسرائيلي لدور الضفة الغربية والقطاع، كوسيط بين إسرائيل والدول العربية(هلال، 1974: 267).

إن هذا الاتساع في حجم الفئات الوسطى سترك تأثيره على دور تلك الفئات في العمل السياسي الفلسطيني لاحقاً، حيث لوحظ تنامي هذا الدور كما مر معنا.

من ناحية ثانية، فإن ارتفاع مستوى التعليم، قد ترك تأثيره على تعليم الفتيات، فالاستثمار العائلي في التعليم أصاب لا الذكور فحسب، ولكن النساء أيضاً. ويمكن الافتراض أن ارتفاع مستوى تعليم الفتيات، مضافاً له هجرة الذكور، الشباب تحديداً، كشكل تكيفي آخر، كل ذلك عنى ارتفاع مكانة المرأة ودورها في القرار داخل الأسرة.

3- والهجرة، كاستراتيجية للتكيف بعد الاحتلال، كان لها تأثير مزدوج، فمن جهة أصبحت تحويلات الفلسطينيين العاملين في الخارج، كما مر معنا، مصدراً أساسياً للدخل، إضافة لعائدات العاملين في المشاريع الإسرائيلية. إننا إذن أمام بنية اجتماعية تعتمد على مصدرين غير مستقرين، فالأول عرضة للموقف السياسي الإسرائيلي، ومرتبط بتطورات الصراع(وهذا ما تأكد في الانتفاضتين الأولى والثانية)، والثاني يرتبط (كما ظهر لاحقاً في ما عُرف بأزمة العاملين في الكويت، وإلى حدٍ أقل بكثير بأزمة العاملين في ليبيا) بتطورات موقف الدول العربية من القضية الفلسطينية ومنظمة التحرير...وبالتالي فالمصدرين غير مضمونين، ما يعني بالضرورة هشاشة البنية من جهة، وعدم استقرار مصدر الدخل للأسرة من جهة ثانية، وبالتالي، السعي لاستراتيجيات تكيف من جهة ثالثة.

4- ونشوء السلطة الفلسطينية أحدث سلسلة من التحولات الاجتماعية التي أثرت هي الأخرى على البنية الاجتماعية. إن أهم هذه التحولات هي الزيادة الحادة في موظفي القطاع الحكومي الذي استوعب ليس فقط موظفي قطاعي التعليم والصحة....وغيريهما من عهد الاحتلال، بل والوافدين الجدد وقطاع واسع من نشطاء فتح في الوطن، الأمر الذي خلق جهازاً وظيفياً ضخماً كما مر معنا، بحيث باتت هذه النسبة المرتفعة من قوة العمل (17,6% وفي الضفة ضعف غزة في العام 1997) ارتفعت إلى 23% في العام 2003. لقد أضحى القطاع الحكومي هو المشغل الأكبر. إن تأثير ذلك على البنية الاجتماعية كان لجهتين: فمن ناحية برزت شريحة من كبار الموظفين الذين أصبحوا جزءاً من النخبة الحاكمة، ومن جهة ثانية عانى العاملون نتيجة شحة مصادر السلطة واعتمادها على الدعم المالي الخارجي أساساً، من تقطعات حادة في انتظام دفع الرواتب، ما عنى إشكاليات في استقرار مصدر دخل نسبة كبيرة من الموظفين، الأمر الذي يحيل مرة أخرى على استراتيجيات التكيف (هلال، 2002: 68؛ ماس- المراقب الاجتماعي، 2003: 58)

هذه كانت أبرز التحولات الاجتماعية وأثرها على البنية الاجتماعية، وبالتالي على أدوار القوى والفئات في المجتمع الفلسطيني.

سابعاً: الحركة النسوية الفلسطينية

ارتبط طابع الحركة النسوية الفلسطينية على مدار تاريخها بمتغيرين اثنين لم يتوازنا بتأثيريهما، الأول التطور في الصراع مع المشروع الكولونيالي الاستعماري في فلسطين عبر مراحله المختلفة، أي ما يمكن تسميته بالمتغير الوطني السياسي، والثاني التغيرات على البنية الاجتماعية، والتي أثرت بالتالي على مكانة المرأة وطابع حركتها، أي ما يمكننا تسميته بالمتغير الاجتماعي-الاقتصادي. ومن اللافت أن المتغير الأول كان يحدد باستمرار طابع الحركة النسوية وأشكال تنظيمها ومهماتها أكثر من – وأحياناً رغماً عن- المتغير الثاني، وهذا ما يمكن استنتاجه على الأقل من كتابات (جاد، 1995 و2000؛ كتاب 1996).

عبر الاستعراض التاريخي الذي يقدم لتطور حركة النساء الفلسطينيات من الباحثتين والباحثات فإن التغيرات الأبرز التي تركت تأثيرها كانت ثلاثاً حصراً: نشوء حركة المقاومة الفلسطينية، الانتفاضة عام 1987،

وتوقيع اتفاق أوسلو وما لحقه من تأثيرات إن كان لجهة مكانة القوى السياسية أو لجهة نشوء السلطة الفلسطينية. لذلك فدراستنا ستعتمد هذا التحقيب في دراسة طابع الحركة النسائية.

إن الحديث عن تأثير متغير ما لا يعني العزل التام لمتغير ثاني، بقدر ما يعني العامل الأكثر حسماً في لحظة معينة بين عومل حاسمة كثيرة. فأثر متغير الانتفاضة مثلاً ما كان ليمارس تأثيره القوى دون الاستناد لمتغير ارتفاع دور النساء في قطاع التعليم وزيادة أعدادهن في مؤسساته، وتلك كانت مواقع هامة لتنظيم النساء سياسياً واجتماعياً. ولذلك كانت جاد محقة في اعتبارها أن الانتفاضة أوجدت" تغييرات عميقة" على مشاركة النساء(جاد، 1995: 72 و2000: 35؛ مجموعة باحثين، 1990).

إن السمة الأبرز للحركة النسائية في تطورها في التاريخ الفلسطيني هو تحولها من حركة اجتماعية إغاثية، خدماتية، خيرية، إلى حركة سياسية وطنية مرتبطة بالنظام السياسي الفلسطيني وأهدافه الوطنية، وتعبيراته الأهم بعد العام1967(م.ت.ف. والفصائل). وقد كان لتطور الصراع كما قلنا العامل الأهم لهذا التحول. وتلك ظاهرة تتكرر في العالم الثالث إذ " كانت حركات الاستقلال الوطني هي التي ولدت القوة الدافعة لمشاركة النساء الفعالة خارج إطارهن التقليدي" كما تنقل كتاب عن روباثوم (كتاب، 1990: 386).

لذلك يمكن الاستنتاج مع جاد أن دور المرأة في المجتمع الخاضع للعلاقات الكولونيالية لا يمكن دراسته بمعزل عن تفاعلات الصراع داخل هذه العلاقات وتأثيراتها على دور ومكانة المرأة. وهذا يمكن فهمه لاعتبار أن التحرر من العلاقات الكولونيالية كان دائماً في تجارب الشعوب هو الهدف الأهم على المستوى الوطني. وتعتبر جاد أن معركة البلديات وما تبعها من تزايد نفوذ المنظمة قد طور من انخراط النساء في المقاومة السياسية (جاد، 1995: 72 و2000:12).

أما عن تأثير هذا الانخراط على مكانة المرأة الاجتماعية ومطالبها بتعديل علاقات القوة فتكاد تتفق الباحثات والباحثون أن طغيان المسألة الوطنية من جهة والتركيبة الذكورية للعمل الوطني أعاقت التحولات على هذه المكانة. ويذهب البعض (مثل هلترمان) لاعتبار أن المقاومة منحت الشرعية لحركة النساء ولكن دون أن تدخل في مواجهة مع البنية البطريركية. في الوقت الذي كانت القضية الوطنية عاملاً هاماً في النزوع النسوي نحو التحرر، إلا أنها حدت من تطورها نتيجة تفريغها من مضمونها النسوي الاجتماعي (جاد، 2000: 12؛ Hiltermann1990:215).

إن بناء حركة نسوية منظمة بعد العام 1967 كمرحلة قطع بالمعنى الجدلي مع الحركة النسوية السابقة القائمة على النشاط الإغاثي، إن ذلك، قد عنى تطورين في الممارسة، إن لم يكن في البرنامج. التطور الأول كان تعزيز مشاركة المرأة في النضال الوطني من خلال المقاومة المسلحة في الخارج والنضال الشعبي المتنوع في الداخل(الانتفاضة تحديداً). لقد تشكلت الحركة النسوية في الخارج كحركة مرتبطة بظاهرة الكفاح المسلح بكافة مهامه وتنويعاته والتي كانت النساء في الصلب منها. أما في الداخل فكانت الانتفاضة قد رسخت الحركة النسوية المتشكلة بعد الاحتلال، ووسعت من مهامها الوطنية والاجتماعية وجذرت من صلاتها مع قطاعات النساء الشعبية في المخيمان والأرياف. وفي نفس الوقت وإن كانت هذه المشاركة النسوية بحد ذاتها دلالة

على تعمق البعد الاجتماعي- الديموقراطي للنضال الفلسطيني، غير أنها أعادت صياغة المسألة الاجتماعية النسوية نتيجة طغيان الهم الوطني- كما سبق. وننوه سريعاً أن الدراسة وإن كانت لا تقلل من أهمية طرح المسألة الاجتماعية إلا أنها ترى للأهمية الساحقة لدور فصائل المقاومة، خارج الوطن وداخله، ولدور الكفاح المسلح والانتفاضة الشعبية في تفعيل الدور السياسي للمرأة- وهو بالتحليل النهائي دور اجتماعي، يفرض مكانتها كقوة اجتماعية(مجموعة باحثين:1990؛ الخليلي، 1977).

إن هذا الدور يمكن تلمسه في المرحلة الثالثة لتطور الحركة النسوية-نعني به مرحلة ما بعد أوسلو. فقد برز كنتاج للمرحلة السابقة صف قيادي نسوي تمرس في العمل السياسي عبر الأحزاب، وأضحى يمتلك وجهة نظر مستقلة من القضية النسوية، وبمعزل عن تلك الأحزاب. وبفعل خبرة هذا الصف السابقة قام بتأسيس العديد من المنظمات النسوية غير الحكومية، والتي وإن جسدت"استقلالية" النساء المنتميات والمستفيدات في منظماتهن عن الأحزاب، إلا أنها أيضاً جسدت الانفكاك بين النساء والحزب السياسي، فدخلت الحركة النسائية في أزمتها الخاصة بالتوازي مع أزمة الحزب، ما ترك علامة استفهام كبيرة على قدرة هؤلاء النساء ومنظماتهن على بناء حركة شعبية بمعزل عن الأحزاب السياسية، وعلى طابع الممارسة الاجتماعية لتلك المنظمات من حيث طغيان الاجتماعي على الوطني، كردة فعل على الطغيان السابق للوطني على النسوي. وبالتالي افتقدت للبعد النسوي الوطني، وتعمق هذا بانفكاكها عن الأحزاب باعتبار الحزب –نظرياً على الأقل- حامل المشروع الوطني السياسي بالمعنى الواسع (كتاب وعواد، 2003 :100-102)

وتتعزز هذه المظاهر نتيجة الاعتماد الكلي تقريباً في تمويل تلك المنظمات على التمويل الخارجي، الأمر الذي حدد أولويات الحركة النسوية بشكلٍ عام، لذلك فإن تراجعاً هاماً أصاب الحركة النسوية في هذه المرحلة الأخيرة، إن كان لجهة شعبيتها أو لجهة دورها السياسي والوطني (كتاب وعواد، مرجع سابق:102؛ هلال، 2002: 81-84).

وهنا لا بد من التأكيد أن دور المرأة لا يقاس- حسب اعتقاد الدراسة- بالحجم الكمي لوجود النساء في مواقع القرار السياسي والاجتماعي، بقدر ما يقاس بدورهن في النضال ضد الاحتلال، أخذاً بتجربة المقاومة المسلحة في الخارج والانتفاضة الشعبية في الداخل، وتأثيرات ذلك، والذي أشارت له الدراسات، وأيضاً في قدرتهن على طرح مطالبهن الديموقراطية والاجتماعية ذات الطابع التحرري على صناع القرار، عبر تشكيل حركة ضاغطة، بغض النظر عن الانتماء الجنسي لهذا الصانع، امرأة كان أم رجلاً. فالأهم بالنهاية التوجه الفكري والاجتماعي الداعم لقضية المرأة في موقع صنع القرار، لا حجم النساء-كنساء- المتواجدات في هذا الموقع.[23]

[23]- تميل المنظمات غير الحكومية إلى هذا المقياس إجمالاً. انظر على سبيل المثال ما ذهبت إليه سريدا عبد الحسين(مركز الإرشاد، 2001). وعبد الحسين لا تعالج موقف المرأة بقدر ما تعالج كم النساء في موقع القرار، الأمر الذي يبدو بتصورنا شكليٌ للغاية. وفي ذات الاتجاه عالجت إصدارات مركز الإحصاء المشاركة السياسية للنساء مثلاً. أما هلال فيبدو أكثر علمية إذ يدمج بين تحليل الإحصاء الكمي لعدد النساء في مؤسسات القرار مع تحليله لنضال النساء المرتبط بالحقل السياسي ككل.

القسم الثالث

المرأة الفلسطينية بعد العام 1967: المقاومة وحلم العودة

الفصل الأول

اكتشاف امرأة: "خيمة عن خيمة تفرق"

"خيمة عن خيمة تفرق"، استنتاج هو للصيحة أقرب، أعلنته **أم سعد**[24] في رواية كنفاني التي تحمل ذات الاسم، وكانت تعلن بها رغبتها بالانتقال إلى العيش في خيمة المقاتلين بدلاً من خيمة المخيم.. ويحول هذا الاستنتاج، دون عوائق كثيرة، إلى جملة من الدلالات الاجتماعية؛ انتقال المخيم وساكنيه من بؤس وإذلال الإعاشة، من موقع الضحية التي تبكي مرارة اللجوء منذ عشرين سنة وضياع الوطن بالكامل، إلى مخيم يعلن رفضه وثورته، فتتحول الضحية- الشعب(المخيم بالأساس) إلى متمرد. والتحول قابلته حمل السلاح الذي يفعل حسب تعبير جان بول سارتر فعلاً مزدوجاً: يقتل العدو ويقتل صورته في الذات المضطهَدة، كصورة متفوق. (سارتر في دراج، 1996: 139).

أولاً: السياق الداخلي للرواية

تظهر أم سعد بعد الهزيمة مباشرة (1967) فيما الراوي المثقف يعيشها، فينطوي على نفسه (كما تُطوى الرايات)(245)، بائس، محبط، يتابع- ولنقل يتفرج على- هزيمته وهزيمة شعبه عبر الراديو. ولكنه ينتظر أم سعد (ليتعلم منها)(245) عبر محاورات بينه وبينها على مدى 9 لوحات لم يرَ فيها (اليوسف، 1985) ما تشكل معاً بنية روائية واحدة.(سنظهر لاحقاً ما من تداخل بنيوي بين تلك اللوحات على عكس ما ذهب إليه اليوسف). فتنساب الرواية(تعلم الراوي) في زمن قصير نسبياً، يعبر عنه باقتحام أم سعد عليه وحدته وبيدها عرق الدالية اليابس لتزرعه، وصولاً إلى اخضرار عرق الدالية اليابس مع " توليعة" المخيم بالمقاتلين والتدريبات ورحيل الأفندي ممثل سلطة الدولة "المضيفة" (لبنان).

وتبشر أم سعد الراوي، الذي يعلق على زراعة عرق الدالية (أهذا وقته يا أم سعد؟) بالقول: (قد لا تعرف شيئاً عن الدالية، ولكنها شجرة عطاءة لا تحتاج إلى الكثير من الماء. الماء الكثير يفسدها..تقول كيف؟ أنا أقول لك. إنها تأخذ ماءَها من رطوبة التراب ورطوبة الهواء، ثم تعطي دون حساب) (249).....فالعرق

---

[24]- يمكن الافتراض – كما سجل (كيوان، 2003) أن كنفاني تعمد استخدام أسماء ذات دلالة سياسية وفكرية، فسعد مقاتل وسعيد متدرب، والاسمان يحيلان على التفاؤل والحظ السعيد باعتبار المقاومة هكذا.

اليابس الذي زُرع غداة الهزيمة يخضر عندما "يولع المخيم": يعج بالمقاتلين المتدربين من جهة ويطرد الأفندي من جهة أخرى. إنه يخضر بالضبط عندما يشهد أبو سعد وأم سعد تدرب المقاتلين، وتحديداً "سعيد" الصغير، في إشارة لا تخفى على أن التفتح ارتبط بحمل السلاح.[25]

بين هذين الزمنين- زمن العرق اليابس وزمن العرق المخضر- تتحرك لا أحداث الرواية، بل وتداعيات التاريخ الذي تسترجعه أم سعد في ترابط بين اللوحات التسعة جميعها. ينقل المختار لسعد ورفاقه تهديدات السلطة بأن يكونوا أوادم، أي لا يفكروا بالقتال، ثم يعتقل سعيد. وبعد خروجه يلتحق بالعمل الفدائي في الأغوار، وينفذ عملية داخل الوطن، ويضع حداً لسلطة المختار. تعبر أم سعد عن هذا التحول بقولها للراوي (قلت له- تقصد المختار- أن سعد قلبه أبيض، وإنه حين قال له أبني فهو لم يقصد إهانته، **كل ما قصده أن الدور الآن دوره**...) فرد الراوي عليها(يا أم سعد، أردت تكحليها عميتيها!) فترد أم سعد رداً لافتاً (أنا؟ أنا قصدت ذلك قصداً..)(245)

حضور المختار يستدعي لدى أم سعد حضور عبد المولى من جهة وفضل من جهة أخرى من التاريخ الفلسطيني قبل النكبة، في ترابط بين لوحتين- مرحلتين لم يتسنَ لليوسف(1985) أن يلتقطه. والاثنان نموذجان متقابلان: عبد المولى يتزعم حمولته، يشغل الفلاحين ولا يشارك في ثورة 1936، بينما فضل حمل السلاح وطلع للجبل، وعندما انتهت الثورة عاد (**نزل من التلال حافي القدمين كما صعد إليها وكما عاش فيها)**(307)، ليجد عبد المولى يتصدر قيادة الجماهير ويظل هو منزوياً. فيما بعد صار عبد المولى يتعاون مع الإسرائيليين وعضواً في الكنيست الإسرائيلي، أما فضل فاختلفت الروايات عنه: أمات مسلولاً من العمل في المعصرة، أو قتل في حرب 1948، أم عاد بعد النكبة لوطنه متسللاً فقتل، وكلها حالات تتفق ومصير فلسطيني كادح قبل العام 1948 عانى الضياع بعد النكبة. وتتحسر أم سعد (**آه يا بن العم! لو يومها قام فضل عن العتبة وطخ عبد المولى، أما كانت هذه المشكلة قد انتهت؟)** (309). والمشكلة- حسب ما تراها أم سعد- أن أهل ليث، المقاتل وصديق سعد الذي أُسر في المعركة، قد يتوجهون لعبد المولى ليتوسط لدى الإسرائيليين لإطلاق سراح ابنهم. وسعد يطلب من أمه أن تذهب لأهل ليث وتقول لهم بان لا يفعلون ذلك، لأن هذا لا يرضي ليث. والمشكلة تتمثل في وعي أم سعد بالتالي: لو (طخ) فضل عبد المولى حينه، لما ركب عبد المولى على ظهر فضل**(في المعصرة وفي الجبل، ثم في المعصرة)(310)** وغدا زعيماً، والآن هي لا تريد لعبد المولى الستينيات أن يركب على ظهر ليث، فتتكرر المأساة القديمة.

واسترجاعات الراوي تقودنا للتعرف عل عشرين سنة من البؤس الطبقي عاشتها أم سعد وهي عاملة تنظيفات في بنايات (الخواجات) الأثرياء البيروتيين، وهناك تلتقي بعاملة لبنانية من الجنوب وبناطور إحدى البنايات(الذي يخدم الخواجات) يعانيان الكدح مثلها، فتكتشف بالتجربة أن الخواجات (يريدون ضربنا ببعضنا، نحن

---

[25]- يبدو جمال بنورة منحازاً في نقده عندما لم يُظهر المعنى الكامن والبِّين في اخضرار العرق(انطلاق المقاومة المسلحة)، بل فهم من ذلك (رمزاً لقدرة الجماهير على تجاوز الهزيمة والنهوض من جديد..كإشارة عمومية لا تقول شيئاً محدداً. (بنورة، 1987: 36)

المشحرين، كي يربحوا ليرتين)(319) فتتمنى **(لو أنا والناطور والحرمة فلنا للخواجا...)(319)** ولا تكمل جملتها- أمنيتها عن وحدة العمال في وجه الخواجات.

وصورة المخيم تتغير كثيراً بين زمني عرق الدالية. البنادق تنتشر في المخيم، وأم سعد تستبدل الحجاب الذي تعلقه منذ عشرين سنة على رقبتها برصاصة جاءتها من سعد، وتواجه بهذا الحجاب الجديد الأفندي الذي اقتحم بيتها للسؤال عن سعد، وسعيد الأخ الأصغر يلتحق بالتدريب ليلتحق بالعمل الفدائي.

ثانياً: بنية داخلية فنية- بنية تاريخية اجتماعية موازية

ومن السياق يتضح لنا -على عكس ما ذهب اليوسف- ما للبنية الروائية الداخلية من تماسك داخلي يركز عليه المنهج البنيوي التكويني، في محاور عدة: محور التغيرات على مدى عشرين سنة نقلت أم سعد من لاجئة تعيش على كرت الإعاشة إلى مبشرة بالثورة. محور التحول في وعي أم سعد من الوعي التقليدي- الغيبي إلى الوعي الثوري، وأخيراً المحور السياسي- الطبقي الذي يربط بين التوازنات الطبقية قبل العام 1948 والتبدلات عليها بعد العام 1967 من خلال الشخصيات المتقابلة في الأدوار(عبد المولى/ المختار..وفضل/ سعيد). والمحاور الثلاث مرتبطة ببعضها البعض: عبر السياق التاريخي لتجربة أم سعد أدركت حقيقة الأدوار الطبقية- السياسية فتشكل لديها وعي ثوري، في تفاعل جدلي بين التجربة والوعي والذي أفرز تجليات الشخصية الرئيسة للرواية. لذلك كله لا نتفق مع ما ذهب إليه اليوسف من أن أم سعد لا " تبدأ من نقطة وتطور تطوراً ضرورياً وحتمياً لتبلغ نهاية تختلف كلياً مع نقطة البداية"(اليوسف، 1985:42) وإلا لافترضنا ما هو غير منطقي من وجهة نظري التحليل التاريخي، ومن وجهة نظر ما جرى: أن انطلاق المقاومة لم يكن حتمياً! فانطلاقتها تفترض حتميتها، عملاً بالقول الهيغلي المأثور: ما هو تاريخي واقعي. وتتفق ما ذهبت إليه الدراسة، وإن من زاوية أخرى، مع ما ذهبت إلية (عبد الهادي) من أن الرواية تتحول من " مجموعة لوحات فنية إلى عمل فني متكامل"(عبد الهادي، 1977: 92) عازية ذلك إلى الرمز الفني الأبرز المتمثل في زراعة عرق الدالية واخضراره.

ثالثاً: توازي البنيتين الفنية والاجتماعية- نخب جديدة وأدوار جديدة

دون تعقيد كبير يمكن ملاحظة التلاقي في مسار البنيتين، البنية الداخلية للنص، والبنية الخارجية-الواقع الاجتماعي، كما عرجنا عليه أعلاه، ويمكن رسم جدول التقابل/ التداخل بين البنيتين، الداخلية الروائية، والخارجية الاجتماعية- السياسية كالتالي، وحسب تتابع تاريخي/ مرحلي تقترحه الدراسة:[26]

[26]- إن التقابل بين البنيتين لا يعني بأية حال إلى الانفصال بينهما، على العكس إن العلاقة متشابكة ومتداخلة جدلياً (وتلك قضية يوضحها التحليل الجمالي المسهب للعمل الروائي والذي ليست دراستنا بصدده)، وما التقابل الذي يشي بالانفصال سوى ضرورة من ضرورات البحث لا أكثر.

البنية الداخلية الروائية	البنية الاجتماعية-السياسية
تزعم "عبد المولى" للنضال في ثورة 1936، وإقصاء الفلاح/العامل "فضل".	قيادة العائلات الأرستقراطية- التقليدية ذات البنية الإقطاعية/ شبه الرأسمالية للنضال.
عدم قيام "فضل" بقتل عبد المولى".	عدم تمكن الفئات الشعبية(الفلاحين والعمال) من تسلم القيادة وعزل القيادة التقليدية في ثور1936.
تضارب الأخبار حول مصير "فضل"(ضياعه بمعنى ما).	حالة التشرد وفقدان الأمل والضياع السياسي الذي عاشه الشعب الفلسطيني بعد نكبة 1948.
عدم تحقيق حجاب الشيخ لما تطلعت له أم سعد (فلسطين والقضاء على الفقر). الركون لما هو خارج الإرادة للخلاص من البؤس.	عدم تقديم الثقافة التقليدية الغيبية أية حلول لمشكلات الشعب قبل انطلاق الثورة/ عدم امتلاك الجماهير لقرارها، وانتظار معجزة تخرجها من بؤسها.
أم سعد فلاحة تتحول لعاملة، وكذا تحول فضل الفلاح لعامل معصرة.	تبلتر الطبقة الفلاحية الفلسطينية في فلسطين نتيجة الانتداب والاقتلاع، وتبلترها بعد النكبة نتيجة الاقتلاع والتهجير.
انخراط "سعد وسعيد"، وهما من عائلة عمالية لاجئة ذات أصول فلاحية، بالعمل المسلح.	انطلاق المقاومة المسلحة من المخيم ذي التركيبة الطبقية العمالية ذات الأصول الفلاحية.
وضع "سعيد" حداً لدور المختار.	تسلم الفئات الشعبية اللاجئة لقيادة النضال مستبدلة الدور القيادي للقيادة التقليدية اللاجئة.

كان ظهور حركة المقاومة هو الحدث الأبرز الذي تزامن مع نجاح المشروع الصهيوني الكولونيالي باستكمال احتلال فلسطين في العام 1967. ورواية أم سعد تبدو كما لو كانت **ترصد** هذا الظهور **وتؤرخ** لمفاعيله وتأثيراته، **وتعكس** العلاقات الاجتماعية الجديدة التي أفرزها، كما أدوار القوى وتوزعاتها على ساحة الفعلين، السياسي والاجتماعي.

أم سعد التي ما تدخل غرفة الراوي حتى تفوح(في الغرفة رائحة الريف) (246) هي الطبقة الفلاحية التي أُقتلعت من فلسطين في العام 1948، وهي ذاتها الطبقة، بعد أن أصبحت لاجئة مقتلعة من أرضها وعديمة الملكية تحولت للعمل في الشتات في أعمال سوداء وخدماتية، هي ذاتها الطبقة التي حملت السلاح في العام 1965 معلنة الثورة المسلحة. والتحولات الاجتماعية الكبيرة التي طالت هذه الطبقة ظاهرة في حياة أم سعد: تنتقل بعد اللجوء للعمل كعاملة تنظيفات في إحدى بنايات العاصمة بيروت فتعاني البؤس الطبقي فوق البؤس الوطني المتمثل باللجوء "وكرت الإعاشة". وتحول الفلاحين الفلسطينيين، نتيجة التهجير القسري والحرمان

بالتالي من ملكية الأرض، أنتج ظاهرة البلترة التي باتت معروفة في التاريخ الاجتماعي الفلسطيني، وعرجنا على طبيعتها وخصوصيتها في القسم الثاني(صايغ، مرجع سابق: د.ت).

ومسار أم سعد من اللجوء للثورة هو ذاته مسار الشعب بما في ذلك التحولات الاجتماعية التي عصفت بالواقع الفلسطيني الاجتماعي(مواقع القوى وأدوارها). فحركة الأحداث والشخوص في الرواية تسير متوازية مع حركة الواقع، كما ظهر في مقابلتنا أعلاه للبنيتين الداخلية والخارجية.

والمقاومة إذ انطلقت فإنها أزاحت جانباً نخباً وفئات اجتماعية سابقة: ممثلي العائلات والسلطة الاجتماعية التقليدية بممثلها في الرواية بالمختار. والحوار الذي يدور بين المختار وسعد له دلالاته، وتتدخل أم سعد فيه تضيف له دلالة إضافية: فالمختار- الذي لا زال ينظر لنفسه مختاراً كما كان قبل الثورة، وتصر "الدولة المضيفة" على تثبيت منصبه هذا- يريد من (الشباب) أن يوقعوا تعهداً- نفهم أنه لأمن" الدولة المضيفة"- على أن يكونوا أوادم!. وأوادم حسب الشباب الساخرين تعني (يعني قاعدين عاقلين- يعني ناكل كف ونقول شكراً)(245). أما حسب صراحة سعد (**أوادم يعني بنحارب. هيك يعني هيك**)(254). وذو دلالة أن يقول الشباب للمختار (راحت عليك) فالأدوار الاجتماعية تغيرت وهذا ما يبدو أن المختار لا يريد التسليم به! فزمن الثورة ليس هو زمن ما قبل الثورة- زمن الضحية البكّائة لا المتمردة. أما عندما احتج المختار على سعد لأمه بأن ابنها يقول له يا أبني وكأنه ولد، فتشرح أم سعد للمختار **(كل ما قصده أن الدور الآن دوره..)** (فرسون، 2003؛ الشريف، 1995)

استبدلت النخبة الجديدة، أبناء الفلاحين المعدمين في المخيم وقد تحولوا لعمال، سعد ورفاقه، المختار وسلطته التقليدية والفئات التي يمثلها، فغدت السلطة للفئات الشعبية الجديدة. استبدلت أبوة المختار بأبوة المقاتلين، والأبوة هنا دلالة السلطة الذكورية في المجتمع تحيل على السلطة السياسية- النظام السياسي الجديد الذي تربع على رأسه المقاتلون- حركة المقاومة.

وأم سعد شاهدة على الأدوار الاجتماعية والسياسية ما قبل نكبة العام 1948 من خلال نموذجي عبد المولى وفضل. فالقيادة التقليدية، المستندة للأصول العائلية الأرستقراطية والبنية الاجتماعية الإقطاعية شبه الرأسمالية، لم تناضل، بل تمكنت من قيادة الثورة لأن الفئات الشعبية لم تضع لها حداً (**آه يا بن العم! لو يومها قام فضل عن العتبة وطخ عبد المولى، أما كانت هذه المشكلة قد انتهت؟)(309).**[27] وأم سعد بحسها السياسي لا تريد لذلك أن يتكرر من خلال النموذجين ما بعد المقاومة(ليث وعبد المولى). ومآل تلك التوازنات كان كالتالي: يُسحق فضل طبقياً ووطنياً ويتجرع كأس النكبة المر كما جرى مع الفلاحين الفلسطينيين (يستشهد إما طبقياً أو وطنياً فسيان هنا)، فيما عبد المولى "يدبر أموره" فينخرط في مؤسسة الدولة الغازية فيغدو عضواً في الكنيست، كما سجل التاريخ السياسي الفلسطيني حول سلوك من تبقى من بقايا قيادات تقليدية في منطقة 1948.

---

[27]- لمزيد من التحليل حول واقع التوازنات الطبقية في ثورة 1936 في فلسطين يمكن مراجعة دراسة كنفاني نفسه(كنفاني، د.ت) وكانت دراسته تلك من الدراسات الأولى التي اعتمدت تحليلاً سوسيولوجياً لأدوار الفئات الاجتماعية في الثورة. ونحن هنا نستخدم ذات التوصيفة التي استخدمها للبنية الاجتماعية: البنية الاجتماعية الاقطاعية شبه الرأسمالية.

إن في المقاربة بين التوازنات ما قبل النكبة وما بعد المقاومة، والتي تشهد عليها أم سعد **بتجربتها،** ما يحيل إلى تحليل كل المتغيرات الاجتماعية في التاريخ الفلسطيني الحديث حتى انطلاق حركة المقاومة. فالقيادات العائلية الأرستقراطية (وجناحها المهيمن آنذاك الحسيني) لم تستطع الحؤول دون ضياع الوطن، فيما الفلاحون والعمال الذين ناضلوا لم يستطيعوا تسلم القيادة. بعد العام 1948 تحول الفلاحون لطبقة لاجئة معدمة، فيما القيادات اللاجئة طواها النسيان[28] وآخر تعبير عن مكانتها كان بتعيين الشقيري رئيساً لمنظمة التحرير المشكلة سنة 1964، ولكن سرعان ما أطاحت به الفصائل المقاومة سنة 1968 بعد انطلاق حركة المقاومة. أما من تبقى منها في الوطن فاختار الاندراج في مؤسسات الدولة الصهيونية.[29] (صايغ، 2002؛ فرسون، 2003)

رابعاً: المخيم- بؤرة العوامل المتفجرة، وأم سعد نقطة تمركزها

والحيز المكاني الذي تدور فيه الأحداث(المخيم) يختزن بعدين أساسيين، الأول البعد الطبقي- السياسي والمتمثل بصعود الشرائح الشعبية الجديدة وتسلمها لقيادة النظام السياسي الجديد- حركة المقاومة ممثلة بسعد ورفاقه، أما البعد الثاني فهو البعد الاجتماعي المتمثل بهذه المكانة التي تحتلها أم سعد-كامرأة.

والمخيم تركيب استثنائي لواقع استثنائي- شعب بأكمله يرحل من وطنه في العام 1948.[30] بؤرة تتجمع فيها كل عوامل التمرد والثورة: العوامل الطبقية، إذ تحول الفلاحون لعمال بأعمال موسمية، والعوامل الوطنية المتمثلة بالاقتلاع من الوطن والامتهان في الحياة اليومية، والعوامل الاجتماعية التي كان تعبيرها الأبرز" كرت الإعاشة"...لكل ذلك ليس من الصدفة التاريخية بمكان أن يكون المخيم، كما وصف كثيراً في الأدب السياسي الفلسطيني، رحماً للثورة. وأم سعد حسبما رسمها كنفاني، تغدو "نقطة تتمركز" فيها كل العوامل المتفجرة السابقة الذكر، وهذا على ما يبدو كان السبب لأن يرسم كنفاني شخصيتها، كشخصية روائية أولى، بطريقة أضعفت ولا شك البعد الجمالي فيها، يضع فيها كل ما يختزنه المخيم. فهي تعلم الراوي كما يقول كنفاني في مقدمة روايته، في إشارة للعلاقة بين الجماهير والمثقفين، وهي تحض على القتال وتبشر به، وهي تلتقط ضرورة التحالفات الطبقية بين الكادحين اللبنانيين والفلسطينيين(وتبدو الأيديولوجيا هنا بارزة بحدة لدى كنفاني) وتعيد تقييم التاريخ الفلسطيني بإعادة تقييم أدوار الفئات الاجتماعية قديماً وحديثاً، وهي أخيراً تستبدل الوعي الزائف، الثقافة السائدة المتمثلة بالحجاب، بوعي ثوري يتمثل بالرصاصة. إن صورة أم سعد لا يمكن وصفها والحال هذا بالبساطة والمثالية، كما ذهب بنورة (بنورة، 1987: 36) في تحليله السريع للرواية.

خامساً: مثالية شخصية المرأة والأيديولوجيا

---

[28]- توفي الحاج أمين الحسيني سنة 1964 في القاهرة دون أن تشكل وفاته حدثاً مؤثراً.

[29]- للوقوف على مآل الأدوار الاجتماعية-السياسية للفئات الاجتماعية الفلسطينية داخل الدولة الصهيونية بعد العام 1948 يمكن مراجعة (صباغ، 1999 ؛ زريق،1997) وهو ما عرجنا عليه في القسم الثاني.

[30]- كافة الإحصاءات تشير إلى تهجير حوالي 900 ألف فلسطيني من مليون و300 ألف مجموع سكان فلسطين آنذاك.

ولكن هذه "المثالية" لا يمكن إلا أن تتوقف الدراسة عندها لأنها مرتبطة أصلاً بعلاقة الروائي بإبداعه وصدقه الفني. من ناحية منطقية فالحياة لا تعرف الشخصية المثالية، بل إن تناقضات الواقع المعاش التي تفعل فعلها في تشكيل الشخصية، أية شخصية، إنما تعيد تشكيلها عل صورتها المتناقضة. فكيف يمكن والحال هذا فهم هذه الشخصية "المثالية" التي رسمها كنفاني؟ هل جانب الصدق الفني وقدم لنا رواية للدعاية السياسية، فكانت روايته محض تحوير طفيف لخطابه السياسي؟ أم إن ما نراه "مثالية" لا يغدو كونه السطح الذي يخفي التناقضات؟ أم يمكن حل ذلك عبر التفكير بآلية جديدة لعلاقة الروائي مع شخصياته؟

بداية لا بد من الإشارة إلى أن كنفاني ومن واقع انتمائه السياسي- الحزبي لا يخفي تحزبه إن كان بمعناه "الضيق" أو بمعناه الشامل.[31] فهو في مقدمة روايته يعتبرها(معلماً) بل ويهدي روايته أصلاً لأم سعد (الشعب المدرسة).

فكنفاني إنما كتب ما يكتب ليقول للمثقفين وهو منهم: علينا أن نتعلم من الجماهير. ولا يخفى هنا ما لهذا من أهمية في إعادة صياغة العلاقة بين المثقف والجماهير: فليس المثقف بمعلم بل "تلميذ" في مدرسة الجماهير، وفي هذا نقض لكل العلاقة التاريخية، البيروقراطية المدرسية، التي وضعت المثقف فوق، يمتلك ناصية المعرفة الرسمية، المتعالية، والجماهير تغفر فاها معجبة بما يلقنها إياه المثقف. والأهم أن في هذه العلاقة بين الروائي وإبداعه نقض لكل سلطة ما عدا سلطة الجماهير، لا الحزب ولا الدولة ولا النظام، بل الجماهير فحسب (دراج، 1996).

ولكن هذا المعلم الجديد ليس مثالياً تماماً كما قد نتخيل. إنه مثاليٌ إذا عزلنا السمات الأساسية لشخصية أم سعد عن التحولات الجارية من حولها فحسب، إذا أخذنا سماتها المثالية بإطلاقية. فبمعزل عن التحولات هي ثورية، مضحية، واعية للمسألتين الوطنية والطبقية، تستبدل الثقافة السائدة بثقافة ثورية.... أي هي بالمطلق شخصية مثالية. ولكن إن وضعنا هذه السمات في سياق التحولات تبدو أمامنا عملية التحول داخل الشخصية وقد اصطبغت بالتناقضات التي ما أن تنحل حتى تبرز تناقضات غيرها، والتحول دائماً مرتبط بالتناقض. وفي لحظة محددة (1967) حلت تناقضات فظهرت سمات مثالية، ولكن منطق الحياة، وتطور الأحداث، ينبئنا أن العملية ستتواصل: تناقضات جديدة تحل وهكذا....وبالمحصلة فمثاليتها لا تهبط جاهزة في النص بل تتشكل عبر التحولات وتناقضاتها.

فأم سعد ما وصلت لوعيها بالمسألة الطبقية إلا عبر التحولات في تجربتين: تجربة التوازنات الطبقية قبل النكبة في العام 1948"عبد المولى وفضل"(وهي أيضاً، كتجربة، عمقت البعد الوطني في وعيها) والتجربة الثانية لجوئها وتحولها لعاملة عند الخواجات اللبنانيين، واكتشافها لوحدة حالها مع العمال اللبنانيين من الجنوب. إنها تتوصل لوعيها "بحس سليم" صاغه، على حد تعبير دراج، " تعب السنين: تعب أنتج معرفة مدارها الوطن المفقود، والبيت الغائب والرغيف الهارب والراحة المحرمة" (دراج، مرجع سابق: 128)،

---

[31]- ما نعنيه بالانتماء الحزبي" الضيق" هو انتماء الكاتب لحزب سياسي يعمل من خلاله، أما الانتماء الحزبي بالمعنى الشامل فهو التحزب لرؤية، لموقف، لايدولوجيا معينة. وحسب المعنى الأخير، وأخذاً بمقولة لوسيان غولدمان (الرؤية الكونية)، فليس من مبدع غير متحزبٍ.

فوصلت لوعيها الطبقي عبر ما جرى من تناقض بين عبد المولى وفضل سابقاً، وما يعتمل من تناقض في المخيم بين المختار والأفندي من جهة وسعد ورفاقه من جهة أخرى.

أما في حقل الثقافة السائدة فمن المفيد سماع صوت أم سعد وما تقوله عن حجابها قبل النكبة الذي أطاحت به، وعلقت مكانه رصاصة سعد: (صنعه لي شيخ عتيق منذ كنا في فلسطين، وذات يوم قلت لنفسي: ذلك رجل دجال بل شك. **حجاب؟ إنني أعلقه منذ كان عمري عشر سنين، ظللنا فقراء، وظللنا نهترىء بالشغل، تشردنا، وعشنا هنا عشرين سنة.** حجاب؟ هناك أناس ينتفعون بالضحك على لحى الناس! **ذلك الصباح قلت لنفسي: إذا مع الحجاب هيك، فكيف بدونه؟ أيمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ**؟ ثم قلت لنفسي: هذا سعد...أنت تعرف، لماذا تريدني ن أحكي لك كل شيء؟)(326)

أم سعد تبدو في قولها هذا لا تحتاج لكثير نظريات حول الثقافة الغيبية، يكفيها تجربتها البسيطة، ولكن العميقة: لم يغير الحجاب شيء، إذن هو لا ينفع! فما فائدة الثقافة بالنهاية إن لم تحل مشكلاتها؟ الحجاب لم ينفع، وبالمقابل(هذا سعد...) ولم تكمل جملتها، فالراوي يعرف: سعد يقاتل وذلك أمل بالتغيير، فالرصاصة بما تمثله من وعي أفضل من الحجاب. فالوعي بالثورة لم يسقط كتفاحة نيوتن، بل استغرق عشرات السنين ليتشكل، بما فيها من كوارث طبقية ووطنية. وهو وعي تشكل في خضم الصراع بين ثقافتين، التقليدية الغيبية والثورية وكان محورياً في الرواية.[32]

لذلك فما يبدو من صورة مثالية لشخصية أم سعد كان بالواقع سمات هي نتاج مخاض عسير من التحولات والتناقضات. ولذلك يمكن التنبوء أن هكذا مسار سيستمر بتشكيل مكونات الشخصية، وإعادة رسمها عند كل تجربة، وما يشفع بهذا التنبوء حقيقة أن أم سعد متفاعلة مع تجربتها وتتعلم منها وتتغير بها.

سادساً: لماذا امرأة بالذات

لقد سبق وتناولنا في القسم الثاني من هذه الدراسة ما كان لحركة المقاومة من دور في تشكل حركة نسائية بديلة للحركة النسائية الإغاثية السابقة، بما له من أثر على توسيع ظاهر تواجد المرأة في الحيز العام، السياسي- الاجتماعي، الذي تتحرك فيه، وهنا غدا هذا الحيز هو حيز القتال العسكري بشكله المحدد والنضال الوطني بشكل عام. وأم سعد هنا، المرأة، النموذج الصارخ إلى حدٍ ما. فهي تلعب دور" البطولة الأولى": **ترصد وتؤرخ وتعكس** وفوق ذلك **تبشر!** فهي التي تزرع عرق الدالية اليابس بداية الرواية ليخضر نهايتها، بالضبط في تزامن لافت مع تدرب الأطفال والشباب على السلاح! بما لذلك من دلالات واضحة ليس فقط على الثورة التي تنبت كالعرق الذي لا يحتاج لكثير ماء، بل وعلى مكانة ودور أم سعد.

وكما ذهبت الدراسة في تمهيد هذا القسم فهي لن تكتفي بما رغب كنفاني به وقاله في مفتتح روايته: تمثيل أم سعد للطبقة الفقيرة المسحوقة بل تذهب أبعد من ذلك: هل كان كنفاني في اختياره للمرأة كتمثيل، وبما أعطاها من دور، ينزع نحو الأيدولوجيا إلى حد مجانبته للصدق الفني، بأن أعطى المرأة مكانة لا تعكس حركتها في

---

[32]- يأخذ كيوان على الرواية بأنها تخلو من (الصراع الأيديولوجي) حسب تعبير باختين " إذ جاءت الأفكار فيها كقرار نهائي لا يُستأنف ولا يناقش" (كيوان، 2003:88). إننا لا ندري كيف كان حال الأفكار هكذا علماً أن أم سعد استغرقها أكثر من عشرين سنة لتكتشف عقم ثقافتها التقليدية- الغيبية المتمثلة بالحجاب!!

الواقع- **ترصد وتؤرخ وتعكس وتبشر**؟ منوهين أن ما لروائي أن يتجرد من أيديولوجيته- رؤيته الكونية حسب غولدمان- خاصة إذا كان هذا الروائي قد أعلن انتمائه الأيديولوجي حديثاً بما يناسب الإعلان الحديث عادة من حماسة (دكروب، 2001: 181-211).[33] وفي الوقت نفسه فأيديولوجيته، موضوعياً، وحسب المنهج البنيوي التكويني، لا تشكل والحال هذا رخصة لمجانبته الصدق الفني في أعماله الأدبية، وإلا غدت منشوراً سياسياً لا أدباً.

واختيار امرأة بلقبها الأمومي (أم فلان..) هل هو إعادة تأكيد على دور "تقليدي"[34] معروف للمرأة، ولكن عبر عملية إزاحة: من أم فلان إلى أم الثوار، ولكن بالنهاية أم؟!

بداية ومن مراجعة أعمال كنفاني جميعها لا نجد فيها أية إحالات يمكن أن تعكس انتمائه الحزبي المعلن[35]، بل على العكس سنلحظ أن معالجته لجوهر الصراع الفلسطيني- الصهيوني في **(عائد إلى حيفا)** فيها تفارق كبير عن برنامجه الحزبي السياسي إلى تخوم الموقف الشمولي ذا الأبعاد الجديدة في الصراع والتي لم تطرق حينه، وإن عكست أعماله بطبيعة الحال رؤيته الكونية- الأيدولوجيا،[36] على عكس ما وجدناه عند عدد من الروائيين الذين سنتناول رواياتهم في هذه الدراسة، إما كعينة رئيسية (حبيبي)، وإما كعينة ثانوية(البرغوثي). وقد لحظ كيوان أن الرواية " وهو يتحفظ على تسميتها هكذا" تخدم" فكرة وأيديولوجية- الكاتب يعني- السياسية" (كيوان، 2003: 88) وهذا مفهوم. أما ما هو مفهوم فهو إتكاءه على المرور السريع لشخصيتي المختار والأفندي ليستنتج منهما أن كنفاني كان يتدخل" بصياغة أفكارها- أم سعد يعني- الثورية المتقدمة.....وهو لم يعط مجالاً لأفكار أخرى أن تناقش..، كأفكار المختار والأفندي" (المرجع السابق: 88). المساحة التي تحتلها شخصية ما ليست بالضرورة دلالة على مساحة مكانتها وما تمثله، إذ يمكن لملمح سريع لشخصية روائية، أن يقول ما يعجز عنه سرد طويل لشخصية أخرى، وهنا يلعب التكثيف، وبراعة المؤلف في تبئير التناقضات في جمل معينة، دوره. فيكفي دلالة كلمة (الأوادم) – والتي يلحظها كيوان- لتحيل على الدور الرجعي له-حسب تعبير كيوان- دون الحاجة لسيل من الحوار بين الشخصيات ومن الشروحات. ولا يبدو لنا أن كنفاني تدخل لصياغة أفكار أم سعد فجاءت بالتالي جاهزة على لسانها، فالسياق لا يقول ذلك، وهذا ما لحظناه في معرض تناولنا لما بدا "مثالية" أم سعد وظهر لنا كيف أن وعيها(لا بساطتها) إنما تشكل في خضم الصراع.

---

[33]- دكروب هنا يشير إلى حقيقة إعلان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- وهي من فروع حركة القوميين العرب آنذاك- عن تبنيها للماركسية- اللينينية، علماً أن كنفاني لعب دوراً قيادياً فيها- عضو في مكتبها السياسي- ومسئول إعلامها.

[34]- الدراسة تتعمد وضع كلمة التقليدي المقترنة بالأم بين هلالين كإشارة لعدم قناعتها بما تحمله اللفظة" تقليدي" من موقف فكري سلبي لمكانة المرأة ودورها في المجتمع، هذا الموقف الذي درجت عليه الأدبيات النسوية الليبرالية في توصيفها لدور ومكانة المرأة في المجتمع، بما في ذلك من عدم رؤية للدور الاجتماعي- الإنتاجي لهذا الدور على تقليديته!

[35]- يعقد دراج، في معرض مناقشته لعلاقة المثقف بالحزب في حالة كنفاني، تقابلاً مهماً بين الحزبي والمثقف النقدي فيه، فيعتبره " مثقفاً تسكنه المفارقة وهو الحزبي والمثقف النقدي معاً. يتسم المثقف الحزبي بانضباط الحد الأعلى ونقد الحد الأدنى، بينما يتميز المثقف النقدي بالحد الأدنى من الانضباط الحزبي وبممارسة النقد في حده الأعلى(درّاج، 1996: 126)

[36]- للمراجعة هذه استعنا بما كتبته سلمى الخضرا الجيوسي في (موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر 1997) وفيحاء عبد الهادي(نماذج المرأة الفلسطينية في الرواية المعاصرة 1997) وعز الدين المناصرة(المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية الفلسطينية المعاصرة 2002) إضافة لدراسات أخرى تناولت نتاجات كنفاني وأثبتناها في قائمة المراجع.

أولاً: ليس جديداً على الرواية الفلسطينية أن تحتل المرأة فيها مكانة تمثيلية بارزة، كتمثيل للأرض أو للبطولة أو للثورة... وسبق أن تطرقت الدراسة لذلك في معرض نقاش الرمز والتمثيل. ويمكن الافتراض بالتالي أن كنفاني لم يخرج عن هذا السياق، ولكن هذا الدور "التقليدي" ينزاح كثيراً من حدود الحيز الخاص، المنزل على ضيقه، إلى حدود الحيز العام على سعته السياسية والاجتماعية والكفاحية. فهذه الأم يقدمها كنفاني قبل النكبة كفلاحة تلاحق الواوي الذي سرق الدجاجة وتجرح دفاعاً عن دجاجتها(اقتصادها المنزلي)، وهي ذاتها بعد الثورة وقد اكتسى دورها ومكانتها بملامح "أمومية" جديدة، يمكن تناولها تفصيلاً بالتالي:

- تزرع عرق الدالية للراوي المثقف الذي يعجب من تيبس العرق فتبشره باخضراره القريب، تماماً كما كانت، كفلاحة، تقوم بدورها المنزلي ولكن هنا بأبعاد جديدة.
- أم سعد يظهر عليها **(حيرة الأم وتمزقها)(266)** ولكنها تقرر أخيراً ما على الراوي أن ينقله لرئيس سعد" أقول لك، لتكن توصيتك به إلى رئيسه أن لا يغضبه. قل له: أم سعد تستحلفك بأمك أن تحقق لسعد ما يريد. إنه شاب طيب، وحين يريد شيئاً ولا يتحقق يصاب بحزن كبير. قل له، أن يحقق له ما يريد...يريد أن يذهب إلى الحرب؟ لماذا لا يرسله؟"(266). فهي شأن أي أم تتحير وتتمزق، ولكنها بالنهاية تقرر أن توصي لابنها ما يريد: القتال. ليس في هذا على ما نعتقد شعاراتية تعود عليها الخطاب السياسي التعبوي، أو تعبير عن لوعة عبر الهروب للأمام (زغرودة أم الشهيد). إنه تمثيل واقعي تماماً: تتحير وتتمزق كأم " تقليدية" ولكنها بالنهاية تقرر أن تهب ابنها للثورة. هذه الإزاحة ما كان لها أن تحدث لولا ما بدا في العام 1969، عام كتابة الرواية، إن حركة المقاومة هي طريق الخلاص من بؤس المخيم وكذا للعودة لفلسطين. فالثورة كانت هزمت قبل عام الصهاينة في معركة الكرامة (1968)، فأعادت الثقة للشعب بقدرته على القتال، وأظهرت ما هو أهم: إن المقاومة طريق اختبر للانتصار، وعليه فليس من الغريب أن تنزاح أمومة أم سعد باتجاه أمومة أعم، فتقرر بعد أن تتحير وتتمزق، أن تهب ابنها للقتال، علماً أنها طول الرواية ما وقفت حائلاً أمام خيار ابنها، ولكن عندما تقرر أن توصي الراوي بما يقول لرئيس سعد عاشت التناقض اللحظي الذي حسمت أمره بسرعة.
- وفي الجزء الأخير من الرواية والمعنون ب(البنادق في المخيم) أكثر من احتفالية بتوسع الانخراط الشبابي في المقاومة، إن فيه "إعلاناً" مبكراً من كنفاني لموقف من أثر العمل المسلح على العلاقة بين المرأة والرجل. نقول مبكراً لأنه كان قادراً على أن يستشف بعد سنتين من الانطلاق الفعلي لحركة المقاومة ما لهذا الانطلاق من تداعيات على هذه العلاقات الاجتماعية، وبضمنها العلاقة بين المرأة والرجل، هذه القضية(نعني تأثير العمل المسلح على العلاقة بين المرأة والرجل) التي حظيت فيما بعد برصد واسع من الدراسات البحثية العالمية والفلسطينية.[37]

[37]- في القسم الثاني من هذه الدراسة عرَّجنا على عدة دراسات عالجت هذا التأثير، لعل الأهم عالمياً هنا دراسة شيلا روبتهام التي أشارت لها كناب، وفلسطينياً دراستا علي الخليلي وخولة أبو علي.

يفتتح الجزء الأخير بالنص التالي: "فجأة تغير كل شيء: كف أبو سعد عن الذهاب للقهوة وصار حديثه لأم سعد أكثر ليونة، بل إنه، ذلك الصباح، سألها إن كانت ما تزال تتعب، وابتسم طويلاً حين رمقته متسائلة عن السبب، فقد كان يأتي منهكاً، ويطلب طعامه بسؤال فظ، ويكاد ينام وهو يعلك لقمته الأخيرة.

وحين كان يتعطل عن العمل كان يزداد فظاظة، ويأخذ في الذهاب إلى القهوة حيث يشرب شاياً ويلعب الطاولة وينهر على كل الناس.....وفي الصباح يشاجر خياله، ويترك أم سعد تحضر أشياءها الفقيرة لتمضي إلى شغلها تحت سياط نظرات حانقة لا تفسر، وذات يوم شمت أم سعد، مع لهاثه، رائحة الخمر"(331)

نكاد نكون مع هذا المقطع أمام حالة نموذجية من العلاقات الزوجية داخل الأسر الفقيرة. وفقط محدودية الرؤية لن ترى إلى هذه العلاقة سوى (الفظاظة والنظرات الحانقة) التي تعكس التسلط الذكوري، فيما أفق التحليل الرحب سيرى التعطل عن العمل، (والكفين الكبيرتين الخشنتين، اللتين تملؤهما أثار الاسمنت والتراب..)(331). في التقاط لأثر الوضع الطبقي على العلاقة بين الرجل والمرأة والذي التقطه كنفاني هنا.

أما ما جرى، وما حدا بالتالي بأبي سعد أن يكون (حديثه أكثر ليونة، ويسأل أم سعد عن تعب العمل، ويمشي مثل الديك....)[38] فهو تحول المخيم لبؤرة للعمل المسلح، والتحاق ولديه به: سعد مقاتلاً وسعيد متدرباً. هذا هو إذن الانزياح الأكبر كما يظهر في الرواية في العلاقة بين الرجل والمرأة ممثلين بأم سعد وأبي سعد.

وبعد الانزياح لم تغدُ العلاقة بين أم سعد وزوجها تتسم بثنائية المرأة مقابل الرجل فحسب، بل تشابكت في علاقتها معه عوامل التشكل الجديد للمقاومة بما ترك تأثيراته على العلاقة نفسها. وأم سعد تعبر عن هذا الانزياح بلغتها الواعية: إنه ذو دلالة ما تسجله الرواية في سطورها الأخيرة عندما يسألها الراوي عن حال (أبو سعد) بعدما التحق (سعيد) الصغير بالفدائيين "وولع المخيم" بالثورة فرحل الأفندي ممثل" الدولة المضيفة":

(وضربت أم سعد كفاً بكف، وكدت أسمع باصطفاقهما صوت قطعتي خشب:

- الفقر يا بن العم الفقر..الفقر يجعل الملاك شيطاناً ويجعل الشيطان ملاكاً، ما كان بوسع أبي سعد أن يفعل غير أن يترك خلقه يطلع ويفشه بالناس وبي وبخياله؟ كان أبو سعد مدعوساً، مدعوساً بالفقر ومدعوساً بالمقاهرة ومدعوساً بكرت الإعاشة ومدعوساً تحت سقف الزينكو ومدعوساً تحت بسطار الدولة...فما كان بوسعه أن يفعل؟ ذهاب سعد رد له روحه وتحسن يومها قليلاً؟ وحين رأى سعيد تحسن أكثر، أكثر بكثير.....صار يشوفني ويشوف أولاده غير، فهمت؟"(336)

وأبو سعد ما كان له أن " يشوف أم سعد غير" لولا التحول الذي أصاب المخيم " رأى المخيم غير شكل" (336) وعندما فعل ذلك قال" والله عشنا وشفنا يا أم سعد" (336). وكنفاني هنا وعلى لسان أم سعد، يعي لتسلط الرجل على المرأة، ولكنه يحيلها لأسباب لا تكمن في النزوع الرجولي الطبيعي للتسلط على المرأة، بل لسلسلة الشروط السياسية والاجتماعية، الفقر، القمع، الذل..فالفقر(يجعل الملاك شيطاناً

[38]- لقد لحظت (العيد، 1975: 50) ما لدلالة مشي أبو سعيد كالديك من مغزى مفسرة إياه بأن العمل الفدائي " يظهر كعملية تعويض عن الشعور بالذل المهيض"

ويجعل الشيطان ملاكاً). ومع ذلك فأم سعيد(وكنفاني من خلفها كروائي) يعيان حدود تأثير المقاومة على العلاقة بين الرجل والمرأة: حصل تطور في الواقع (ذهاب سعد رد له روحه وتحسن يومها **قليلاً**) ثم حصل التطور الآخر(وحين رأى سعيد تحسن **أكثر**، أكثر بكثير...) وسعيد هو الأصغر، وكأن كنفاني يلحظ ما لانتقال عدوى المقاومة(التي يشبهها بالحصبة) إلى الأجيال من تأثير على مزاج أبي سعد وطريقة تعامله مع زوجته. والعملية تتابعية، تطور يتلوه آخر فتتحسن طريقة تعامل أبي سعد مع أم سعد.

وكنا لحظنا في دراستنا ما هو شبيه: إن نشوء حركة المقاومة وإن حسن من دور ومكانة المرأة إلا أنه لم يقض تماماً على التسلط الذكوري ضدها، وهذا ما تعكسه تماماً علاقة أم سعد بأبي سعد ارتباطاً بتطور نشوء الحركة وتناميها. وكل هذا التطور في العلاقة، وبتأثير انطلاق المقاومة غاب عن نقد بنورة الذي لم يرى في سلوك أبي سعد سوى أنه" يعاملها بقسوة وغلظة، فهو إنسان محبط ومكسور، وهو يفرغ إحباطه في معاملته الفظة لأهل بيته.." (بنورة، 1987: 37) مصراً، رغم وضوح النص الروائي، على عدم رؤية ما لظاهرة المقاومة المسلحة المنطلقة من تأثير على شخصيات الرواية وعلاقاتها معاً.

والآن، يبقى التأكيد على أن الانزياح في الدور "التقليدي" يبدو صارخاً في التعريف المتفاخر لأبي سعد بأم سعد للعجوز الذي يراقب سعيد المتدرب:(هذه المرأة تلد الأولاد فيصيروا فدائيين، هي تخاف وفلسطين تأخذ)(334). فالإنجاب هنا ليس محض إنجاب بيولوجي، يؤكد الوظيفة البيولوجية للمرأة بل إنجاب سياسي-اجتماعي، فالصراع حتم على الإنجاب أن يكتسب هذه الخاصية. والولادة هنا فعل ثوري لا مجرد فعل بيولوجي فحسب. ولا مجال للمقارنة هنا بين هذه الوظيفة التي تؤكد الانزياح في الدور "التقليدي" للمرأة للمشاركة، عبر الإنجاب، بالثورة، وبين الأصولية (المرأة مصنع الرجال ومربية الأجيال) فالوظيفة الأولى جديدة، كنتاج لتجربة طويلة من المعاناة الوطنية والطبقية لدى أم سعد، ولدت لديها وعياً بدور جديد عبرت عنه بأن من متطلبات دورها " البيولوجي" أن تنجب مقاتلين. أما الوظيفة الثانية فهي استمرار لدور رسم مرة واحدة وللأبد، عبر النص الديني كما تفهمه حماس.

سابعاً: الخلاصة

تبدو التقابلات بين البنيتين واضحة عبر مسار تطور الحدث الروائي من جهة ومسار التحولات الاجتماعية والسياسية من جهة أخرى، وبضمنها التحولات على مكانة المرأة. من جهة البنية الروائية تعيش أم سعد بين تجربتين، ما قبل اللجوء وما بعد هزيمة 1967، واجتماعياً تنتقل من موقع الفلاحة إلى موقع عاملة التنظيمات. في انتقالها بين المرحلتين، تدير الظهر للحجاب وتتمسك "بحجاب" الرصاصة. بالمقابل تنهار سيادة المختار المتعاون مع السلطة بعدما كان معادله قبل النكبة يملك زمام القيادة(عبد المولى). وعلى الجهة

المقابلة، تزدهر مكانة شباب المخيم(سعد ورفاقه) على حساب مكانة المختار، على عكس المعادل ما قبل 1948، فضل وعبد المولى. علاقة أم سعد وأبو سعد تتأثر، إيجاباً، بواقع انطلاق المقاومة.

على مستوى البنية الاجتماعية ينتقل سكان المخيم الفلاحين المعدمين والمتحولين لعمال مأجورين إلى الفعل الثوري بانطلاق المقاومة، بل كانوا هم صانعيه. تنهار القيادات القديمة، كنخب الحمائلية والعائلية، كدور قيادي مهيمن، ويبرز نجم نخب الفئات الشعبية في المخيم. تبدأ المرأة بتوسيع دورها في الحيز العام بفعل انخراطها في النضال. رواية أم سعد تصلح للوقوف على ما أحدثه انطلاق حركة المقاومة من تغير في ادوار القوى الاجتماعية، والنساء منها، ومساهمة كل قوة في هذا الحدث.

من خلال هذا التقابل يمكن الاستدلال أن مؤشرات التحولات على مكانة المرأة بادية كالتالي:

1- **الوطني والاجتماعي**. في الربط بين موقف أبو سعد من أم سعد، كامرأة، والتحول الذي جرى على هذا الموقف بعد انطلاق حركة المقاومة. فالوطني عند أم سعد(مشاركتها في النضال) ساهم في زحزحة- زحزحة لا أكثر- في طبيعة العلاقة بينها وبين أبو سعد(الاجتماعي).

2- **العام والخاص**. يظهر جلياً في الرواية أن انطلاق المقاومة نقل أم سعد- المرأة خطوة للأمام في احتلال موقعها في الحيز العام، بشكل فريد، ظهر فنياً بتحوير الوظيفة البيولوجية للمرأة لوظيفة سياسية(إنجاب الثورة).

3- **موقف الآخر**. الثقافة الدينية الغيبية تنزاح، بفعل الثورة، لتحل محلها ثقافة ثورية (استبدال الحجاب). والمثقف(التنظيم السياسي) يتعلم من أم سعد التي تمثل طبقة بأكملها، وينحاز لها. والرجل يبدأ يتفهم دورها بشكل أكبر، ويغير من طريقة تعامله معها. فموقف الآخر هنا يتغير بفعل المشاركة في النضال من قبل المرأة.

4- **الدور النضالي**. وهذا من أكثر المؤشرات بروزاً، فأم سعد المناضلة هي المحور الأساس للحدث الروائي.

مما سبق يمكن الاستنتاج أن مؤشرات التحولات على مكانة المرأة في الرواية تتطابق مع ما سجلته الدراسة من تحولات على مكانة المرأة بعد نشوء المقاومة وانخراطها في العمل المسلح.

الفصل الثاني
الطنطورية باقية لابنها ولاء: "إنك يائس يا ولدي"

شتان بين اليأس والوعي في النضال! الأول حالة انفعالية تؤشر على ضعف القدرة عن التقاط مدليات الإرادة والفعل، أما الثاني فإدراك يتجاوز حدود الانفعال ليمسك بحدود الانتصار. والفعل اليائس كارثي لا يورث صاحبه إلا الدمار، ففي أفضل أحواله سلوك أخلاقي "جميل" لكنه عاجز عن الانتصار، إذ لا يملك مقومات فهم شروط هذا الانتصار. أما الفعل الواعي، ولأنه هكذا بالضبط، فهو يدرك أين يضع قدميه وإلى ماذا تتطلع خطواته، فيمتلك بالتالي مقومات الانتصار، حتى وإن جافته الظروف ولم ينتصر، إلا أنه يكون استجاب لمتطلبات الصراع وحاول، وفي المحاولة شرف لا يمتلكه القاعد عنها.

في الجزء الثاني من (سعيد أبو النحس المتشائل) أي(باقية) (1992) وهو الجزء الذي ستركز دراستنا عليه- للروائي إميل حبيبي حوار بين باقية الطنطورية(نسبة لقرية الطنطورة المدمرة) وابنها ولاء، هو تكثيف مدهش لما أراد حبيبي أن يقوله: موقفه من العمل المسلح الفلسطيني، وفيه تتجلى مكانة المرأة وما مثلته عشية هزيمة حزيران. فعبر لغة سردية حكائية، تتكيء على الموروث، اللغوي والثقافي العربي، وباستخدام تقنيات فنية رفيعة وضعت الرواية في مصاف الإبداعات التي ستعيش طويلاً[39]يقول حبيبي ما يقوله، كموقف ورؤية، يكثفه في لحظة في الحوار بين باقية وولاء.

والسرد الحكائي المقدم يتناسب حسب تصورنا وفكرة الرواية الأساسية: حكاية النكبة الفلسطينية، ولكن ليس عن ذلك الجزء من الشعب الفلسطيني الذي هُجر من وطنه وتمحورت روايات كنفاني حوله مثلاً، ولكن على ذلك الجزء الذي ظل في وطنه، تحت "سيادة" دولة المشروع الصهيوني التي ما قامت إلا على أنقاض شعبٍ: هُجر جزء منه وأخضع الباقي. وهذا الاتفاق بين سردية الحكاية الروائية وما تقوله الحكاية الفلسطينية كان علامة مميزة في الرواية ومصدر قوتها، تمثل في القدرة على اجتراح الأساليب اللغوية التي تتناسب وما تريد قوله، لذلك كان التطابق على هذا الصعيد بين البنيتين الخارجية والداخلية عالياً، بل يصل حد التماثل.

"فباقية" حبيبي هي ذلك الجزء الباقي في الوطن، كما "يعاد" الأولى والثانية(في الجزأين الثاني والثالث) هي ذلك الجزء التواق للعودة لوطنه. نلحظ هنا ما للأسماء من دلالات واقعية لا تخفى، شأن تسمية سعيد

---

[39]- الرواية وبعد صدورها بقليل، حصلت على اهتمام عالمي كبير وترجمت إلى 15 لغة وطُبعت من أكثر من دار نشر عربية، ومُسرحت أيضاً.

لولده "ولاء"، للتدليل على ولاءه للدولة ولجهاز المخابرات، لا "فتحي" التي أحالت إلى "فتح" بالنسبة للرجل الكبير(رجل المخابرات)، صاحب القامة الصغيرة، فعزف عنه...فتحول ولاء ليكون ولاءً للمقاومة المسلحة وقضيته الوطنية.

وبالتوازي مع الطابع السردي الحكائي للرواية، لا بد من الإشارة إلى تقنية الإتكاء على الموروث اللغوي والثقافي العربي، التي تخدم، حسبما ترى الدراسة، رغبة الكاتب في تأكيد (روائي فحسب) للانتماء العربي مقابل المؤسسة الصهيونية الوليدة، التي لا تنهض، بحكم منطق الأمور، إلا على قاعدة تذويب هذا الانتماء، أو إن عجزت، فقولبته فحسب، في قالب تراثي لا أكثر، يجتر لغة وثقافة الماضي، فيما يندرج في مؤسسة الحاضر- المؤسسة الصهيونية الوليدة، وهذا ما سنطرقه لاحقاً وبمزيد من التفصيل.

وليس فيما تذهب له الدراسة من تحليل سريع لمدلولات اللغة السردية ولتقنية الإتكاء على الموروث، ما هو خارج حدودها. بل إنها ستربط بين هذا وبين ما نعتقده تكثيفاً في موقف الطنطورية باقية، حول خيار اللجوء للعمل المسلح كما تأكد في سلوك ولاء، ُأملي عليها، أكثر من كونه جاء اتساقاً طبيعياً مع تطور الحدث والشخصية. بقي القول أن المستوى الفني العالي للرواية يقتضي الأخذ بالتحليل الأدبي إلى مداياتٍ تسمح بقراءة ما لم يقله النص، لاكتشاف المسكوت عنه، وبالتالي العلاقة بين البنيتين الداخلية والخارجية، لاعتبارنا أن الغائب، المسكوت عنه، في الرواية أكثر من الحاضر، على عكس ما فعلنا مثلاً في تحليل رواية أم سعد التي تمتاز بوضوح تمثيلات شخصياتها، وإن لم يطعن هذا بمستواها الفني.

أولاً: السياق الداخلي للرواية

الطنطورية تُهجر من قريتها وتلجأ إلى قرية جسر الزرقا، فيتعرف عليها سعيد وهي جالسة على ضفة نهر الزرقا تراقب الصيد. فأحبها ولم يجرؤ على التقدم منها. أما الذي سعى لتزويجه من باقية، فيعقوب، رجل الاتصال بين سعيد والرجل الكبير(صاحب القامة الصغيرة)- ونفهم من السياق أن رجل المخابرات الذي يحرك سعيداً- لهدف سياسي/ أمني " لقد قرر الرجل الكبير(ذو القامة الصغيرة) أن يصوبك نحو جسر الزرقا، فتستأصل شأفة هذه الأصوات النشاز- يعني الأصوات الستة عشر التي صوتت للشيوعيين في الانتخابات-

- كيف؟
- بأن نزف إليك باقية."(275)

في ليلة الدخلة تَسر باقية لسعيد بسرها: كنز من الذهب خبأه أهلها في كهف في صخرة تحت سطح شاطيء الطنطورة، تريد منه أن يساعدها على انتشاله. يعجز سعيد عن انتشال الكنز، فيتمكن ولاء من ذلك، بعدما ظهر أن أمه الطنطورية أخبرته عنه. وكان ولاء أنشأ خلية سرية مع أصدقاءه، وانتشلوا الصندوق وفيه سلاح وذهب كثير، فتسلحوا أكثر وأنشأوا صلة مع الفدائيين في لبنان. ورداً على احتجاج سعيد على كشف السر لولاء ترد عليه" **سعيد، يا سعيد، أولادنا آمالنا"(** 299)

يطوق سعيد في الكهف من عسكر الدولة وهو يحمل سلاحه، فيشتبك دون أن يتمكنوا منه، ويأتي يعقوب والرجل الكبير بسعيد وباقية لموقع الاشتباك، ليقنعوه بالاستسلام، وهنا ينشأ الحوار الذي اعتبرناه في فاتحة هذا الفصل أنه "تكثيف مدهش لما أراد حبيبي أن يقوله: موقفه من العمل المسلح الفلسطيني". يرفض ولاء الاستسلام فتلحق به الطنطورية غائصة في أعماق البحر، ليظل مصيرهما غامضاً. الحوار بين الطنطورية وولاء ودعوتها له للاستسلام سيكون هو المحور الأساس الذي سيتركز عليه تحليلنا لسياق موقف الطنطورية، والمكانة التي رسمها حبيبي لها. لذلك من المفيد تسجيل فقرات واسعة بعض الشيء من هذا النص.

" – لا جدوى من المقاومة فقد كشفوا أمرك.

- لست بمختبيء يا أماه، إنما حملت السلاح لأنني مللت اختباءَكم. أمي وتجيء معهم.!
- بل أرسلوني مع والدك، وحدنا يا ولاء... **ها هو جالس على بقية من سور ينتظر إنقاذ بقيته.**[40]
- ما الذي جاء بك يا أماه؟
- **أرسلوني كي أقنعك بأن تلقي سلاحك،** فتخرج إلينا، فتسلم. قالوا: رحمة بي وبأبيك.
- قه،قه،قه.
- أتطلق الرصاص على البطن الذي حملك؟ خوفي عليك يا ولدي. ولاء يا ولدي الق سلاحك واخرج.
- يا امرأة، **يا التي جئت معهم،** إلى أين أخرج؟
- **إلى الفضاء الرحب يا بني**. كهفك ضيق، مسدود كهفك، وسوف تختنق به!
- أختنق!..**أتيت إلى الكهف كي أتنفس بحرية**. مرة واحدة أن أتنفس بحرية! في المهد حبستم عويلي. فلما درجت أبحث عن النطق في كلامكم، لم أسمع سوى الهمس! في المدرسة حذرتموني: احترس في كلامك! فلما أخبرتكم أن معلمي صديقي، همستم: لعله عين عليك!.....احترس بكلامك! احترس بكلامك! **أريد أن لا أحترس بكلامي، مرة واحدة!** كنت أختنق! **ضيق هذا الكهف يا أماه لكنه أرحب من حياتكم! مسدود هذا الكهف يا أماه، لكنه منفذ!**
- منفذ؟ **الموت ليس منفذاً بل نهاية! ليس في حياتنا ما يعيب حياتنا، فإذا استترنا فعلى أمل الخلاص استترنا. وإذا حرصنا فحرصاً عليكم**. أي عيب في الخروج إلينا، إلينا نحن يا ولاء، أباك وأمك. وحيداً لا تقدر على شيء.
- **أقدر عليكم.**
- لسنا أعداءك.
- **لستم معي.**

---

[40]- التشديد في النص للدراسة باعتبارها مفاصل، نؤكد على أهميتها للتحليل اللاحق.

- بنيي احترس...
- قهن قه، قه...قوليها، يا أماه: احترس بكلامك! **لقد أصبحت حراً**.
- **حراً...كنت أعتقد أنك حملت السلاح لتنتزع حريتك!**

فأطبق صمتاً حتى سمعتها تفهفه:

- لو كنا أحراراً، يا ولدي، ما اختلفنا. **لا أنت تحمل سلاحاً ولا أنا أدعوك لاحتراس**. إنما نحن نسعى في سبيل هذه الحرية.
- كيف؟
- مثلما تسعى الطبيعة في سبيل حريتها. **فالفجر لا يطلع من ليلة إلا بعد أن يكتمل ليله**. والزنبقة لا تبرعم إلا بعد أن تنضج بصلتها. **الطبيعة تكره الإجهاض يا ولدي. والناس لا يتحملون ما أنت مقدم عليه.**
- سأتحمل عنهم حتى يتحملوا عن أنفسهم.
- أماه، أماه، **حتى متى ننتظر برعمة الزنابق؟**
- لا ننتظر يا بني. إنما نحن نحرث ونزرع ونتحمل حتى يحين الحصاد.
- **متى يحين الحصاد؟**
- تَحمل!
- **تحملت عمري..**
- فتَحمل!
- سئمت خنوعكم!
- لدينا فتية وفتيان لم يخنعوا، فاحذوا حذوهم!...**إنك يائس يا ولدي!**
- **لا أرى حولي سوى الظلام.**
- في الكهف.
- حياتي كلها كهف.
- أخرج إلى نور الشمس!
- أينَ مكاني تحت الشمس؟
- تحت الشمس. فسيأتي موسمنا.
- أتظلين تحلمين بالجزر السبع وراء البحيرات السبع؟
- إنها جزرنا وبحارنا. **والسندباد، يا ولاء، كف عن رحلاته، وصار يبحث عن الكنوز في تراب أرضه.**
- ستموتين يا أماه دون أن يعود أهلك.

- قبل أن يعود أهلي!
- كيف؟
- **دع الزمن يزمن**.
- قهن قه، قه.
- **لا تستخف بالزمن يا ولاء، فبدونه لا ينبت زرع فنأكل**. ولا تطلع شمس بعد مغيب. ولا يجيء سلام بعد حرب. **هل تريد لجيل واحد أن يحسم الأمر؟**
- جيلي.
- لماذا؟
- لأنه جيلي.
- بأي سلاح يحارب جيلك؟ أي سلاح في يدك الآن يا ولدي؟
- رشاش قديم في الصندوق.
- هرعت الطنطورية بعد ذلك إليه" تندفع نحو القبو المهجور، ويداها ممدودتان على جانبيها، كجناحي طير يسرع إلى عشه ليحمي جوازله"
- إنهم قادمون من وراءك يا أماه. فهل تحمينهم بحبي؟
- لا يا ولاء، يا ولدي، بل آتية أنا إليك. **ففي الصندوق رشاش آخر**. وسأحميك بحبي.

فغطست في الماء ولم تظهر لا باقية ولا ولدها. " **فبقي مصيرهما غامضاً**". وبعد مدة من الزمن لما سمع سعيد " أن من بين كتائب الفدائيين كتيبة باسم الطنطورة، أخذتُ أقفل النوافذ وأستلقي على فراشي وأنا احتضن الترانزستور".

ثانياً: "تناقضات" تستوطن النص - امرأة المصير المجهول

في قراءة موقف باقية الطنطورية، ونراها- حسبما قُدمت في الرواية- تمثيلاً للشعب الفلسطيني المقيم في وطنه تحت سيادة الدولة الصهيونية، لا يمكن إلا أن تستوقفنا الملاحظة التالية: لقد أبدت الطنطورية رغبة غير عادية، عند زواجها من سعيد، في الوصول للكنز، الأسلحة والذهب، حتى أنها كشفت سرها هذا "ليلة دخلتها" ولم تحتمل الانتظار أكثر. وهي إذ تحض سعيداً على الإتيان بالصندوق تعلن(لا أريد لأولادي أن يولدوا محدودبين. لقد تعودت **أن لا أتنفس إلا بحرية يا ابن عمي)** (277) فهي لا تستعجل الحصول عليه، بل والتحرر من دولة المشروع الصهيوني الوليدة. وعندما سمعت من سعيد ما قاله عن الشيوعيين من أنهم (لعلهم وجدوا، مثلما وجدنا، صناديق تركها لهم آباؤهم مخبوءة على شطئآن طنطوراتهم) (280)، الذين يحاربهم سارعت للقول: (نستعين بهم) بعد أن هيج الجواب خاطرها(فأبرقت عيناها، وحزمت ما بين حاجبيها فحزمت أمرها)(281). ولكنها عادت وأخبرت ابنها

ولاء بموقع الكنز معلنة (سعيد، يا سعيد، أبناؤنا آمالنا) رداً على احتجاج سعيد. بما يؤكد ثقتها، كشعبٍ مقيم، في ولدها وبنهج المقاومة المسلحة.

ومع ذلك عندما غدا اكتشاف الكنز فعلاً ثورياً بامتشاق ولاء للسلاح وتنظيم صلته مع الفدائيين في لبنان، حاولت إقناعه بالتخلي عنه والاستسلام! ولكن، مرة أخرى، بعد جولة الحوار الطويل بينها وبينه، سرعان ما تلتحق به، لنفهم من السياق، إما أنها وابنها التحقا بالثورة في لبنان[41]، وبالتالي سميت كتيبة للفدائيين باسم القرية (الطنطورة)، أم أنهما استشهدا، وخلد اسم الكتيبة شهادتيهما،[42]وإما، ببساطة، انطلقا للمصير المجهول الذي لا نعرف عنه شيئاً. أما ما ينبئنا به حبيبي فهو واضح: "ولم يكشف عن جثتيهما، فبقي مصيرهما سراً غامضاً" (310)(وستعود الدراسة لاحقاً للوقوف على مغزى اختيار حبيبي لهذه النهاية، كما تعتقد). إن هذه النهاية الروائية المفتوحة تثير شهية التحليل لقراءات متعددة، لا الركون لتفسير النهاية، كنهاية مغلقة.

في سلوك الطنطورية تجاه خيار ولدها باللجوء للسلاح ومن ثم محاولة إقناعه بالتراجع وأخيراً اللحاق به، تناقض سرعان ما ينحل، عندما نأخذ سياق تطور شخصية الطنطورية بالتحليل، فيبدو عندئذٍ شكلياً محضاً. لقد تعرف عليها سعيد في العام 1951، أي بعد ثلاث أعوام على النكبة، صبية صغيرة تجلس على شاطيء الطنطورة، قريتها المدمرة "إما تبتسم وإما تبكي....غريبة وتقرأ كتباً وتبتسم لوحدها وتبكي لوحدها"(274) كلاجئة، ريفية "تعيش الشتات في الوطن" (مناصرة، 2000: 129).

وانفجر الاشتباك بين ولاء وسلطة الدولة في " ذلك اليوم المشئوم، من الخريف الأخير قبل الخريف الحزيراني المقيم" أي خريف العام 1966. وما بين 1952(بافتراض إنجابها بعد عام) و1966 أصبح ولاء (شاباً يافعاً غريب الأطوار. لا يتكلم إلا مضطراً)، وحث سعيد خطواته في ملاحقة الشيوعيين الذين باتوا يتزايدون. وباتت الطنطورية تنطق باسمهم الآن، كما يظهر في حوارها مع ولاء، وكما ظهر في حديثها عن الاستعانة بالشيوعيين للوصول للكنز، وفي أحاديث كثيرة تظهر الطنطورية وقد استبدلت كنزها بكنز الشيوعيين(خطهم الفكري والسياسي). وبالتالي، فليس من تناقض، بل محض تجربة جديدة غيرت قناعات. فالصبية التي تجلس على شاطيء الطنطورة تحلم بالكنز، وتريد أن "تتنفس بحرية"، ليست هي ذاتها وقد نضجت، وباتت تمتلك موقفاً معبراً عنه بلغة أقل ما توصف بأنها عالية التجريد، وتحمل مضامين سياسية وفكرية ناضجة. ولكن يبقى السؤال: لماذا هروات إليه أخيراً وغطست معه في الماء؟ لنلاحظ أنها لم تفعل ذلك إلا بعد أن قالت " في الصندوق رشاش آخر، وسأحميك بحبي" فالرشاش

---

[41]- هذا ما تميل له فيحاء عبد الهادي(1977: 54) عندما تعلن بلهجة لا تخلو من احتفالية(تدرك باقية" المرأة/ البطل" ما يجب فعله في اللحظة المناسبة(لا يا ولاء يا ولدي. بل آتية أنا إليك"). ورغم أن تسويغ هذا السلوك يمكن من زاوية نقدية باعتبار أن النص في بعض الكتابات يتمرد على منتجه، إلا أن الدراسة لا تميل لهذا التفسير لشواهد كثيرة ستأتي على ذكرها لاحقاً. أما المناصرة(2000: 131) فهو الآخر يؤكد أن مشهد الكهف يصور(التحاق باقية بابنها ولاء وهو التحول الوطني الايجابي الذي خرج من ذل سعيد المهزوم..) دون أن يقول المناصرة كيف يستقيم هذا التحول بعد الحوار الطويل الذي يُظهر باقية تحاول إقناع ولاء بإلقاء سلاحه.

[42]- رغم أن النص يترك نهاية الطنطورية وابنها مفتوحة(وهذا من علامات القوة الجمالية للرواية)، ويفتح الاحتمالات بالتالي لقراءات متعددة بتعدد آفاق النهاية المحتملة، رغم ذلك فقد غاب عن الخضرا، كناقدة، هذه النهاية المفتوحة، وأكدت أن (ولاء يموت مع أمه أثناء مقاومته للسلطات الإسرائيلية) (الخضرا، 1997: 61).

الثاني غيره الأول الذي يمتشقه سعيد، بل إن قراءة تأويلية للنص[43] لن تحيل إلا على رشاش الوعي البديل لليأس الذي ستحاول من خلاله الطنطورية ضبط ولدها اليائس والمندفع، وإلا لا معنى لتشكيكها بسلاح ولاء(أي سلاح في يدك الآن يا ولدي). وما يدعم هذه القراءة التأويلية حقيقة أن (الرشاش الآخر) الذي ستقدمه الطنطورية لولدها، ليس سلاحاً بالمعنى الحرفي، إذ أن حبيبي أخبرنا أن خلية ولاء ورفاقه تسلحوا أكثر واشتروا ذخيرة، وبالتالي من الطبيعي أنه يملك سلاحاً، غير الرشاش القديم! وهل من الصدفة وصفه بالرشاش "القديم" فيما وصف رشاش الطنطورية "بالآخر"؟ إن إلحاق صفة (القديم) برشاش سعيد تحيل، بتقدير الدراسة على أساليب نضال قديمة، وعفى عليها الزمن، من وجهة نظر حبيبي، فيما إلحاق صفة (الآخر) برشاش الطنطورية تحيل على أساليب بديلة للأولى. إن لحاق الطنطورية بولدها لم يكن لحاقاً من الأم بالعمل مع الفدائيين، بل هرولة لاستبدال سلاح الفدائيين الذي بيد ولاء بسلاح آخر، وجده الشيوعيون في كنزهم الخاص بهم. هذه قراءة محتملة.

ولكن هناك قراءة أخرى محتملة: فإذا أخذنا وصف حبيبي لمصيرهما "بالغامض" نكون أمام واقعة مختلفة: انحازت الطنطورية لولدها لا دعماً لمشروعه المسلح، فهذا يظهر جلياً من الحوار، وإن افترضنا العكس نكون أخلينا بكل ما قالته الطنطورية، ولكن لمشروع "غامض" غير محدد، ولكنه ليس هو المشروع المسلح على أية حال، وهذا أكثر اتساقاً من الاحتمال الأول. على العموم تبقى نهاية الطنطورية وولاء مفتوحة على القراءة والتحليل. إنما البارز أن الطنطورية نطقت بلسان الرفض لمشروع ولاء المسلح في العام 1966 غداة نشوء النضال المسلح الفلسطيني، وعشية التشكل العلني لحركة المقاومة الفلسطينية. وهذا هو الملمح الأبرز في سلوك الطنطورية كتمثيل.

ثالثاً: بين "يأس" الشاب المقاوم و"نضج" تجربة القاعد

والطنطورية في الفقرة المطولة من حوارها مع ولدها تقول كل ما في جعبتها. وكل ما تقوله إنما بهدف واحد: إقناع ولاء بعدم اللجوء للقتال، إذ أوانه لم يحن بعد. فعندما يقول ولاء أنه إذ حمل السلاح (**أصبح حراً**)، ترد عليه بتشكيكها بحرية الفعل هذه (**كنت أعتقد أنك حملت السلاح لتنتزع حريتك**). وفي هذا الموقف الذي يسجله حبيبي على لسان الطنطورية " ورطة ما" إن جاز التعبير: ففعل المقاومة بذاته كفعل، أي رفض الاحتلال، فعل يحيل إلى الحرية، لأنه فعل يعلن امتلاك القرار، لا الانصياع لإرادة المحتل بالخضوع، لا الانصياع لتوجيهات والديه (احترس بكلامك)![44] ولذلك كان سجل سارتر، وقد أثبتت الدراسة قوله في مفتتح الفصل الفائت، بأن المقاتل ضد المستعمر لا يقتل العدو فحسب، بل وأيضاً صورة العدو في الذات المضطَهَدة، والمقاتل إذ يفعل ذلك يصبح حراً، لا بالمعنى الحسي المباشر، التحرر من الاحتلال، بل بالمعنى

---

[43]- طبيعة اللغة الروائية والمستوى الفني التجريدي للحوار تفرض على الدراسة القراءة التأويلية للنص، قراءة تبحث عن المسكوت عنه في نص لا يقوله صراحة.

[44]- رغم أن خطاب ولاء لأمه برفض توجيهات**هم** (الاحتراس) التي تلقى عليه من **أمه وأبيه معاً**، إلا أن المناصرة مؤيداً فاروق وادي(2000: 125) يصر على أن أمه بريئة من هذه التوجيهات الإحباطية، إذ يقول المناصرة(ويرمز ولاء للمقاومة الوطنية.....رفض الخضوع فتربيته من قبل أمه لا أبيه).

الذهني- النفسي، التحرر من عقدة الخضوع وتمثل الاحتلال في ذاته. لذلك كان من الطبيعي أن يشعر ولاء بحريته، وكان من الضعف بمكان أن تَعُد الطنطورية حمل السلاح هو فقط لانتزاع الحرية.

وولاء إذ يشعر بحريته تلك فلأنه بالذات يربطها بما سقناه: تحرره من عقدة الخضوع التي عاشت بداخله نتيجة تربية أمه وأبيه: (احترس بكلامك). إن تحدث، إن صادق معلمه، إن حاول تنظيم إضرابٍ، إن تكلم في منامه، إن دندن في الحمام....كان دائماً يصفع بالتوجيه إياه: احترس بكلامك! لذلك قال لأمه (قوليها يا أماه: احترس بكلامك! لقد أصبحت حراً). وما قالها إلا بعد أن قهقه عالياً.

لذلك كان فعل ولاء **فعل وعي** لا فعل يأس، وموقف الطنطورية موقف **تحبيط** لا موقف نضج. وهذا ما أشارت له عبد الهادي عندما أكدت وعي ولاء انطلاقاً من أن(الحوار الطويل الذي يدور بين باقية وولاء يؤكد أن ولاء قد اختار مصيره بوعي كبير) (عبد الهادي، 1977: 54).

ومع ذلك فكثيرة هي الكلمات والجمل التي قالها ولاء في حواره تظهر يأسه، من وجهة نظر الطنطورية الرافضة لخياره، وتدلل على البعد اليائس في سلوكه، لا الواعي. فالطنطورية تقول له بالفم الملئان(إنك يائس يا ولدي) ويحمل ولاء صياغات تحيل مباشرة على اليأس: (تحملت عمري) دلالة على عدم القدرة على الصمود، وبالتالي اللجوء للمغامرة القاتلة، اليائسة. (لا أرى حولي سوى الظلام) وهي صياغة تحيل مباشرة على عدم الثقة، على الأقل، بأي بصيص أمل، وبالتالي فالسياق المنطقي سيقوده لعمل يائس. [45]

وأكثر من ذلك، إن هذه الواقعة تثير التساؤل: لماذا لا تتفق كلماته وجمله هذه مع وعيه لشروط عبوديته، وعيه لامتلاك حريته؟ لماذا لا تتفق كلمته وجمله مع وعيه لحقيقة تربية والديه الإخضاعية، وتمرده بالتالي عليها، رفضه لسلوك والده العاجز (جالس على بقية من سور **ينتظر** إنقاذ بقيته)؟ فكما في القعود عن فعل الإنقاذ عجز، ففي محاولة الإنقاذ فعل واعٍ. ولكن أحياناً يبدو الفعل الواعي وقد عبر عن نفسه بلغة يائسة!

ليس في جعبة التحليل الأدبي من حلٍ للتناقض الذي يظهر في سياق شخصية روائية إلا واحدٌ من اثنين: إما أن الشخصية بطبيعتها متناقضة، شأن أية شخصية روائية أو واقعية، وإما أن الكاتب تدخل لاعتبارات أيديولوجية في صياغة سياق الشخصية ليقولها ما لا يحتمل سياق تطورها. بالنسبة للاحتمال الأول فيمكن نفيه دون كبير عناء: فالتناقض في سياق أية شخصية لا يمسس والحال هذا السياق الموضوعي لتطورها الذي يتبلور(يتجلى) عبر الأحداث وتوترها، وإلا غدونا أمام شخصية مفككة، لا ملامح لها، ولا تخوم تمكننا من الإمساك بناصيتها حتى تقرأ هذه التخوم والملامح. وسياق ولاء الموضوعي لا يشي بذلك: تربى في واقع موضوعي يريه الاضطهاد يومياً، وأهل يحدثونه عن كنز ما في موقع ما فيه الخلاص، وفي الوقت نفسه يبثون الخضوع في داخله، فحسم التناقض بين واقعه المعاش وتربية أهله باتجاه تمردي، فغدا " شاباً يافعاً غريب الأطوار. لا يتكلم إلا مضطراً "(297)، يشكل مع أصدقائه خلية "مسلحة" ويتصل بالفدائيين، في تطور

[45]- في توافق مدهش استعمل حبيبي لفظة اليأس هذه في عالميه الروائي والسياسي في الفترة الزمنية الواحدة. فقد وصف اللجوء للعمل المسلح لدى نفر من الشباب في داخل الدولة الصهيونية، وضدها، بالعمل اليائس.(كرزم، 1993: 200)

يتسق مع ما غدت المقاومة الوليدة في العام 1965 تشكله من ظاهرة. ومن هنا ما بدا لسعيد غرابة أطوار، وتكتم في سلوكه وكلامه....

ويظل الاحتمال الثاني هو المرجح لدينا: إن حبيبي إنما أظهر نزوع ولاء للعمل المسلح كنتاج لليأس لا للوعي، فحمله، بالتالي، ما لا تحتمله شخصيته، في تناقض بينٍ مع تطور الشخصية التي رسمها بنفسه، وهو يفعل ذلك إنما ترويجاً لموقف سياسي تبناه حبيبي بمثابته عضواً قيادياً في الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي اتخذ على الدوام موقفاً، لا نقدياً فحسب، بل وصل حدود العداء لحركة المقاومة.[46]

أما اللافت أكثر فهو قول الطنطورية(الناس لا يتحملون ما أنت مقدم عليه). لقد كتب حبيبي روايته في العام 1992 واختار لها إطاراً زمنياً بين العام 1948 وحتى بعد هزيمة 1967. أما الحوار بين ولاء والطنطورية فيدور في العام 1966. إننا نفترض أن حبيبي لم يكن، كسياسي وروائي، ليلتقط على لسان الطنطورية في العام1966 ما سيتركه انطلاق العمل المسلح من تأثير، كما أنه في العام 1992عندما كتب الرواية، لم يكن ليقيم ما كان من التفاف شعبي حول حركة المقاومة. [47]

رابعاً: عندما تعاند الأيدولوجيا حركة الواقع

تميز الحزب الشيوعي الإسرائيلي بموقفه المعادي لحركة المقاومة التي انطلقت قبل العام 1967 بقليل، وتحولت لظاهرة علنية شعبية بعد العام نفسه. والحزب كان ينطلق حينه(وحبيبي من قياديه ومؤسسيه) من تحليل قديم لم يرَ في الصراع تاريخياً، كصراع بين المشروع الصهيوني في فلسطين وحق الشعب الفلسطيني في وطنه، أي كصراع قومي ضمن الظاهرة الكولونيالية المعاصرة، بل كصراع طبقي بين العمال العرب واليهود(المستوطنين حديثاً) من جهة، وبين الرأسمالية اليهودية والإقطاعيين العرب من جهة ثانية، فيما يدعم الاستعمار البريطاني(بشكله الانتدابي) الطرف الثاني. (بشير، 1977).

وعند إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين(وكان الحزب" قاتل لاستقلالها") استمر بدعوته (لحل الصراع بين الدول العربية وإسرائيل) دون الأخذ بعين الاعتبار مطالب الشعب الفلسطيني في وطنه، وحقيقة أن الدولة تلك نشأت على أنقاض الشعب الفلسطيني، بل اعتبرها تجسداً لحق الشعب اليهودي في الاستقلال في وطنه- أرض إسرائيل[48] بل ذهب إلى أبعد من ذلك، حين أطلق اسم (الشعب العربي الأرض إسرائيلي) على الفلسطينيين الذين ظلوا في وطنهم في العام 1948! (كرزم، 1993؛ محارب، 1989)

---

[46]- تظهر العدائية التي تجاوزت حدود النقد السياسي في قائمة المفردات التي استخدمها حبيبي والحزب في وصف الفدائيين حتى بدايات السبعينيات((المتطرفون، الإرهابيون، المجرمون، المرتزقة، المخربون..) (كرزم، 1993 : 108؛ محارب، 1989: 118و 129-138)

[47]- في الحقيقة وحسب المسار السياسي لحبيبي، كقيادي في الحزب، فهذا منطقي. فهو لم يخطيء الحسابات على لسان الطنطورية، كما لم يخطيء التقييم على لسانه، إنه ببساطة يتسق مع موقفه الرافض لنهج حركة المقاومة منذ انطلاقها. (يمكن لذلك مراجعة العديد من الأدبيات(كرزم،1993؛ ومحارب، 1989؛ والأسطة، 2000)

[48]- في العام 1965 كان حبيبي اعتبر الشيوعيين اليهود الذين سقطوا في العام 1948 "رفاقاً سفكوا دماءهم دفاعاً عن الوطن في سنة 1948". (كرزم،1993: 31)

أما عند تأسيس منظمة التحرير وإعلان ميثاقها الوطني والشروع بالعمل المسلح[49] فقد اتخذ الحزب موقفاً معادياً من الظواهر- التطورات الثلاث. ومن اللافت هنا أن في العام الذي تدور فيه أحداث الرواية(1966)، كان الروائي حينها عضواً في الكنيست الإسرائيلي عن الحزب فأعلن من على منصته استنكار حزبه" بكل شدة أعمال التخريب والقتل التي تقوم بها المنظمة التي تدعى" فتح"" (كرزم، 1993:108؛ كرزم، مرجع سابق؛ محارب، 1989)

لا يمكن والحال هذا إغفال الربط بين الموقف السياسي/ الأيديولوجي للروائي وبين موقف الطنطورية من العمل المسلح حينه. فالموقف الذي تعلنه في حوارها مع ولاء هو ذاته الذي يتبناه حبيبي وقد صيغ بلغة الأدب، لا بلغة السياسة اليومية. (فالفضاء الرحب) الذي تدعو ولاء للخروج إليه هو علنية الاحتجاج السلمي المشروع على الدولة الصهيونية، ضمن المؤسسة الصهيونية "وشرعيتها القانونية"، فيما يتمسك ولاء بكهفه، منفذه لحريته في ممارسة القتال.[50] وذو دلالة أن يعتبر ولاء كهفه أرحب من حياة أمه وأبيه، فالكهف هنا، منفذ لحياة ترفض الخضوع، هو كهف ضيق مكانياً لكنه واسع باعتباره منفذاً للتحرر، وعليه يكون من الطبيعي أن يعتبره ولاء منفذاً. أما الطنطورية فلا تملك مرة ثانية إلا الاعتصام بظاهر اللفظ كما فعلت سابقاً مع لفظة الحرية التي أطلقها ولاء. فهي ترد على ولدها بالقول(الموت ليس منفذاً بل نهاية). والموت هنا هو صنو التضحية من أجل الآخرين، أما لو أخذ اللفظ ببعده الحرفي المباشر (والساذج) فلا يمكنه بالتالي أن يكون منفذاً، أما بأخذه وفق ما يعني للمقاتل فهو الموت من أجل حياة الآخرين، إنه والحال هذا المستوى الأعلى من التضحية في سبيل المثل السامية، في التحرر والاستقلال. و"التلاعب بالكلمات" ودلالاتها كانت الخضرا قد تنبهت له وإن كانت لم تحال دلالاته السياسية والمضمونية في تقديمها السريع لموسوعتها (الخضرا، 1997: 42)

وتستمر الطنطورية في سوق حججها الرافضة للعمل المسلح: الطبيعة ترفض الإجهاض/ دع الزمن يزمن/ الزنبقة لا تبرعم إلا بعد أن تنضج بصلتها... وهي كلها كما يظهر لنا صيغ صحيحة منطقياً، لكنها مفارقة للحالة الملموسة[51]، في لعبة أتقنها حبيبي في صياغته، يضمر في القول ما لا يظهر فيه على بساطته ومنطقيته: فالطبيعة ترفض الإجهاض، ولكن من قال إن سلوك ولاء فيه إجهاض للطبيعة؟ وعلى ذات المنوال يمكن السؤال: من قال أن الزنبقة لم تبرعم، وأن الزمن لم يزمن؟ فكما نلحظ، فإما معالجة للألفاظ (الحرية والموت) دون تحميلها تمثيلاتها في الحالة الملموسة، أو الإتيان بجمل لا تقول شيئاً في الحالة الملموسة.

وأخيراً يصعب إنهاء قراءة فقرات الحوار دون الوقوف على النهاية الضبابية المجهولة لمآل الطنطورية وولاء، كما عبر عنها حبيبي(فبقي مصيرهما غامضاً). أي غموض هذا، وماذا يفهم منه؟

---

[49]- أعلنت حركة فتح عن أول عملية عسكرية لها في 1965/1/1.

[50]- لقد جرت العادة في تصريحات الحزب وقادته، وحبيبي منهم، أن يتم وضع النضال الديموقراطي (العلني المؤسساتي بطبيعة الحال) في مواجهة الأساليب "المغامرة" التي ينزع لها بعض الشباب(الالتحاق بالمقاومة) (كرزم، 1993: 200)

[51]- قد ينطبق على هذه الطريقة الخطابية ما يقال عن الحق الذي يقصد به باطل.

نفهم من السياق أن كتيبة من الفدائيين سُميت باسم الطنطورة، وأن سعيداً كان يستمع، خفية، للترانزستور عله يلتقط شيئاً من أخبارهما، فأين الغموض إذن؟

إن الدراسة والحال هذا لا تملك إلا تفسيراً واحداً: إن حبيبي يعرض بخيار ولاء بالتشكيك في مستقبل هذا الخيار، بإحالته للغموض أكثر منه إلى الوضوح، هذا مع العلم أن الطنطورية ربما كانت تبغي خياراً آخر عندما لحقت بوالدها كما سجلنا في قراءتنا أعلاه. وتبقى النهاية المفتوحة من العلامات المميزة جمالياً، إلا أنها على الأقل في هذه الحالة، ذات مدلولات أخرى عندما تنزاح إلى أبعادها السياسية والاجتماعية.

خامساً: عندما يغدو الأدب بياناً دعائياً

تمثلات الموقف السياسي/ الاجتماعي في البنية الداخلية للرواية

إننا ومع إميل حبيبي أمام ظاهرة قل مثيلها، أو كادت لا توجد، في الرواية الفلسطينية. وهي ظاهرة مزدوجة: أولاً: هناك نزوع عالٍ للتنظير لخط وتاريخ الحزب ومواقفه في الرواية، سواءً على لسان الراوي وهو سعيد نفسه، أو على لسان الطنطورية، ومعهما اليعادين، الأولى والثانية. وإنْ كنا لمسنا الأيدولوجيا تطل برأسها لدى كل الكتاب، وهو أمر يبرره المنهج الذي نستخدمه، إلا أننا لم نلحظ هذا الكم من الدعاية الحزبية، بالمعنى المباشر، كما لمسناه لدى حبيبي.[52] إن (سعيداً أبو النحس المتشائل) وفي أجزائها الثلاثة تعج بالفقرات –التي يصعب ذكرها كلها في دراستنا هذه لكثرتها- التي تمجد بطريقة مباشرة، وإن بلغة جميلة وفنية، بالشيوعيين الإسرائيليين. حسبنا أن نشير إلى الفقرات التالية: توزيع الشيوعيون لبيانهم أثناء حصار الحارة الشرقية في الناصرة(232). الوسائل التي استخدمها سعيد" كجاسوس للسلطة" لتفريق صفوفهم وتوريطهم مع السلطة والتأثير على التفاف الناس حولهم.(243) توجيه السلطة لجهود رجلها سعيد للعمل بين العمال لإنقاذهم من براثن الشيوعيين.(268) صمود الشيوعيين" مع أنهم لا يملكون شروى نقير" في وجه السلطة واستئسادهم عليها.(277) امتداح الفدائي المعتقل لدور الشيوعيين (338)[53]. وأخيراً، وليس آخراً، العرب البدو الذين لا يجدون مجيراً لهم سوى الشيوعيين أمام تنكيل الدولة بهم.(350).

ويمكن ببساطة إعادة هذا النهج في الكتابة الأدبية إلى التزام الروائي، كحزبي، بما عُرف بالنهج الأدبي الماركسي- المدرسة الواقعية الاشتراكية، الذي صيغ على عهد ستالين (كمنهج رسمي) معتمد في الكتابة الأدبية لدى الشيوعيين، فأضاع الحدود بين الأدب والدعاية السياسية، أو في أفضل الأحوال، أخضع المهارة الأدبية للدعاية السياسية كما حال حبيبي.[54] ولأنه يفعل كذلك، فمن الطبيعي أن يلوي عنق الحقيقة، فالمهم بالنسبة له، الانسجام وخط الحزب والدعاية الحزبية، لا إعادة صياغة الواقع فنياً حتى لو كانت، هذه الإعادة،

---

[52]- سنلحظ لاحقاً في دراستنا هذه أن هذا التنظير يتكرر مع وداد البرغوثي أيضاً.

[53]- لعل هذا هو النموذج الأبرز على مجانبة الحقيقة السياسية في العلاقة بين حركة المقاومة والشيوعيين الإسرائيليين.(كرزم، 1993؛ محارب، 1989)

[54]- لقد تعرضنا لهذا المنهج ببعض التفصيل في القسم الأول من دراستنا في الإطار النظري.

لا تتفق تماماً مع الخط الحزبي. كما أن هذا المنهج لا يرى في الواقع غير طرفين: من هم مع الحزب ومن هم خارجه. والذين خارجه مدانون دائماً. وللتدليل على ذلك نقرأ النص التالي لما قاله سعيد الجالس على الخازوق(خازوق خيانته وعمله جاسوساً ذليلاً لجهاز المخابرات) عندما جاءه موزع الجريدة(الشيوعي بحكم موتيف توزيع الجريدة في تاريخ الأحزاب الشيوعية): (واتاني الشاب الذي يوزع الجريدة. وكان شاباً. فصحت به: الخازوق، يا ولداه! قال: الذي لا يريد أن يقعد عليه ينزل إلى الشارع معنا. لا بديل ثالث، فاختر. ومضى في الشارع)(269)

ثانياً: قالت الدراسة في موقع آخر من هذا الفصل أن إتكاء حبيبي على الموروث اللغوي والثقافي العربي في روايته إنما تأكيد (روائي فحسب) على الانتماء العربي في مقابل المؤسسة الصهيونية الوليدة. وفي قولنا (روائي فحسب) ما يبرره إن أخذنا واقع موقف الطنطورية من جهة، والموقف السياسي للروائي(رؤيته الكونية حسب غولدمان، الوطنية حسب تحويرنا) من جهة أخرى. لا يمكن وفق منهجنا البنيوي- التكويني العزل بين السياق البنيوي الداخلي، على تراكيبه المختلفة، والرؤية السياسية الاجتماعية والسياسية للروائي، ويتعزز هذا في حالة حبيبي أكثر نظراً لثقل ظهور السياسي فيه، في روايته، ورسم مسارها ومسار شخصياتها كما ظهر سابقاً. وبالتالي ينبغي من وجهة نظر المنهج البنيوي التكويني فحص التالي: ما الصلة بين بنية فنية روائية تتكيء بشدة، وبمستوى رفيع أيضاً، على الموروث الثقافي واللغوي العربي، وبين رؤية سياسية هي على النقيض مما يقوله هذا الإتكاء- تأكيد الانتماء العربي؟ قبل ذلك ينبغي تحديد أبرز معالم هذه الرؤية.

باعتباره قيادياً، بل ومؤسساً للحزب الشيوعي الإسرائيلي، فقد تبنى حبيبي رؤية تقوم في أبرز معالمها على دعوة العرب للاندماج في المؤسسة الصهيونية (دولة المشروع الصهيوني)، التي جسدت حق الشعب اليهودي في "وطنه"، الذي وصف في فترة حتى بالمصطلح اليهودي التوراتي "أرض إسرائيل" في بيانات وأدبيات الحزب. وبالتالي دعا الحزب العرب للمشاركة في بنية المؤسسة ككل(التصويت لانتخابات الكنيست، وبالتالي المشاركة في البرلمان، والهستدروت بالأساس..) وفي فترة ما (الخمسينيات والستينيات دعا لتجنيد العرب في الجيش الإسرائيلي). وعليه مثلاً لم يرَ في منظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً للشعب الفلسطيني في داخل الدولة الصهيونية، ولم يوافق على ميثاقها الوطني الذي يطالب بتحرير فلسطين (كرزم، 1993؛ محارب، 1989).

إن هذه الملامح يصعب وصفها بأنها تقوم على تعزيز الانتماء العربي في وقت يتم فيه الدعوة لتذويب الهوية الوطنية عبر الدمج في المؤسسة الصهيونية (الدولة ومؤسساتها)، وعزلها عن مؤسستها الوطنية الوليدة(منظمة التحرير)، والأهم اعتبار ذلك الجزء من الوطن يُجسد فيه حق تقرير المصير للشعب اليهودي.

وفي تحليلنا لنص الحوار بين الطنطورية وولدها أحلنا دعوتها لولاء بالخروج للفضاء الرحب على دعوة الحزب بالذات للفلسطينيين بالمشاركة بالمؤسسة الصهيونية الوليدة لاتفاق هذا مع رؤية الروائي بالأساس، وباعتباره النقيض لسلوك ولاء: الخروج على مؤسسة الدولة بالسلاح.

وفي أكثر من تحليل لدور القوى السياسية والاجتماعية العربية داخل الدولة الصهيونية، يجري عادة تصنيف هذا الدور بالمثلث الأضلاع: قوة تقليدية عائلية، تبدو كتواصل مهزوم لذات القوى قبل العام 1948، اندمجت بالمؤسسة لدرجة الارتباط الكامل بها وعبر الأحزاب الصهيونية(ونتذكر نموذج عبد المولى الذي يشتغل مع اليهود في رواية أم سعد)، والقوة الثانية هي الحزب الشيوعي الإسرائيلي (بأغلبية فلسطينية في القاعدة لا تعكس نفسها في القيادة) اندرج في مؤسسات الدولة الصهيونية وفي الوقت نفسه ناضل ضد تمييزها ضد الفلسطينيين، فكان أن وجد فيه الفلسطينيون معبراً عن همومهم اليومية، وكان يتركز نفوذه أساساً في أوساط الفئات الشعبية، وخاصة العمال ذوات الأصول الفلاحية. أما القوة الثالثة فبرزت في مرحلة نهاية الخمسينات (حركة الأرض تحديداً) ونهضت على أساس الارتباط بين الفلسطينيين ومحيطهم العربي القومي ورهنت مستقبلهم بمستقبل شعبهم ككل، فحُظرت، وكانت تتشكل من فئات المهنيين والمثقفين عموماً. وقد عانى التيار الثالث من قمع السلطة من جهة وتشهير ودعاية الحزب الشيوعي ضده من جهة أخرى.[55]

ولاء يمكن اعتباره تمثيلاً للتيار القومي الوطني الذي يرفض الاندماج في المؤسسة، والطنطورية تمثل الفئات الشعبية الفلسطينية التي لم تجد من قوة منظمة غير الحزب الشيوعي تلجأ إليها، فتتمثل موقف الشيوعيين وتدعو له. فيما الرواية تعج بما يمكن وصفه بالاستهزاء بالمشاعر القومية لبعض الفلسطينيين الذين رفضوا الاندماج، فتقدمهم بصورة ساخرة، من نوع عصام البانجاني(ودلالة السخرية تتضح من اسمه) الذي يرفض (الاعتراف بالدولة وبصحفها، ويعادي الأدون سفسارشك ودولته)(224) ينتشي منتشي السكيرين العرب صائحاً (يتهم كل مطالب بتنفيذ قرارات مجلس الأمن بأنه خائن للعروبة)(265).

وعليه تعتبر الدراسة أن الإتكاء على الموروث اللغوي والثقافي العربي، مع الدعوة للاندماج في المؤسسة الصهيونية الوليدة، لم يكن سوى تعويض روائي، يُعلي من شأن الانتماء العربي، ليعوض عن موقف سياسي لا يعزز هذا الانتماء.

سادساً: موقع المرأة/ الطنطورية من نظام السيطرة الشاملة

بقي الإشارة إلى مسألة جوهرية في العلاقة بين البنيتين الروائية والسياسية/ الاجتماعية. لقد أظهرت الدراسة في القسم الثاني ما للإجراءات والقوانين العنصرية للدولة العبرية من تأثير مدمر على البنية الاجتماعي في الداخل. نضيف هنا أن هذه الإجراءات والقوانين، مدعومة بنظام سياسي واقتصادي متطور أمام بنية مدمرة، كان من نتيجته تحقيق نظام من السيطرة الكلية، الشاملة على الإنسان الفلسطيني في الداخل. وفي النص مؤشر على ذلك في صيغة (احترس بكلامك) التي ما فتأ سعيد والطنطورية يرفعونها في وجه ولاء، كتعبير عن حالة نفسية مفموعة، ومرعوبة، أمام السطوة الصهيونية، المعززة بجهاز استخباري قوي يعرف حتى بماذا تدندن في الحمام . إن هذا النظام من السيطرة وجد تعبيره في شخصية سعيد، الذي التحق بجهاز

[55]- طال التطور التيارات الثلاث بعد السبعينات: تعاظم نفوذ التيار القومي(ظهرت حركة أبناء البلد والقائمة التقدمية وحزب التجمع الديموقراطي)، تراجع نفوذ الشيوعيين في الأوساط العربية، وظهر التيار الإسلامي كقوة مؤثرة، فيما ظل للقوى العائلية والتقليدية مكانتها تحت ظل الأحزاب الصهيونية.

المخابرات فيما يضمر العداء للدولة، وهو تناقض حمله حتى في اسمه المتناقض(سعيد والنحس)، ووجد تعبيره أيضاً في شخصية الطنطورية التي قالت لولاء (إذا استترنا فعلى أمل الخلاص استترنا). إن الرواية ونهايتها- الموقف الرافض للفعل المسلح- تبدو متسقة مع الخضوع لهذا النظام حتى ينزاح، ولكنه خضوع جرى رفعه لمستوى التنظير السياسي والأيديولوجي في برنامج الحزب.

سابعاً: الخلاصة

جسد نص الحوار بين الطنطورية وولدها ولاء التقابلات بين البنيتين الروائية والسياسية- الاجتماعية. فولاء يمتشق السلاح ويلتحق بالمقاومة فيما الطنطورية تأبى عليه ذلك وتصفه باليائس الذي يعاند الطبيعة، وعندما " تلتحق به" يظل هذا الالتحاق في الرواية غامضاً، مجهولاً. وسلسلة الحوار الشيق تعكس مستويين: نضج الطنطورية وصفاء تفكيرها الموزون، يقابله توتر شبابي، محبط ويائس، يعكسه ولاء في حديثه. هذا الحوار نعتقده صدىً للحوار السياسي حول المقاومة بين جناحين من الوطنيين الفلسطينيين داخل الدولة العبرية.

فموقف الطنطورية صدىً لموقف الحزب الشيوعي الرافض للمقاومة، فيما موقف ولاء موقف الاتجاه الوليد، القومي الوطني، الرافض لشرعية دوله الاحتلال والناهض ضدها بالسلاح، وقد سبق للقسم الثاني من الرسالة أن عالج هذا التشكيل للجناحين. إن الطنطورية هنا تبدو لسان حال روائي للحزب الشيوعي فيما ولاء لسان حال الاتجاه الثاني. إن السيطرة الشمولية للكيان الصهيوني وتدمير البنية الاجتماعية للفلسطينيين وتحطيم مؤسساتهم بعد العام 1948 تظهر في الرواية عبر معطيين: الأول شخصية الطنطورية التي تبدو وكأنها تستدخل الهزيمة برفضها التمرد على الدولة بالسلاح. والثاني شخصية سعيد نفسها التي تجمع التناقض الذي لا يمكن أن يستمر، الاندماج بالدولة، وسعيد اندمج بها عبر جهازها الأمني، ورفضه الداخلي المكبوت، لضعفه، للدولة، ويتجلى هذا التناقض حتى في أسمه: سعيد، ونحس!. إن الرواية تصلح والحال هذا للوقوف على الصراع بين جناحين من أجنحة العمل السياسي الفلسطيني في منطقة 48 وتمثيلاتها الاجتماعية، ومكانة المرأة في هذا الصراع.

أما مؤشرات التحولات فتظهر كالتالي:

1- **الوطني والاجتماعي.** الوطني تظهر من النقاش أصلاً حول الموقف من العمل المسلح وتسلح الطنطورية بموقف الحزب. أما الاجتماعي فيظهر بالمكانة المركزية التي احتلتها أم سعد في الحوار- الموقف مع ولاء. لا يتجلى الاجتماعي هنا في علاقة بين المهام الوطنية والاجتماعية للنساء، مع أننا يمكن تلمس مكانة مميزة للطنطورية غي علاقتها بالرجل، سعيد، من واقع أنها هي التي أرشدت ولاء للكنز- السلاح، فيما عجز سعيد عن اكتشافه.

2- **العام والخاص.** لم تعد الطنطورية في الرواية تلك اللاجئة المحطمة من الطنطورة بل انتقلت مرحلة متقدمة: دلت ولدها على السلاح، وأخيراً اتخذت موقفاً سياسياً منه(أي امتشاق السلاح) أي أنها لعبت دوراً سياسياً واضحاً.

3- **موقف الآخر.** على العموم كان الرجل سعيد تابعاً لخيارات المرأة- الطنطورية، إن كان في كشفها لموقع السلاح لابنها، أو في تزعم محاورته وهو محاصر فيما سعيد منطوياً بعجزٍ على نفسه.

4- **الدور النضالي للمرأة.** وهنا كان للموقف السياسي للروائي دوره في تحديد سقف الدور لنضالي للمرأة بما يخدم خط حزبه. نطقت بلسان الحزب وجعل لحاقها بولدها، مجهولاً وغامضاً.

الفصل الثالث

المرأة كحامل لمشروع / حلم العودة

في رواية جبل نبو(1995) لعزت الغزاوي[56] أسطرة تلف الرواية من أولها لآخرها، إن كان في المكان أو في رمزية الزمان أو في أسماء الشخصيات أو لغة الحوار. وفوق ذلك فالأحداث يرويها الراوي بالاستناد إلى جهد بحثي أثري عن بقايا الآشوريين، فيما يهدي الروائي روايته في البداية "إلى ذاكرة مؤاب، وجبل نبو، وقامة الإنسان في الحاج إبراهيم وعائشة ومريم". فيتحقق التواصل الأسطوري بين الفلسطيني(الحاج إبراهيم ومريم وعائشة) وبين المكان الأسطوري(مؤاب ونبو) ليصبح الفلسطيني هو (موسى) العصر الحديث: يقف على نبو مؤملاً دخول أرض ميعاده، فلسطين، في تواصل أيضاً بين زمنين مؤسطرين: زمن موسى وزمن الفلسطيني.[57] والأسطرة هذه تحيل على الطابع الذي يتأسطر أحياناً للصراع الفلسطيني- الصهيوني في الخطابين السياسيين، الفلسطيني والصهيوني[58]، فيكون الروائي نقل بإبداعية، هذه الجزئية من حقل السياسة لحقل الرواية، فمنحها بعداً جمالياً ميز الرواية دون شك، فالأسطورة، على أية حال، صياغة جمالية قبل كل شيء.[59]

السياق الداخلي للرواية

---

[56]- ينبغي التنويه إلى ما سجله الروائي في الطبعة الصادرة عن مركز أوغاريت لرواياته الثلاث(جبل نبو، الحواف، الخطوات)(2000) من أنه رتبها لا على التسلسل الزمني للتأليف(فالحواف قبل جبل نبو) بل على المراحل التي تعالجها. والروايات الثلاث تعالج المراحل التاريخية الثلاث(بعد هزيمة حزيران، الانتفاضة الفلسطينية، وما بعد أوسلو) ولأنه فعل ذلك، (وهذا يتفق ومنهجيتنا في التحقيب السياسي/ الاجتماعي)، ستعالج الدراسة الروايات الثلاث، كل واحدة في الحقبة التي تمثلها.

[57]- في النص التوراتي الأسطوري يقف موسى بن عمرام في رحلته لأرض المعاد عند حدود النهر، عند جبل نبو ولا يتحقق حلمه بالدخول، عقاباً له من يهوه، فيموت على الجبل وتختلف المرويات الدينية حتى الآن على مكان دفنه.

[58]- تظهر الأسطرة في الخطاب الصهيوني في تضمينه (التقليدي) للأبعاد التوراتية اليهودية للصراع والحديث عن الحق الإلهي لشعب إسرائيل في أرض المعاد. أما في الخطاب الفلسطيني، الذي تبلور في سياق الرد على الخطاب الأول، فيظهر في "التعمق" في التاريخ لإثبات التواجد الفلسطيني، ما قبل التواجد اليهودي في فلسطين. وذو دلالة في هذا السياق ما درج عليه الراحل أبو عمار في الحديث عن جوليات وداوود وسحبهما على الصراع الحالي.

[59]- تناول(عدنان في نحو دراسة تأصيلية للرواية الفلسطينية المعاصرة ،2000) بالتحليل المسهب للطابع الأسطوري للزمان والمكان والشخصيات والحوار.

يُهجر إبراهيم العمران وزوجته عائشة بنت عبد المعطي من السدير(فلسطين) في العام 1967 ومعهما ابنيهما يوسف، وتظل في السدير ابنتاه(عفاف وآمنة) المتزوجتان، وشقيقه يونس العمران. يستقر المطاف بالعائلة المهاجرة في بصرى في جبل مؤاب، ويواظب إبراهيم على الصعود لأعلى تلة في مؤآب ليرى السدير من بعيد. وهناك في بصرى تكون بنت المبروك القادمة من صحراء العرب محاطة بهالة أسطورية، ويفترعها الأسطوري الآخر مسعود الوالي، الذي افترع سبع نساء في ليلة واحدة. وقد أشار قاسم(قاسم في نحو دراسة تأصيلية،2000: 95-128) إلى ما لدلالات الجنس في سلوك بنت المبروك ومسعود الوالي من صلة بالجنس المقدس وأساطير الخصب في الديانات القديمة.

تلد بنت الوالي مريم التي لا تعرف أباً لها، وتتعلق بيوسف الذي يهجر بصرى للدراسة في أمريكا. إبراهيم العمران، الذي بلغ من العمر عتياً، يتطلع لبنت المبروك كي تمنحه إسماعيل ولداً له، في معجزة إلهية عصرية، بعد أن سقطت زوجته عائشة وهي تحاول الدخول للسدير. يموت إبراهيم ورأسه يتجه شرقاً دون أن ينجب إسماعيل، فتتجه الأنظار ليوسف ومريم لتحقيق حلم الحاج إبراهيم.[60]

والمحور الأساس الذي تدور أحداث الرواية حوله هو العودة للسدير، الوطن المغتصب. والتطلع لمشروع العودة، باعتباره عقدة الرواية ككل، والتي تتكثف عندها وحولها كل الأحداث، يتحدد عند إبراهيم العمران بدعوته لربه أن يهبه إسماعيل في معجزة ثانية. فالتعلق بجيل جديد ليحقق العودة ظاهر. ولما توفي إبراهيم انتقل حلم تحقيق المشروع للأبناء، يوسف ومريم.

أولاً: الشخصية النسوية ومعادلها السياسي/ الاجتماعي

ثلاث شخصيات نسائية محورية تلعب دوراً أساسياً في الرواية، عائشة، بنت المبروك ومريم، وفي مسار تطور كل شخصية، تمثيل لدور في الحياة السياسية والاجتماعية للمرأة ودورها في مشروع العودة من جهة، والتأسيس لهذا المشروع من جهة ثانية. إن الاستعراض التفصيلي للنصوص المتعلقة بالشخصيات الثلاث كفيل بتوضيح ما تذهب إليه الدراسة:

عائشة

يقول عنها زوجها وفكرة العودة للسدير تمتلك عليه روحه: " هي قطعة خالصة من أي شيء نظيف، بلور أو إسفنج أو قماش أو حتى غيمة أو شربة ماء.....كبرنا على الحب يا بنت عبد المعطي، وأنت من رحيل إلى رحيل تشربين خوف القادم، من أين سيأتي، وما النهاية، هل سنقف عند حدٍ ونستريح! لكنني أرحل معك وأسأل أيضاً وينضح قلبي بالأجوبة المحيرة الناقصة. من أشعل الحرب وماذا سيفعل أولئك المهجرون؟

---

[60]- لا يمكن بطبيعة الحال المرور دون ملاحظة الطابع الأسطوري الرمزي للأسماء(والغزاوي مولع برمزية الأسماء كما يظهر في رواياته الأخرى). فإبراهيم العمران شبيه بموسى بن عمرام، وعائشة بنت عبد المعطى ذات دلالة إسلامية في اسمها واسم أبيها كذلك، ويوسف ومريم وإسماعيل المنتظر ويونس ..كلها أسماء توراتية، أما بنت المبروك ومسعود الوالي فأصولهما العربية- الجزيرية تؤشر للأصل العربي- السامي الذي عليه أن يقدم المنتظر: إسماعيل من المُنجبة: مريم.

السدير[61] لا يأتي يا بنت عبد المعطي. أنا أعرف ذلك. **علينا أن نذهب نحن إليها[62] ببندقية أو بأجسامنا**"(37) أما عبد المعطي فقد رأى رؤيا عودة عائشة" تخرجين منها خائفة وتعودين إليها خائفة **وحين يضيء قلبك لن يحتمل النور وبهاء الصمت"(**37). ولا يخفى ما برؤيا عبد المعطي من تشابه، يصل حد التطابق، مع الكشف الصوفي للذات الإلهية عبر التجربة الصوفية، كما لدى الحلاج وأبن عربي، فكأن فلسطين هنا هي الله، والوصول إليها يحتاج لتجربة وجدانية من التعبد تصل تخوم التجربة الصوفية في اكتشاف الذات الإلهية، والاندماج فيها والتوحد معها. وعائشة كانت قرة عين أبيها فهو لا يضيره أنه لم ينجب أولاداً (قال دائماً إن عائشة لم تعطه الشعور أنه بحاجة لأولاد ذكور، وكان يصعب عليه توضيح وجهة نظره تلك خاصة في اجتماعات الرجال. المختار يقول له: ومن سيرث أرضك؟ يقول عائشة. ومن سيحفظ اسمك حين تموت؟ " ذلك لا يعني شيئاً" يقول عبد المعطي، " أنا إنسان لا يتكرر"...)(38).

وعائشة حملت مشروع العودة(تجربة الكشف) ورحلت تحاول تحقيقه بمفردها، فانتهت جثة على حدود السدير، فأخذت النسوة تحلف " بحياة عائشة" حين يردن تأكيد الحديث.

وعائشة هنا تبدو متفقة وقناعة زوجها إبراهيم بأن السدير لا توصل إلا بالأجسام أو بالبندقية، فحاولت بجسمها ففشلت، مثلما حاول بعدها ففشل، فعاد ميتاً فوق حصان الرحيل (ورأسه مائل للغرب) تجاه السدير- فلسطين.

بنت المبروك

تلك القادمة من الصحراء تحمل بذرة التمرد على قصور السلاطين، كانت (دائماً في بداية الأشياء)(13) وكأنها الله ذاته. ورغم أنها، وبالجنس- المقدس بمعنى ما- سحرت رجال القرية، ابتداءً من مسعود الوالي القادم هو الآخر من الصحراء، مروراً بإبراهيم الذي يبحث عن معجزة ولادة إسماعيل بين فخذيها، وهو البالغ من العمر عتيا، وصولاً لأبي إسماعيل الذي ما عرف أنثى مثلها...رغم كل ذلك فالقرية لا (تقدر أن تطرد بنت المبروك. جدتها السابعة كانت من أولياء الله، تنام في العراء ولا يهاجمها ذئب، تختبيء الأفعى في كمها ويحكي لها القمر أقدار الناس، من يموت ومن يحيا، وكانت تقرأ وتكتب الرسائل والرقي وتشفي المرضى..والجدة أعطت سرها لبنت المبروك. أخذت السر عن أمها)(61). فكل ما فيها مؤسطر يصل حدود التأليه(فهي مبتدأ الأشياء) وهي تعرف الأقدار، لذلك كان إبراهيم يسألها عن عائشة عندما رحلت تمارس تجربة الكشف- العودة، ولذلك كانت أيضاً مطمحه ليحقق الله من خلالها معجزته في ولادة إسماعيل له. وبنت المبروك هنا هي محور مشروع العودة الأسطوري: هي الأصل الصحراوي الأسطوري الذي يؤمل منه إنجاب المنقذ إسماعيل، ولما مات إبراهيم وعائشة، ويوسف أخذه السفر، تنبأت بنت المبروك في نص بالغ الدلالة(من يقول أن زمن المعجزات انتهى؟ ستحمل مريم وهي نائمة وتأتي ليلاً إلى بصرى بعد غياب. تفتح باب الخيمة، وتلقي بنفسها مهدودة منكوشة الشعر، وأفزع إليها **ولم يمسها بشر**. صائمة عن الكلام والسلام أربعين يوماً، تتشبث بعمود الخيمة وتلد إسماعيل. " يا أهل بصرى" أصيح من قحف رأسي، النائم

---

[61]- تأتي السدير هنا بالتذكير لأن السدير حسب أبن منظور فارسية معربة وتعني النهر، ويقال القصر، وهو منبع الماء، وهو أيضاً النخيل..وكل المعاني تحيل على معنى مشترك: مكان للحياة المستقرة والهانئة. وهنا وصف للوطن بهذا المعنى.

[62]- أما هنا فالسدير المؤنثة وتعني فلسطين حصراً

فيكم والغافي يعلم أن مريم ابنتي ولدت إسماعيل أبن سبعة أشهر. سيحكي ويمشي وترضى عنه مريم ويرضى عنها"(68) فعبر جنس إلهي_ دون أن يمسها بشر- تبشر بنت المبروك بولادة إسماعيل من مريم، تماماً كما بُشرت مريم بولادة عيسى عبر الجنس الإلهي. ونصها أعلاه خاتمة رواية- رحلة كشف ومحاولات عبور متكررة فاشلة. ولكنه نص امرأة يتشبث بالحلم- الأمل ويبشر به. إبراهيم يفشل وكذلك عائشة، ويوسف يغيب، فلا يظل إلا مريم، لتنجب إسماعيل ليتحقق الحلم.

مريم

تتعلق بيوسف ولا تناله، فالسفر يأخذه، هو المسافر أبداً، وحين يَقْدَمْ يبحث عن سر أبيه في المكتشفات الآشورية، فيما مريم تعيش اللجوء نضالاً لا اكتشافاً، "وتمارس" العودة على طريقتها: تناضل ضد القمع السلطوي وتعتقل، فتبدو في تجربتها الواقعية هذه كأنها تتحضر لخوض غمار التجربة المنذورة لها: تلد إسماعيل من الجنس الإلهي!

ولا أكثر من النص التالي للوقوف على مغزى مكانة مريم في الرواية " **قدنا مظاهرة احتجاجاً على اعتقال النشطاء السياسيين** وإعدام كاتب تحدث عن السجون الكبيرة والمؤسسات النافذة، لكننا لم نعرف كيف وصلنا إلى مركز الشرطة، وكيف بصقوا في وجوهنا كأننا عاهرات. قال لي ضابط المخفر(الظاهر أن أمك لم تختنك تماماً. سنتأكد من ذلك الليلة). لم يصدقوا أن اسمي مريم بنت المبروك. كان علي أن أعطيهم اسم أبي **وذهلوا حين قلت لهم أنني لا أعرف لي أباً**...ولما عدت بعد أيام ثلاثة في النظارة، اعتقدت أنني لن أعود إلى المدرسة في مادما، قلت في نفسي: **أعيش حياة بنت المبروك الملاصقة للرمال** وأبقى بعيدة عن أخبار الدنيا. **أترك العجلة تدور وتطحن البشر الذين يفتربون من الأسئلة الكبرى، لكنني بعد ذلك وجدت نفسي أعود تدفعني الأسئلة)(67).**

مع أن مريم كشخصية روائية منذورة لتجربة جنس إلهي، جديدة وعصرية، لإنجاب إسماعيل، إلا أنها، وعل عكس الشخصيتين النسائيتين الأخريين، لا تعيش ملاصقة للرمال، ومبتعدة عن أخبار الدنيا، تعيش واقعية النضال اليومي، تتظاهر وتعتقل وتواجه الشرطة بحقيقة ولادتها الأسطورية من دون وجل. وهذه الحياة الواقعية مدخلها لطرح الأسئلة الكبرى- ودائماً قيل: طريق المعرفة يبدأ بطرح الأسئلة. ولكن طريق المعرفة لدى مريم لا يتوقف عند حدود طرح الأسئلة، بل يُعمد بالتجربة اليومية، بالنضال. فمع أنها متعلمة، لكنها تفترق عن المثقف الذي يعتقد أن الأسئلة الكبرى، المفصولة عن الممارسة، كفيل بالوصول للمشاريع الكبرى، بل تدمج بين الأسئلة الكبرى وممارسة النضال. لذلك كان من الطبيعي- كتطور في الشخصية والحدث- أن تكتشف بعد تجربة النضال والاعتقال أنه لا يستقيم مع دورها المرسوم أن تترك(العجلة تدور وتطحن البشر الذين يهربون من الأسئلة الكبرى...) بل عليها(بعد ذلك- أي بعد التجربة) أن تعود لطرح الأسئلة.

وهنا الفارق بين بنت المبروك وعائشة من جهة، ومريم من جهة أخرى. إنه الفارق بين جيلين ونهجين. الجيل الأول يعتصم بالتاريخ وبتجربة الكشف- تجربة العودة، بما في التجربة من فردية- والتجربة الصوفية فردية بامتياز وإن كانت ظاهرة اجتماعية/ تاريخية-. تحاول عائشة تجربتها، فتفشل، وكذلك يفعل إبراهيم،

فيما تظل بنت المبروك تبشر وترى(من الرؤيا لا من النظر). أما الجيل الثاني، جيل مريم، فيتخذ من تجربة النضال السياسي اليومي، الجماعي، المعمد بالقمع والتضحية، مدخلاً لطرح الأسئلة الكبيرة- المشاريع الكبيرة، وهنا هو مشروع العودة، لتعود، وعبر التجربة هذه، لتتأهل لدورها الإنقاذي، منجبة إسماعيل. فالتاريخ هنا ليس معطىً لتجربة فردية تدير الظهر للجهد الجماعي، كما لدى عائشة، بل يقدم كمعطىً يتفاعل مع الجهد اليومي- تجربة النضال. وذلك ما جسدته مريم. وقد لحظ مضية(2001) ما أبرزه الروائي من جهد فردي عندما تناول شخصية الحاج إبراهيم" سيد الأسرة ينشد خلاصه بجهود فردية، وعيه يقصر عن التفكير الاستراتيجي طويل النفس والعمل الجماعي ومثابرة العمل لإنجاز المشروع. بتلقائية وعفوية يخطط لمشروعه.." (مضية في تأملات، 2001 :71)

إن الرواية إذ تقدم المرأة فهي تقدمها كحاملة للمشاريع الكبرى- العودة، فتذكرنا بأم سعد كحاملة لمشروع الثورة. وهي عبر شخصياتها النسوية تستعرض الفارق بين جيلين، جيل النكبة الثانية(حزيران 1967) الذي عاش أمل العودة وحاول بتضحوية مثالية تحقيقه، لكن فردية المحاولة هزمته، والجيل الذي وُلد من رحم الهزيمة لكنه يدمج فردية التضحية بالجهد الجماعي، بالمرجعية التاريخية التي تبرر الحق في حمل المشروع- العودة.

ثانياً: في العلاقة بين بنية السرد ودور المرأة

والسرد في الرواية، على العموم، ليس محض أداة فنية لا تقول إلا ما يحيل على صفتها تلك. إن أهمية السرد، على كونه أداة فنية، هو بمثابته صوت الشخصية الروائية الذي يقدم رؤية الشخصية، ليعكس مكانتها في الرواية، وبالتالي تمثيلها للصوت في البنية الخارجية. لذلك يصح من وجهة نظر التحليل الفني والاجتماعي للرواية التساؤل: ماذا تعكس طريقة السرد من أدوار للشخصيات، هي بالتحليل النهائي أدوار القوى في البنية الخارجية؟ فغياب صوت المرأة مثلاً في السرد قد يعني أحياناً غياب صوتها في البنية الأشمل- المجتمع والعكس صحيح، على ما في هذا التعبير من إطلاقية غير مستحبة منهجياً! وهذه الطريقة في بناء المعمار الفني تحيل على قناعة لدى الروائي بأن ما يقدم في روايته يطال حدود الرواية- بالمفهوم الفلسفي/ الثقافي- لا مجرد سرد أحداث درامية تنتهي بحلٍ للعقدة شأن الطريقة الكلاسيكية في البناء. فالرواية الفلسطينية لحلم/ مشروع العودة يلزمها فنياً أن تُروى من أكثر من صوت، فهناك أجيال وقوى وتيارات ورؤى مختلفة تروي هذه الرواية في البنية الأشمل/ المجتمع، وكلها(ممثلة) في البنية الروائية، وهكذا فعل.

والسرد لدى الغزاوي[63]، كما في روايات أخرى له، توزع على الشخصيات الأساسية، كل منها تروي رؤيتها للحدث من وجهة نظرها. فصوت المرأة حاضر في سردها لرواية الهجرة(عائشة) ورواية/ الحلم

[63]- هذا حال الغزاوي في رواياته (الحلاج يأتي في الليل) (الحواف) (والخطوات). وفي الارتباط بين تقنية السرد هذه كأداة وطريقة عرض الرواية الفلسطينية، نلحظ أنه بالإضافة لهذه الرواية التي تحكي الرواية الفلسطينية لحلم/ مشروع العودة، فإنه في الحواف يقدم الرواية الفلسطينية للانتفاضة، فيما في الرواية الثالثة من السلسلة(الخطوات) يقدم الرواية الفلسطينية لما بعد أوسلو..فكل آلية السرد لديه تخدم مشروعه الثلاثي(الرواية الفلسطينية) للمشاريع الثلاثة: العودة والانتفاضة وأوسلو.

بالعودة(بنت المبروك) ورواية تحقيق الحلم(مريم)، وهذا له ما يقابله في البنية الأشمل. في أصوات الأجيال المختلفة بعد التهجير الثاني.

وإن تحتل مريم هذه المكانة فهو ينسجم مع التطور الذي حصل على مكانتها بعد العام1967 وتشكيل حركة المقاومة، والمتمثل بالانزياح الكبير في العمل النسوي باتجاه الطابع السياسي، بما ترافق مع ذلك من تزايد الوعي الوطني في أوساط النساء، ودورهن في النضال، وهذا غير المعزول عن ما وفره التعليم من فرصة أوسع للمشاركة في العمل السياسي[64]. وكل هذا جرى معالجته في القسم الثاني من الدراسة.

وما نفهمه من السياق الزمني لأحداث الرواية أن ملامح مريم السياسية كمناضلة ونشطة بدأت تظهر في مطلع السبعينات وتواصلت مرورا بوفاة إبراهيم في العام 1980...وعليه يمكن الاستنتاج أن تشكل مريم كناشطة ومناضلة، يتزامن مع بداية تبلور واختمار الحركة النسائية الفلسطينية بجناحيها، الخارجي الممثل بالإتحاد العام للمرأة المرتبط بالفصائل، والثاني المنظمات النسائية الجماهيرية في الوطن.

ثالثاً: الخلاصة

فنياً الرواية تقدم جيلين نسائيين، جيل عائشة التي تحلم بالعودة، بطريقة فردية، فتفقد حياتها ثمناً لفشلها في تحقيق حلمها. أما الجيل الثاني، مريم المتعلمة، فتنخرط لتحقيق المشروع في جهد جماعي فتواجه السلطة العربية القامعة ـ وتقدم التضحيات على هذا المذبح. من جهة ثانية فالشخصيات النسوية، كما الرجالية، شخصيات مؤسطرة في أسمائها وحواراتها وصياغاتها اللغوية، كما في انتظارها للمخلص(إسماعيل).

وهذا له ما يقابله في البنية الاجتماعية. الجيل الجديد الذي يلتحق بالعمل السياسي لتحقيق العودة، عبر الجهد الجماعي، كبديل للجيل الأكبر سناً والذي يسعى فردياً لذلك ولا ينجح. كل محاولات العودة الفردية كانت تقابل بسلسلة من الموانع الصهيونية، بالقانون وبالسلاح. فما ظل غير الجهد الجماعي ليتم اختباره، وهو ما فعلته قطاعات من المرأة اللاجئة بالتحاقها بالمقاومة كخيار. أما الأسطرة الفنية فكانت معادلاً لأسطرة الصراع بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي. إن الرواية وثيقة اجتماعية سياسية حول أدوار جيلين مختلفين من النساء من حلم/ مشروع العودة، ودور كل منهما لتحقيقه.

أما المؤشرات على التحولات فظهرت كالتالي:

1- **الوطني والاجتماعي**. الوطني يبدو من خلال مشاركة المرأة مريم في النضال، وفي إصرارها على طرح الأسئلة الكبيرة على حد تعبيرها. أما الاجتماعي فأظهرته الرواية من خلال تلك المكانة التي منحتها لبنت المبروك ولمريم، كحاضنتين – رحمين، لإنجاب إسماعيل المنتظر. فعائشة كبرت على أن تلعب هذا الدور فكان الخيار(الروائي) مريم، أو بنت المبروك، كخيار يعكس المكانة الجديدة للمرأة في تحقيق حلم العودة.

---

[64]- للوقوف على أثر ارتفاع معدلات تعليم الفتيات وأثره على انخراط المرأة في العمل السياسي، يمكن مراجعة (رلى، 2005) وتحديداً القسم المعد لتحليل المقابلات التي أجرتها معدة الدراسة.

2- **العام والخاص**. هناك تحوير للدور الخاص الإنجابي لدور عام (إنجاب إسماعيل) وهو تحوير رمزي يعكس التحولات في الدور. ومشاركة مريم في العمل السياسي النضالي يشير لتنامي دور المرأة سياسياً ونضالياً مع انطلاق المقاومة.

3- **موقف الآخر**. لم يظهر للآخر(الرجل) موقفاً رجعياً، بل على العكس فأبي عائشة يعتبرها أفضل من حفنة رجال ويحملها حلمه الأسطوري. أما الثقافة السائدة فكانت حاضرة في الطعن بأصل مريم التي ولدت "بلا دنس" دون أبٍ تعرفه.

4- **الدور النضالي**. ويظهر على مستويين: الأول في مشاركة مريم في النضال، والثاني في تحميل المرأة، مريم وبنت المبروك" مسئولية إنجاب إسماعيل المخلص.

استنتاجات القسم

إذا كانت المسألة الوطنية (التحرير والعودة) طاغية لدى الثلاثي(حبيبي وكنفاني والغزاوي) في رواياتهم التي عكست أجواء ما بعد الهزيمة ونشوء حركة المقاومة، إلا أنها بالمقابل اتخذت أبعاداً مختلفة لدى الثلاثة. لدى حبيبي لاحظت الدراسة أن مكانة الكاتب كعضو قيادي في الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وهو حزب اتخذ موقفاً معادياً(لا نقدياً فحسب) من ظاهرة المقاومة الفلسطينية، قد ألقت بثقلها على مكانة المرأة(الطنطورية) في روايته، بحيث اتخذت هي الأخرى ذات الموقف، وأحياناً ذات الألفاظ التي اعتاد الحزب استخدامها في موقفه من العمل المسلح والفدائيين.. فتحليل نص الحوار بينها وبين ولدها ولاء، وتحليل تطور موقفها من الكنز المخفي، دلالة على ذلك.

في الوقت الذي يتخذ كنفاني موقفاً مختلفاً. إن كنفاني، أبن المقاومة وكاتبها، ويحتل موقعاً قيادياً فيها، ولذلك كان هاجس التبشير بالمقاومة، كأمل للتحرير، هو مضمون أم سعد النهائي، بحيث غدت أم سعد، الرواية بالنهاية، صيحة روائية تهلل للكفاح المسلح، وغدت أم سعد المرأة معلمة المثقفين، طريق التحرير.

بالمقابل سلك الغزاوي منحىً آخر. إنه حمل المرأة مشروع العودة للوطن، واستشهدت في سبيله (عائشة بنت عبد المعطي) وحمل المرأة (مريم) دور المنجبة، وهي النشيطة سياسياً، للمنقذ من أجل التحرير (إسماعيل). وعبر المفردات الأسطورية التي تغلف الخطاب الروائي، منح الغزاوي المرأة مكانة هامة في المشروعين، التحرير والعودة للوطن.

ومن جهة ثانية، وإن كانت أم سعد، كامرأة، قد حملت بشرى الثورة، فهذا يتفق والنقلة الهامة في مكانة المرأة الفلسطينية وحركتها المرتبطة بالمقاومة بعد العام 1967، فأم سعد هي الآلاف من النساء اللواتي التحقن بالمقاومة بعد نشوئها.

ولكن يمكن ملاحظة تحولات أخرى في أدوار المرأة مرتبطة بالواقع المأساوي الناشيء بعد الهزيمة. فشخصية (صفية) في (عائد إلى حيفا) تبدو سلبية للغاية، تابعة، ومهادنة، وسانجة، فيما زوجها سعيد على النقيض تماماً. إننا أمام صورتين(أم سعد وصفية) تختلفان اختلافاً بيناً تبعاً للموقع الذي تشغله كل منها في

الرواية، وهو موقع تشغله في الحياة. فصفية تحمل الهزيمة المرة في داخلها، وهي هزيمة طازجة تماماً، لم يلحق الشعب أن يرد عليها بالمقاومة، فيما أم سعد تنفض الهزيمة، وقد نفضها الشعب وحمل السلاح. وحتى البيئة المكانية، بما فيها من مدلولات سياسية، تلعب دورها هنا: فصفية ابنة رام الله وأم سعد ابنة المخيم، رغم أن الاثنتين لاجئتان، ولكن اللجوء لرام الله ليس كاللجوء للبنان، كذلك يمكن ملاحظة الخلفية الطبقية للشخصيتين وتأثير ذلك على سلوكهما، فصفية من الأوساط البرجوازية المتوسطة[65]، فيما أم سعد من الفلاحين المقتلعين من أرضهم.

هنا تلحظ الدراسة ما للبنية الخارجية من تأثير على مكانة ودور المرأة والتحولات على تلك المكانة. ما قبل العام 1967 يصعب الحديث عن دور نضالي بارز للمرأة، فقد اقتصرت الصيغة الأعم والسائدة على نشاط النساء في الجمعيات الخيرية التي تقف على رأسها نساء من العائلات التقليدية الأرستقراطية، بينما بعد نشوء المقاومة، بدأت المرأة تحتل مكانتها، كحركة نسوية وكقطاع، في الجسم الأساسي للمقاومة الفلسطينية، وكانت نساء حركة المقاومة من الفئات البرجوازية الصغيرة المتعلمة والفئات الشعبية على العموم. وهذا ما عالجته رواية (جبل نبو) أيضاً: فعائشة خاضت تجربتها الفردية للعودة وفشلت واستشهدت، فيما مريم انخرطت في النضال الجماعي للحركة السياسية الفلسطينية، فغدت مبشرة بالمنقذ- الثورة.

أما الثقافة السائدة فقد كانت حاضرة بقوة في أم سعد الرواية. فأم سعد استبدلت الثقافة الدينية الغيبية (الحجاب) بثقافة ثورية تستند لممارسة ثورية(الرصاصة من سعد)، ولحظت الدراسة ما لتجربة الكدح لدى المرأة من أهمية في بلورة ثقافة طبقية أيضاً. إن في هذا مؤشر على بنية ثقافية بديلة لا زالت جنينها تحبو، وستلحظ الدراسة تعززها أكثر في مراحل متقدمة، بالتجاور مع نمو دور النساء ومساهمتهن في النضال ومكانتهن في العمل والتعليم.

[65]- نستدل على ذلك من ملمح ملكية سعيد زوج صفية لسيارة قبل العام 1948 وفي رام الله في العام 1967 وفي المرحلتين كانت ملكية السيارة مظهراً دالاً على مكانة برجوازية.

القسم الرابع
المرأة في الزمن الانتفاضي
تزاوج الوطني والنسوي

المرأة كانت في صلب الحدث الانتفاضي في العام 1987، أثرت فيه وتأثرت به، والرواية لاحقت ذلك أيضاً. كثيرة هي الروايات التي تناولت مكانة المرأة في الانتفاضة، ولا يعود السبب فقط لقدرة الروائيين على التقاط ضرورة دمج نصف المجتمع في رواياتهم، بل لأن "نصف المجتمع هذا" انتقل مع الفعل الانتفاضي من الحيز العام الذي تشكل في إطار المقاومة الفلسطينية في الفترة السابقة على الانتفاضة، إلى الإطار الأوسع: النضال الجماهيري في الوطن. فرغم نشوء حركة نسائية فلسطينية كجزء من منظمة التحرير في الخارج، ورغم المشاركة الملحوظة للنساء في العمل المسلح، إلا أن هذه المشاركة إنحكمت بمعطيين اثنين: الأول، ارتباطها التنظيمي بالمنظمة وما جره هذا عليها من سلبيات، إضافة للإيجابيات. والثاني تركزها خارج الوطن بشكل رئيسي.

أما الحركة النسائية التي تشكلت في الوطن عشية الانتفاضة- ومررنا على ذلك مطولاً في القسم الثاني- فابتعادها عن مركز القرار التنظيمي للفصائل، وفر لها هامشاً واسعاً من الاستقلالية، ما أضفى طابعاً ديموقراطياً أوسع على بنيتها، كما أن ارتباطها بالانتفاضة، وتعمق بنيتها فيها، أكسبها ما للانتفاضة من ميزات، طابعها الشعبي- الديموقراطي.

الفصل الأول

نزهة: المناضلة المطعون بنضالها

لم تكن نزهة بفاقدة للإحساس والشعور الوطني عندما صاحت في نهاية رواية (باب الساحة) لسحر خليفة تبرر خطوتها الوطنية:" مش عشان الغولة، عشان أحمد"(22)، والغولة فلسطين وأحمد شقيقها الشهيد. فتجربتها في النضال ضد الاحتلال، ومع سكان الحارة القديمة في نابلس، وأخيراً مع شقيقها، قادتها لذلك. وهي إذ قالت ذلك فقد كثفت موقفاً اختصر مساراً بأكمله، مسار مناضلة وعاهرة في آن، أخذت الغولة منها لا شقيقها فحسب بل ومكانتها في الحارة. إنها صيحة تتضمن مقولتي الوطني والاجتماعي في نضال المرأة وقد تجسدتا في نضال نزهة.

أولاً: السياق الداخلي للرواية

باب الساحة، مكان الأحداث واسم الرواية، حارة في البلدة القديمة في نابلس. أما زمن الرواية فهو الانتفاضة الشعبية 1987، لذلك فالمكان يَعُجُّ بالمطاردين(حسام وأحمد)، وبنساءٍ تدور في فلك الفعل الانتفاضي اليومي، والهموم الاجتماعية اليومية لهن. حسام وبعد ملاحقة من الجيش يلجأ مضطراً إلى بيت نزهة، ونزهة مناضلة وسجينة سابقة، خانها رفيق نضالها(المربوط) عاطفياً، تعاني البؤس الاجتماعي في عائلة منبوذة لسلوكها(علاقات مع الإسرائيليين وحفلات داعرة يومية) تدفع أمها ثمنه عندما تلقى "كعميلة" مقتولة عند باب الساحة. لظروف اجتماعية تغدو نزهة عاهرة وتُنبذ من سكان الساحة. أحمد شقيق نزهة المطارد يقرر القدوم متسلحاً ببلطة ليضع حداً لحياتها. تنقذها سمر، الفتاة الجامعية التي أحبت حسام، ولو متأخرة، فيما الأخير بدأ حبه

يتلاشى لسحاب. تهرب نزهة ويستشهد أحمد فتلتحق هي بسكان الحي الذين يقررون، وتحت قيادتها، هدم باب الساحة الأسمنتي الذي بناه الاحتلال.

ثانياً: تناقضات الموقف من النساء

ولأن "نزهة" محور الحدث الدرامي الأساسي في الرواية، فمن خلالها ومن الموقف منها، نتعرف على جملة العلاقات الاجتماعية في الحارة، وهي علاقات يتسيد فيها الرجل وتسحق المرأة، هذا من جانب، ومن جانب آخر نقف على مكانة المرأة في النضال الانتفاضي، فنزهة في صلبه. لذلك من المفيد التعرض، بتفصيل، لمسار نزهة كشخصية/ محور.

في حواريها الأساسيين، مع سمر(ابنة الحارة المتعلمة والمثقفة) وحسام المطارد الذي لجأ إليها مضطراً ومصاباً، تسرد نزهة "تاريخ حياتها" الوطني والاجتماعي. ناضلت واعتقلت ولكن المربوط خان نضالها، وتعبر عن ذلك لحسام في الحوار المتوتر الذي دار بينهما"

- كمل، كمل. قول واحدة سافلة، قول واحدة ساقطة، قول عميلة وبنت عميلة"

ظل يتأملها بدهشة. واصلت بتحدٍ:

- أكثر من هالقرد ما سخط الله. أمي وذبحتوها وأنا حطمتوني وضربتوني وانسيتوا إني انحبست مثل ما نحبستوا.
- وطلعت بكفالة.
- وعاصم المربوط بإيش طلع؟ وهاي هو ماشي عرضين وطول. صدق اللي قال: أمرين ما حدا دريان فيهم: موت الغني وتعريص الفقير. أنا من يوم ما خرجت من السجن لا عرفت بالسياسة ولا بدي أعرف. وليش أتدخل وأورط حالي؟ عشان واحد مثل المربوط يطلع فوق وأنا أنزل تحت؟
- إنت وهالدار.
- مالها هالدار؟ من يوم الانتفاضة ولا طير غريب
- وقبل الانتفاضة كل يوم غريب.
- ومن الجملة أبوك (74-75)

قالتها بوجهه بجرأة. فأبوه كان من زبائن البيت، وفي بيته صاحب سطوة، حتى شراء زوجته لجرابات كان يحتاجها التحايل والمداراة حتى يفعل. وعندما صُفع حسام بحقيقة والده(وهو يعرف الكثير عنه) وبأنه من رواد بيت نزهة، حدث نفسه قائلاً: " أمثال الوالد لا يقحمون بحوارٍ كهذا. بخيل نعم. قاسٍ نعم، رجعي، أناني، انتهازي، مرابٍ، لكنه ليس عميلاً. فليفهم هذا أمثال نزهة. أعمال التجسس ليست كأعمال التجارة، وتسليم الشباب ليس كتسليم البضاعة، وبيع الأرض ليس كبيع رؤوس البشر" (77).

ونزهة كانت أحبت المربوط، ولذلك كان حبها مدخلها للنضال، من أجله ومن أجل حبه. ولكنه أدار ظهره بعد السجن و" طلع فوق ونزلت تحت". فالمناضل خانها، وحسام والشباب أخذوها بجريرة أمها" وليش قيدتوني على حسابها وما قيدتوني على حسابه"(75) أي لماذا أُخذت بجريرة أمها المقتولة بتهمة العمالة، ولم "تحسب"

على شقيقها أحمد الوطني المطارد مع المطاردين.؟ وفي صيحتها الأخيرة تقول خليفة، على لسان نزهة، الكثير. فالانتفاضة، إذ استثمرت جهد النساء(مشاركة نزهة للمربوط)، إلا أنها في تقييم دور نزهة انطلقت من بنوتها للمشبوهة أمها، ولم تنطلق من أخوتها للمناضل شقيقها. تماماً مثل الذي يعصر الليمونة ويلقي بها، ونزهة عُصرت تماماً: استثمرها المربوط حباً ونضالاً، واستثمرها أبو عزام (والد حسام) جنسياً، وفي الأخير عُزلت اجتماعياً (قاطعتها الحارة)، وحسام يحاسبها وشقيقها يطلب رأسها!

ولكن هذه الصورة السوداوية للانتفاضة في موقفها من النساء، يقابلها صورة ايجابية. فالنساء يتغيرن مع الانتفاضة ويبدأن بطرح الأسئلة لينتقلن بعدها للفعل: سمر تبدأ بالتشكيك في حقيقة كون سكينة(أم نزهة) عميلة، والحاجة زكية بعد أن كانت تلعن بيت سكينة، تبدأ تشك في عمالة الأخيرة، وحسام يبدأ بالتفكير فيما تقوله نزهة، ودون أحكامه المطلقة السابقة، ونزهة أخيراً يعلو صوتها بالاحتجاج. وبعد سلسلة الأسئلة يأتي الفعل: أم عزام تهجر البيت متمردة على سطوة أبو عزام وتنكيله بها، فتلجأ لشقيقته زكية(أم الشباب)، زكية تتفهم تشكيك سمر بقرار الشباب إعدام سكينة فتنهي مقاطعتها للبيت ولنزهة، بل تأخذها بحضنها، وسمر تتمرد على قمع العائلة وتلتحق بحسام المطارد، كحبيب، وأخيراً تنتقل نزهة من الاحتجاج والصراخ للفعل بمشاركتها الشباب في تدمير الباب، حتى لو من أجل أحمد لا من أجل الغولة، أما حسام فيعلن ثقته بنزهة أخيراً. وكل الأسئلة والانتقال للأفعال يتم عبر الحدث الانتفاضي وبتأثير منه.

وفي الرواية نصوص كثيرة تؤشر للتناقض في الموقف الانتفاضي من النساء. تقول زكية وهي تجيب على أسئلة سمر حول (تأثير الانتفاضة على وضع المرأة): " يعني شو بدك أقول؟ صارت ترشق حجار وتخاص الولاد وتخبي الشباب وتتظاهر؟ مفهوم، بس همها زاد كتير كتير. همومها القديمة بقيت على حالها وهمومها الجديدة ما بتنعد..." (20). تسللت المرأة للعام بفعل الانتفاضة، ولكن هذا أضاف عبئاً جديداً فوق عبء الخاص الذي بقي على حاله" حبل وميلاد ونفاس ورضاعة وغسيل وقش ومسح وطبيخ ونفيخ ونكد الجوز وهم الولاد"(20) ولكل ذلك تلخص وتدعو زكية" بصراحة ما تغير عليها إلا الهم. همها زاد وقلبها انحرق، قولي الله يكون لهانسوان معين"(20)

ثالثاً: الموقف النسوي المؤدلج

وإذا كانت الحاجة زكية قد عبرت عن التأثير الانتفاضي ببساطتها، فإن مكون الوعي لدى سمر يتدخل للتعبير بصورة إيديولوجية عن هذا التأثير. فسمر خريجة جامعية وموظفة ومن عائلة كادحة(فرن عائلي) تنتمي لجمعية نسوية وتشارك في أنشطة ثقافية للجمعية وفي النضال الانتفاضي في الحارة..لذلك فهي تعبر عن تيار الوعي والتنظيم الذي أخذ يتسلل قبل الانتفاضة في القطاع النسوي المنحدر من أصول شعبية(نفهم من النص أنها كانت نشطة في الجامعة أيضاً). فإخوتها وتعليقاً على نزوعها للنضال والانتظام قالوا لها: "إحنا اللي ندافع ونقاوم، وأنت عيرينا سكوتك وبتقعدي حيالك وبترتاحي" (134) فتفهم ذلك وتؤدلجه في تداعيات داخلية " أيام ذهبية كالميلاد- أيام الانتفاضة- يولد المرء في الثورة مئة مرة، ويموت ألوفاً لا تُحصى، **والثورة ليست**

كالصاروخ بل نهر سيال يتدفق. أحياناً ينخسف الإمداد ويشح المطر ولا يهبط، ويمرّ النهر بوقت عصيب، ويبدو رفيعاً مهزوزاً كخيوط الحرير. **وأحياناً يندفع كبركان هائج يكسح ويضج ويتكسر**....ثم الدورة، **وتعود الثورة للواقع، وتعود الصخرة تتدحرج لمهاوي الوادي، ويعود سيزيف إلى حمله"**

فالثورة التي تطالب بها سمر لتغيير واقعها لن تغير ذلك بضربة قاطعة كما الصاروخ، بل بتدفق النهر، بعملية تراكمية طويلة وشاقة، فما تواجهه المرأة لا يمكن القضاء علية بضربة واحدة وللأبد. وسمر، كمثقفة، تعي ما تواجهه: القمع المركب، الوطني والطبقي والجنسي، ولكن إخوتها يحورون (القمع) إلى (تقميع البامية) و(المركب)، (لركوب) المرأة، و(الانسحاق) (لمساحيق التجميل)!! لذلك تجدها تتصدى في نقاشات الجمعية لبنات الفئات البرجوازية اللواتي يعتقدن أن تحرر المرأة إنما يتحدد من قدرتهن، كبرجوازيات، على الإعلان فحسب عن التحرر داخل حدود النقاش! وسمر تتصدى لهن بقولها" الدرب طويل ومعقد" (134) لأن ابنة" المحامي والدكتور ورئيس البلدية والتاجر، يجئن في الصيفية من لندن ونيويورك ويرطن بالعربي الركيك ويقلن عن القمع(كمع) وعن المرأة(مز) وعن الرجل (شوفينيست)" (134) وبالتالي لا يعرفن ما يجري في الأوساط الشعبية، بل يتصورن أن التحرر رهن بإعلان موقف لا أكثر، فصاحوا بها بثقة، فيها من الجعجعة ما فيها، " بل الدرب هنا ونسير عليه"(134).

هنا واقعان: واقع النساء المنحدرات من الأوساط البرجوازية اللواتي حملن ثقافة الغرب الذي يقمن فيه، فتخيلن أن التحرر رهن إعلان موقفهن في تأكيد صارخ على انعزالهن، والموقف الثاني، سمر المنحدرة من الأوساط الشعبية التي تدرك بتجربتها المعاشة، لا من النظريات، أن" التغيير لن يكون بقيام الدولة، أمور السياسة ليست كالأخلاق، ولا كالدين ولا كالجمال. أمور السياسة قد تحسم، أما العادات، أما المرأة"(134) فدربها طويل ومعقد. لذلك عندما صاحت البرجوازيات (الدرب هنا ونسير عليه) ردت بنت الفران والبلدة القديمة المثقفة " هنا في الزقاق؟ هنا في حارة القريون؟ هنا في الياسمينة وخان التجار؟ هنا أمام المتوضأ والجامع في باب الساحة بنص البلد؟" لتؤكد عجزهن عن فهم واقع المرأة. فصادق أخوها، يقول عنهن" بإيمان راسخ: هذول البنات الممحونات مش لاقين حد يهديهم. ابعثوهم عندي ورا الدكة علي الحرام لأداويهم" وهو نفسه حاول أن (يداوي) نزهة بأخذها(ورا الدكة) فتركت العمل في الفرن، وهو الذي يتنطح لسمر (إحنا اللي ندافع ونقاوم...).

لكن الواقع يتغير. أحياناً لا يمشي مشياً، بل يقفز قفزاً كالقطة....وأحياناً يندفع كبركان هائج"(135) ومن دلالات ذلك أن صادق وأخوته شاهدوا ما لم يشاهدوه في حياتهم" لا للمظاهرة. وفوجيء الأخوة بالمظاهرة تأتي للنسوة في قعر الدار. لا للخروج والبهدلة، وجاءت البهدلة إليهن في غرف النوم، واشتبكت النسوة بالأيدي، وصحن وتبادلن الشتائم، والتحمن بالجند وهن بملابس النوم والشعر المنبوش...". فرغم الموقف المعادي للنساء وخروجهن لحيز النضال في الشارع، جاء النضال إليهن، فالقمع لا يوفر أحداً في الشارع أو في البيت. أما أنهن قد " نزلن إلى الشارع بلا تخطيط، وطاخ دي، ويا دين الثورة حرام النوم" (135) فيمكن المجادلة بذلك.

عفوية الانتفاضة أقر بها كل محلليها، ولكن قيادتها، بعد لحظة انطلاقها العفوي، أمر مؤكد. فالحرث الفصائلي-إن جاز التعبير، في قطاع النساء، تثقيفاً وتنظيماً وبناء أدوات، كان قبل الانتفاضة، ومشاركتها بالتالي، ليست عفوية تماماً. وفي النص ما يشير لذلك أيضاً: فسمر نشيطة في الجامعة، تشارك في النشاط الثقافي النسوي، وتتحدث لأخوتها عن ضرورة التنظيم.. وكل ذلك ينفي العفوية الإطلاقية كما يلمس من النص.

وسمر تعاني الأمرين: عنف الأخوة، " وجلاميد صخرٍ تسد الطريق" في إشارة للبوابة المسدودة/ للموقف الرجعي من مشاركتها في النضال، ولموقف الاحتلال في آن. وهي عندما أحبت حسام وربطت مصيرها به، قالت لها نزهة، من واقع تجربتها المأساوية: " ولك يا هبلة كيف يمشي ورجله كسيحة؟ قوليلي كيف يمشي ويطير من غير جناح؟ قوليلي كيف، قولي، قولي"(212). فموقف رجعي من المرأة لا يؤسس لعلاقة حب ونضال، والأكثر أن موقفاً رجعياً من المرأة يجعل الثورة كسيحة وبلا أجنحة.

وثقافتها جعلتها تدرك أن قضايا المرأة تحال على العادات والتقاليد والدين...وليس على قرار سياسي. لذلك لم يكن من الغريب أن في اللحظة التي " تركها أخوها حطاماً: شعر منبوش، صدغ متورم، علامات زرقاء ودوامات، ونجوم تنطفيء وتتساقط في عينيها"(137) في ذات اللحظة " انطلق الآذان فجأة فأحست بالموت...." فالدين مكون ثقافي يجيز دونيتها وضربها وسحقها.

وسطوة الدين لا تواجهها سمر فحسب، بل ونزهة أيضاً، فهي عندما تتحدث عن أخيها الكبير تقول" كان يزهقنا عيشتنا وعامل علينا شيخ مشايخ. ويا ريته هو التاني كان منظوم! كان داير وداشر ويشتغل في إسرائيل ويجيب معاه بنات ويقعدلي في الحاكورة ويحششوا حتى الصبح. يعني كان يعمل السبعة وزمتها ويتشاطر علينا" (95) فالزيف في السلوك الرجولي المتلفع بالعباءة الدينية حاضر. كما حضر أيضاً نموذج أبو عزمي البخيل على زوجته والقامع لها، وفي الوقت نفسه الكريم في بيت نزهة والمدلل لها ولأمها.

رابعاً: في تقابلات البنيتين، الخارجية والداخلية

تنتظم البنية الداخلية في الرواية على قاعدتي المكان والزمان: **الأول** يتمثل بباب الساحة في الحارة القديمة من نابلس، والثاني في زمن الانتفاضة داخل البلدة القديمة. أما المحور الأساس في تطور الحدث الدرامي فهو المحاولات الاحتلالية العديدة لإغلاق باب الساحة بالبراميل والاسمنت، ومحاولات الأهالي فتح هذا الباب. وتنجح خليفة ببراعة في إعطاء الباب تمثيلاً يعكس بؤرة التناقضات في الرواية، التناقض مع الاحتلال والتناقض بين الثقافة الذكورية الرجعية والمرأة. إذ كان باب الساحة نقطة الاشتباك الأساسية، لفتحه، وللانفتاح خارج الحارة بالتالي، كان تالياً، تمثيلاً لمحاولات الاحتلال منع الانطلاق والتحرر. ولكن باب الساحة له تمثيل آخر " وانقلبت الساحة الحجرية المسماة بباب الساحة إلى مسلخ يُعلق فيها العملاء على الكلابات مثل الغنم. وسموها الساحة الحمراء. وهناك على درجات الجامع وسط الساحة وُجدت سكينة وفي صدرها مقبض سكين"(39) فالباب تمثيل لسطوة الرجل(هناك تشكيك بعمالة سكينة أصلاً في الرواية) وظلمه

للمرأة، إنه" صورة مكثفة للتناقضات التي تحكم وعي الانتفاضة، إذ التمرد على العدو لا يضمن تمرداً على الوعي التقليدي"(دراج في مناصرة، 2000: 351). والجامع(الدين) هنا بدا كأنه يقدم المرجعية للسلوك الذكوري. فباب الساحة إذن هو التمثيل الأكبر الذي يجمع تناقضي الرواية الأساسيين ويعكس تشابكهما/الوطني والاجتماعي.[66] ويلحظ أبو بكر (أبو بكر في نحو دراسة تأصيلية للرواية الفلسطينية المعاصرة، 2000: 82) أن سحر خليفة أدركت التحول في الحالة السياسية الانتفاضية فلم تجعل " الشخصيات الفاعلة تنتمي إلى عائلات بعينها بل إلى مجموع الوطن" ومن هنا كان التشابك، على المستوى الوطني بين الوطني والاجتماعي الذي عنيناه.

ومحاور صراع عديدة تدور في فلك هذا المحور، وتتشابك لتقدم لنا لوحة متكاملة من الصراعات المتداخلة، وعلى ذات القاعدتين سابقاً. يمكن بتكثيف تحديد محاور الصراع التالية في الرواية:

1. الصراع المحوري هو بين الاحتلال وبين الأهالي في البلدة القديمة في الزمن الانتفاضي، ومعه، وربما بذات المستوى، الصراع بين نزوع المرأة للمشاركة بالنضال والتحرر ومعاملتها كإنسانة، وبين الموقف الرجولي الرجعي المانع لها.
2. الصراع بين الأهالي من جهة وبين بيت سكينة المشبوه، كنتاج للصرع الثاني أعلاه، ونزهة ركنه الأساسي في الزمن المحدد روائياً. وقد حسم الصراع من حيث الجوهر بثلاثة تطورات أساسية: فك الحاجة زكية مقاطعتها لبيت نزهة، تشكك حسام من اتهام الشباب لنزهة ومن ثم إعلان ثقته بها. وأخيراً، التطور الأهم، مشاركة نزهة للشباب في الهجوم على البوابة، بل هي مَنْ أرشدهم وابتدع لهم آلية هدم البوابة.
3. الصراع بين نهجين في النظر لقضايا المرأة: نهج النساء المنحدرات من أوساط برجوازية، ونهج سمر المنحدرة من الفئات الشعبية. وهذا الصراع ظل على حاله، كتناقض في التوجهات، رغم أن الغلبة في الزمن الروائي وحسب معطيات الرواية، تزكي صوابية النهج الثاني.
4. الصراع بين سمر وعائلتها الكادحة، بين توجهها للمشاركة في الحياة السياسية والنضال ودعوتها لتحرير المرأة، وبين موقفهم الرجعي منها ومحاولات إقصائها عن لعب دور نضالي.
5. الصراع الداخلي الذي يتفاعل داخل كل شخصية على حدة حتى كان من أبرز علامات الرواية وقوتها: داخل حسام وزكية وسمر في موقفهم من نزهة، داخل حسام في موقفه من حب سحاب، داخل أم عزمي في مواجهة رجعية أبي عزمي.
6. الصراع بين نزهة وأخيها المناضل، الذي حاول قتلها بالبلطة، فيما هي انخرطت في النضال، من جديد، من أجله.

---

[66]- أشار مناصرة(2000: 350) لذلك وإن بلغة أخرى. ولكنه لاحظ جوهر التشابك بين القضايا الاجتماعية والوطنية في صراع المرأة والرجل.

7. الصراع داخل التنظيم بين دور المرأة في النضال(نزهة) وبين الرجل المناضل (المربوط) الذي خان رفيقة نضاله.
8. طابع التناقض والتشابك، بصيغة صراعية، بين المهام الوطنية للنساء في البلدة، وبين مطالبهن الديموقراطية ضد الظلم الاجتماعي(نزهة وأم عزام).

وهذه المحاور الصراعية لها امتداداتها الصراعية، الاجتماعية والسياسية، كما يلي:

1. الصراع الأشمل بين الاحتلال والشعب الفلسطيني.
2. الصراع بين سعي المرأة لمكانتها السياسية والاجتماعية ولتحررها من الاضطهاد الاجتماعي، وبين السلطة الذكورية القمعية التي تستند لموروث ديني/ بطريركي يقاوم هذا السعي وذلك التحرر.

أما تطور الحدث الدرامي وتطور المواقف(طرح الأسئلة واتخاذ الخطوات) فينسجم مع ما تركته الانتفاضة من تأثير: على توسيع مشاركة المرأة وعلى طابع علاقات القوة التي بدأت تتأثر بالفعل الانتفاضي، باتجاه تغيير محدود في علاقات القوة.[67]

خامساً: قضية المرأة/ القضية المركبة

يحضر البعد الطبقي في الرواية حضوراً كبيراً، إن كان لجهة الانتماءات الطبقية للشخصيات (النسائية بشكلٍ خاص)، أو كان لجهة تأثير القضية الطبقية على مكانة المرأة. من الجهة الأولى فالمكانة الطبقية لنساء الرواية يمكن جدولتها كما يلي:

التمثيلات الطبقية/ الاجتماعية للشخصيات الروائية النسوية

الشخصية الروائية	المكانة الطبقية/ الاجتماعية
نزهة	مناضلة وسجينة/ عاملة فرن/ مومس/قائدة طلابية في المدرسة/ من عائلة فقيرة
سمر	خريجة جامعية وموظفة/ مثقفة ونشيطة نسوية/ من أصول شعبية/أبوها فران وأمها بائعة خبز وقسماط
الحاجة زكية	قابلة فقيرة محرومة من الميراث
أم عزام	ربة بيت/ مضطهدة ومقموعة من زوجها
اللواتي يدخن الكنت ويلبسن جاكيتات الجلد	نشيطات نسويات في حدود النشاط الثقافي/ من أصول برجوازية متغربنة بحكم الثقافة ونمط الحياة والمنشأ.

[67]- كانت الدراسة أشارت لذلك في القسم الثاني منها.

التمثيلات الطبقية/ الاجتماعية للشخصيات الروائية الرجالية

الشخصية الروائية	المكانة الطبقية/ الاجتماعية
حسام	مناضل مطارد/ من أصول برجوازية متوسطة، يتمرد على سلطة أبيه (أبو عزمي) بعد الاعتقال
أحمد	مناضل مطارد/ من عائلة فقيرة
أبو عزام	من البرجوازية المتوسطة/ عمل في الخليج/ سرق ورثة إخوته من أبيه
صادق	عامل فرن مع والده.

بالاستناد للتمثيلات الطبقية/ الاجتماعية أعلاه يمكن التقرير أن خليفة دمجت بقوة بين الأبعاد الثلاث في علاقات القوة بين المرأة والرجل(الوطني والطبقي والجنسي)، ولكن ما كان للأبعاد تلك نفس التأثير على علاقات القوة كما ظهرت في الرواية. فمن ناحية تبدو علاقات القوة فوق الانتماءات الطبقية، فكل الرجال، سواءً انتموا للفئات الشعبية(أحمد وصادق) أو البرجوازية(حسام وأبو عزمي) يتخذون ذات الموقف من المرأة، ونفس الشيء يقال عن الانتماء للتنظيم (أحمد وحسام)، ما يحيل للوهلة علاقات القوة على الثقافة والدين والعادات أكثر منه على التركيب الطبقي، وأيضاً على التجربة السياسية الممارسة عبر الانتفاضة. كل التحولات التي جرت على علاقات القوة كانت نتاج لتلك الممارسة، ما يؤكد أثر النضال الوطني في التأثير على علاقات القوة. بينما تعلم سمر وتخرجها من الجامعة واستقلالها اقتصادياً لم يملك هذا التأثير، وأيضاً التحاق حسام وأحمد بالتنظيم وقبلهما المربوط لم يفعل، ما يعكس وجهة النظر القائلة إن التنظيم السياسي(ولا يظهر في الرواية طبيعته من الناحية الفكرية) لا يفعل سوى أن يعيد إنتاج علاقات القوة نفسها(علاقة نزهة بالمربوط). وتلك الأخيرة قد تكون نقطة ضعف الرواية(إضافة لنقاط أخرى)، إذ يصعب في رواية تطرح علاقات القوة بين المرأة والرجل في ظل الانتفاضة، عدم ملامسة ما لاختلاف البنية الفكرية للتنظيم من أثر على هذه العلاقات.[68]

أما ما يمكن ملامسته من هذه الانتماءات الطبقية/ الاجتماعية فهو التسيد السياسي على الانتفاضة لممثلي الفئات الشعبية ومناضلي التنظيمات الشباب، وهذا ملمح، بل الأبرز، بين ملامح عدة طبعت الانتفاضة. فالقرار قرار حسام وأحمد، وأحياناً النساء، وكذلك المبادرات. لقد كانت الفئات الشعبية هي محور الحدث وهي المقررة في توجيهه. وهنا كان للنساء دور مميز في قيادة الحدث. إن كان في الاشتباك المشهور الذي

[68]- للوقوف على هذا يمكن مراجعة (أبو دحو، رلى، 2004) رسالة ماجستير غير منشورة- معهد المرأة- جامعة بيرزيت. وأيضاً كتاب (الانتفاضة مبادرة شعبية، 1990)

جرح فيه حسام، وقادته سمر، أو كان في تشكيل النساء دليلات للشباب في مواجهة الجيش والهرب من بين أزقة الحارة.

ولكن الدلالة الأكبر تبقى في موقع نزهة من الانتفاضة. فهي لا تكتفي أخيراً في المشاركة بالنضال(عشان أحمد مش عشان الغولة) ولكنها هي من يخطط وينفذ: للتسلل إلى باب الساحة المغلق وهدمه. إنه دور قيادي دون شك، وإن كان لا يعكس تماماً مكانة المرأة في الانتفاضة، إلا أنه، بلا شك، جاء تطوراً منطقياً لسياق الحدث الروائي: فبيتها يملك معبراً سرياً للساحة، ولا تنقصها خبرة الريادية من أيام الثانوية، وأخيراً فمقتل شقيقها دفعها لموقعها دفعاً.

سادساً: نساء الرواية بين الحقلين، الخاص والعام

كل مسار الرواية يتحدد في الصراع بين النزوع نحو تأكيد أحقية النساء في المشاركة في الحقل العام وبين التسلط الذكوري الذي يدفع باتجاه ملازمتهن للحقل الخاص. ولعل التعبير الأكبر عن ذلك قول إخوة سمر لها" إحنا بندافع وبنقاوم، وأنت عيرينا سكوتك وبتقعدي حيلك وترتاحي" فالمرأة للبيت (الحقل الخاص) والرجل للنضال(الحقل العام)، ويبدو تأثير الانتفاضة معدوم هنا على الأخوة الخمسة.

ولكن، بالمقابل، فتأثير الانتفاضة على النساء يختلف. إنه حفز نضالهن للخروج للحقل العام" دخلت المظاهرة للبيت واشتبكن مع الجيش وهن بملابس النوم والشعر المنبوش"، وكي لا يفهم من ذلك أن دخولهن كان "توريطا" انتفاضياً، نواجه حالتي سمر ونزهة اللواتي خرجتا للعام بوعي وإدراك. فنزهة التحقت بالتنظيم(حتى لو كان إرضاءً للمربوط) وسمر التحقت بالنشاط الطلابي والثقافي في الجمعية)..وهنا يمكن ملامسة(لا أكثر من إشارة ملامسة) لدور التنظيم في المساهمة بخروج النساء للحقل العام.

ورغم أن الحاجة زكية كانت قابلة، قبل الانتفاضة، إلا أن الأخيرة دفعت بها الأخرى، ليس لنقاش علاقات القوة فحسب، بل والمشاركة في الحقل العام. كل نساء الحارة، عند الاشتباك مع الاحتلال واحتياج الشباب للمساعدة، ينتقلن في لحظة من الحقل الخاص للعام...

وتبقى نزهة هي التمثيل الأبرز للصراع بين الحقلين. فحقلها الخاص أخذ أبعاداً إضافية. إنه ليس مجرد حيز لحجز الطاقة وتحديد المهام وتجسيد لتوزيع الأدوار غير العادل، بل غدا مؤشراً وتجسيداً على التسلط الذكوري بأقصى أشكاله. فحقلها الخاص سجنها بكل ما في الكلمة من معنى، وجودها فيه يجسد موقف الحارة الأشمل(الاتهام بالدعارة وبالتالي المقاطعة) لأن هذا الحقل كان مرتعاً للحفلات الداعرة فيما سبق الانتفاضة، وعليه حولته الحارة(بنسائها ورجالها) لحقل/ سجن. فحقلها الخاص مركب بقمعيته، بصفته خاص من جهة وبصفته منفى عقابي من جهة ثانية.

سابعاً: النزوع "الجندري"[69] في تشكيل الشخصيات

قبل نقاش هذه القضية المفصلية، لا بد من استعراض هذا التشكيل للشخصيات الذي قدمته خليفة في روايتها، لأنه هو بالذات، مع سلوك هذه الشخصيات ومواقفها، يشكل المدخل الأبرز لذلك النزوع الجندري لدى خليفة. وإذا كانت علامات قوة الرواية، فنياً وضمنياً بارزة، وقد عرجت الدراسة عليها فيما سبق، غير أن سمات الضعف الأساسية يمكن تحديدها، بل هي تتركز، في بؤرة مكثفة واحدة: رسم الشخصيات ومواقفها.

كل شخصيات الرواية الرئيسية تبدو نمطية إلى حدٍ كبير، صيغت ملامحها "وأُنطقت" بما يخدم موقفا أو نزوعاً "جندرياً" هو بالنهاية أيديولوجي، عند سحر خليفة. فنزهة تصاغ ملامحها كما لو كانت حالة دراسية نموذجية لإظهار القمع الطبقي والسياسي والجنسي الذي تعانيه المرأة. فقيرة، تزوجت زواجاً مبكراً، عانت من زوجها، دفعها الفقر للتدعر، ناضلت وظلمها رجل التنظيم والمجتمع، ظُلمت فطمع الرجال بها، تساند أخاها وتحلم بحياة هانئة معه فيما هو يقابلها بالبلطة،...وبالنهاية تلعب دوراً إنقاذياً. "فوراء عذابها يقف ذكر أو مجموعة من الذكور، أو المجتمع الذكوري كله" (دراج من مناصرة، 2000: 249)

والسؤال الأول الذي ينتصب أمام الدراسة: لماذا هذا النزوع دائماً لتقديم صورة " المرأة المومس" وجعلها" ضحية بامتياز" و"منقذاً نهائياً" فيما الرجل بالمقابل " الشر المطلق" أو يكاد؟ هل على المرأة أن تكون مومساً حتى تكون ثورية؟.

بداية لا بد من الإشارة إلى أن نموذج "المرأة المومس" ينتشر في الرواية العربية والفلسطينية لدرجة بات معه هذا الانتشار تقليداً يفتقد الإبداع. ومن أوائل من نحت هذا النموذج نجيب محفوظ في (اللص والكلاب) في شخصية (نور) مع الفارق أن (سعيد مهران) كان الضحية الأساسية لا (نور)، ونحته حنا مينا في(الشمس في يوم غائم) في شخصيته (امرأة القبو) وكان الضحية الأساسية (ابن الإقطاعي) لا (امرأة القبو). ربما يعود السبب لغير نسخ النماذج، بل لما يجده الروائي من أهمية الجنس "المحرم" في الثقافة السائدة- محرم على النساء لا على الرجال- من جهة، والمستغَل من جهة أخرى من الرجال وضد النساء..نقول ربما يجد في ذلك علاقة إشكالية تتأسس عليها، أو تكون هي، بؤرة علاقات عديدة يجري فحصها، على الأقل هذا ما كان لدى محفوظ ومينا. أما لدى خليفة فتبدو المسألة مختلفة. وتحديداً لجهة الاطلاقية في رسم التاريخ الاضطهادي للمومس، بملامح نموذجية تجرع القارىء التعاطف معها تجرعاً. فتتحول المومس لشخصية مرسومة سلفاً، معطى سابق أعطي لمرة واحدة، وما عليك كقارىء سوى التعاطف مع هذه الشخصية، فمن سيقف ضد سلوك نزهة عندما صاحت" بلا الله ومحمد وبطيخ الشام"(122) في وجه زكية التي تحاول تهدئة نقمتها بالاستغفار. ومن سيعتب عليها(كوطني مخلص!) إن هي قالت عن نضالها(مش عشان الغولة، عشان أحمد) والغولة فلسطين التي تأكل أولادها.

---

[69]- نضع مصطلح "الجندر" بين هلالين لأننا لم نثق بعد إن كان هذا المصطلح، من ناحية لغوية، هو التعبير الأنسب للحقل الذي يبحثه. هذا من جهة، ومن جهة ثانية لتسجيل موقف متحفظ، عبر الهلالين، حول ما يبدو من منهجية المصطلح/ المفهوم في تجزيئه للكلية الاجتماعية العامة إلى قضايا فرعية،(منها قضية المرأة على أهميتها)، تخفي الكلية تلك، انسجاماً مع أيديولوجيا الدراسات الغربية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، ما بعد الحداثية، التي صاغته.

وشخصية أبو عزام تذكرنا ببعض ملامح شخصية أحمد عبد الجواد في ثلاثية نجيب محفوظ، رمز السلطة الذكورية والأبوية في الرواية العربية. فالأبوية التسلطية، والبحث عن الجنس خارج العلاقة الزوجية، والانتماء الطبقي الواحد(البرجوازية المتوسطة)، وازدواجية السلوك داخل البيت وخارجه..كلها سمات نجدها في ملامح أبو عزام. ولكن مرة أخرى نواجه الاطلاقية في الملامح السلبية على عكس شخصية أبو عزام: فهو بخيل وأناني واص وبائع أراضٍ لليهود وحارم أخته من الميراث... فإذا كانت نزهة (الخير المطلق) كامرأة مومس كان أبو عزام (الشر المطلق)!

وسمر لا تخلو أيضاً من أبعاد نمطية هي الأخرى: مثقفة ومتعلمة، موظفة، نشيطة اجتماعياً وسياسياً، ومع ذلك، يتورم وجهها من الضرب وتصطبغ عيناها من الكدمات أيضاً، تدرك الأبعاد الطبقية والجنسية والسياسية لعلاقة الرجل والمرأة...[70]

ومع ذلك يسجل للرواية أن شخصية حسام بالذات لم تكن نمطية بالكامل، وبالذات لأن التجربة أعادت صياغة مواقفه ومفاهيمه ولم تقدم تلك مرة واحدة كمعطى جاهز. علماً أن سلوكه الأولي تجاه نزهة، كمنظم، فيه من النمطية التي تريد القول(التنظيم لم يفعل شيئاً في إعادة تشكيل قناعاته).

لذلك كانت صياغة ملامح الشخصيات هي اقرب للصياغة الأيديولوجية" الجندرية" التي تتأثر بجنس الروائية، كروائية امرأة. لذلك يمكن أن نفهم ذلك الكم من التنظير الجندري في الرواية الذي يظهر إما في الحوارات أو في سرد تاريخ الشخصيات، عبر استمارة سمر، أو في المواقف. ويمكن بتحليل نتائج الاستمارة لتاريخ زكية ونزهة الوقوف على هذه الصياغة الجندرية للشخصيتين وتاريخيهما. حسب الدراسة هنا أن تسوق هذا النص حول سلوك أم عزمي لإقناع أبو عزام بأن يشتري لها زوج جرابات، لتأكيد ما ذهبنا إليه: فإذا كان طلبها أكبر من زوج جرابات (يكون القصاص مفتوحاً- عدم معاشرتها جنسياً تعني- يوماً ويومين وشهراً وشهرين) فتخشى الطلاق أو زواجه عليها، فلا تملك لا أن(تروح تجيء تطلع تنزل ولا تجلس إلا حين تنام، وتصير كالكلبة الهرمة وتتبعه حتى إلى الحمام...فتقلم أظافر يديه وتقص الشعر في أذنيه وتنتف ما تحت إبطه وتخرج الزؤان من أنفه وتضحك من أبيخ نهفاته...وبعد كل هذا الدلال يحن الرجل، إذ بعد أسبوع أو اثنين يجيئها بزوج جرابات فتحس بالفرح الشديد، وتكاد تبكي من الامتنان، وتعود لذكر محاسنه بالحماس نفسه.)(50-51).

وأخيراً يمكن ملاحظة البعد الجندري في التماهي الذي تظهره النساء مع الثقافة الذكورية التسلطية والذي يتمثل أكثر ما يتمثل في العديد من المقاطع التي سجلتها الرواية على لسان الحاجة زكية تحديداً،[71] ما يؤشر للبعد الثقافي في القضية النسوية في المجتمع. من ذلك موقفهن (نساء الحارة) من نزهة: " يعني بظل ذنب

---

[70]- يعتقد مناصرة(2000: 356) أن شخصية سمر هي " المعادلة للكاتبة في طرح الرؤى الفكرية والثقافية للأحداث"

[71]- كان من الصعب على العيلة(العيلة، 2003: 144) أن يقف على قضية التماهي التي تعكس تناقضات شخصية زكية لأنه اعتمد القولبة الجاهزة للشخصيات، فصنف زكية كشخصية إيجابية وبالتالي لم يلحظ أن إيجابيتها(أم الجميع) تزاوجت مع ظلمها لأم عزام وتبرير ضرب زوجها لها، ومقاطعتها لنزهة، فيما تزحزح موقفها(نتيجة التأثير الانتفاضي). ونفس الشيء يمكن أن يقال عن تصنيفه القالبي لسمر(150). ونزهة وأم عزام(170و 174) فلم يكتشف بالتالي ما تفعل التناقضات والصراعات داخل كل شخصية. وما يقال عن العيلة يقال عن أيوب(أيوب، 1996) في تصنيفه القالبي ذاته.

الكلب أعوج لو حطوه بميت قالب"(28) " لا حرام ولا حلال. طب الجرة على تمها تطلع البنت لأمها. معقول الشوكة تخاف وردة؟"(29) " يعني يا ست زكية، معقول بنت صغيرة وحلوة ومتعودة على قلة الحيا تنضب؟"(29) وكما ظهر لنا ذلك أعلاه في سلوك أم عزام، قبل تمردها. وفي تبرير زكية لسلوك أبو عزام تجاه زوجته عندما أخبرتها الأخيرة أنه ضربها بإبريق الشاي" يعني معقول وجيه العاقل يعمل هيك من غير سبب معقول يا أم عزام؟ إيش قلت وعدت عن ولاده؟ وفي تداعياتها الذهنية تقول زكية" الرجل لا يضيره تلويث الذيل. ماذا يقولون لو سمعوا أن حسام نام مع نزهة، ونزهة نامت مع طابور، وحسام واحد من طابور، فليقولوا. من منهم لم يفعل ذلك؟...هم رجال ولا حرج عليهم؟" فالتدعر بالنسبة لزكية لا يضير الرجال، أما بالنسبة للنساء فجريمة لا تغتفر.

ومع ذلك يسجل للرواية أنها رصدت تأثير الانتفاضة على التكوين الثقافي للنساء، وكنا أثبتنا ذلك في القسم الثاني من الدراسة من حيث تغير موقف الحاجة زكية من نزهة من جهة، وتمرد أم عزام من جهة ثانية.

إن رواية باب الساحة علامة هامة على مكانة المرأة ودورها في الانتفاضة الفلسطينية بما رافق ذلك الدور من قضايا وإشكاليات عالجتها.

ثامناً: الخلاصة

في تطور الأحداث، ومحورها نزهة، والتحولات التي جرت عليها روائياً ما يقابله اجتماعياً في التحولات التي جرت على صعيد مكانة المرأة في الانتفاضة ودورها فيها. فالمشاركة في النضال، كما نزهة وكما قطاع نسوي اتسع في الانتفاضة، لم يكن ليعني اندحار الموقف الرجعي منها كإمرأة. وفي هذا الموقف كان يشترك التنظيم السياسي والجماهير والرجال على حدٍ سواء، وكل هؤلاء ظلموا نزهة ظلما بيناً رغم دورها في النضال. ومع ذلك فكما طورت الانتفاضة والعمل السياسي المنظم من موقف الرجل بعض الشيء، تطور موقف حسام، القائد الميداني، من نزهة، وقمع أهل سمر لها قابله حسام بارتباطه بها. تطور، بالتالي، موقف التنظيم، والمناضلين، وحتى المجتمع، لكنه لم يصل حدود القطيعة مع الموقف الرجعي من المرأة. إن كل مفصل في موضوعة مكانة المرأة في الانتفاضة تتولاه الرواية بطريقة فنية. إن الرواية وثيقة كاملة لفحص التحولات على مكانة المرأة في الانتفاضة من وجهة نظر كاتبة نسوية.

أما المؤشرات على التحولات فصارخة في وضوحها:

1- **الوطني والاجتماعي.** التشابك عالٍ في الرواية بين الوطني والاجتماعي، بما يعكس هذه الموضوعة في العمل النسوي الفلسطيني. فالوطني يظهر من خلال أدوار سمر ونزهة وزكية النضالية كما الحال مع دور المرأة في الانتفاضة الفلسطينية. أما الاجتماعي فيظهر بطرح موقف الرجل والدين والعائلة والتنظيم من مكانة المرأة(نزهة وسمر)، وهو موقف تجسد في الانتفاضة من الموقف المعادي لمشاركة المرأة، كما عبر التيار الإسلامي عن ذلك، وفي استمرار الموقف (المتحفظ بأدنى حد) لدى الجماهير من هذا الاشتراك. الانتفاضة نقلت مكانة المرأة نقلة نوعية في النضال الوطني، وعززت دورها في مواجهة الرجل والثقافة السائدة والعائلة، ولكنها، كما في الرواية أيضاً، لم تتمكن

من وضع حدٍ للعداء تجاهها. وفي الرواية صدىً للنقاش المجتمعي حول دور المرأة والمثلث القمعي(الطبقي والذكوري والوطني) كما يظهر في حالة سمر، وإلى حدٍ كبير في حالة نزهة.

2- **العام والخاص.** الرواية تسجل خروجاً سافراً للمرأة من الحقل الخاص للحقل العام، كما يظهر في أدوار سمر وزكية ونزهة، وتحويراً للدور الخاص لزكية، كقابلة، بحيث تغدو الآلية التي تتقدم بها الشباب للانتفاضة. ولكن الحقل العام الجديد لا يتحقق دون مقاومة: ففي حالة سمر نلحظ العداء لسافر من أشقائها لدورها النضالي وسعيهم الحثيث لقصر دورها على المنزل، وفي سبيل حل المسألة المالية، فإلى العمل المدر للدخل، لا إلى النضال والمشاركة الاجتماعية بأية حال.

3- **موقف الآخر.** العائلة معادية لدور المرأة (نموذج سمر)، والدين يحاسب نزهة، والتنظيم يظلمها أيضاً، فيما الرجل يظلم الجميع دون تمييز. إن الآخر في الرواية صدىً للآخر الاجتماعي(الرجل والدين والعائلة والتنظيم). إن حدة هذا الموقف الروائي لها ما يبررها في الموقف الاجتماعي في المجتمع، وهذا ما عكسته الرواية.

4- **الدور النضالي للمرأة.** مساهمتها فاعلة ومؤثرة وفي النهاية تقود سكان الحي لهدم البوابة. وفي الانتفاضة أيضاً كانت مساهمتها فاعلة أيضاً، وإن لم تلعب دوراً قيادياً، هو في الرواية من ضرورات الحبكة الفنية والدرامية.

الفصل الثاني

سروة: المغدورة المتماسكة

مع أن أحداث الرواية تدور في زمن الانتفاضة، زمانياً، وفي المجدل، القرية الفلاحية، مكانياً، إلا أن الغزاوي نجح بتحقيق تواصل فني بين جناحي المقاومة: الانتفاضة من جهة والثورة في الخارج من جهة أخرى. وقد تحقق هذا التواصل عبر شخصيتين أساسيتين، سروة وعباس. فكانت الرواية لا تقف عند حدود الزمان والمكان المحددين(الانتفاضة والمجدل) بل تتعداها لزمان ومكان آخرين(الحرب اللبنانية وتل الزعتر) فأمكن بالتالي، من الزاوية الفنية، ملامسة التأثير المزدوج للأمكنة والأزمنة المتعددة روائياً، بتعدد الأمكنة والأزمنة المؤثرة سياسياً واجتماعياً.

أولاً: الساق الداخلي للرواية

سروة تلتحق بالمقاومة، كممرضة تدرس في دمشق، عند اندلاع معركة تل الزعتر. تحب غريباً المقاتل وتلتقي عباس الفدائي، يستشهد الأول وتعود لقريتها المجدل لا تحمل الانتماء للثورة فحسب بل جرحا نفسياً من هول ما شاهدته وهي تسير بين الجثث والكلاب في المخيم، مع عباس. في المجدل تشارك إبراهيم وفؤاد التحضير للعملية العسكرية بشرائها للمواد اللازمة لتصنيع المتفجرات. تحب فؤاداً ويحبها، وبعد خروجه من السجن، يدير ظهره لحبها ويغدو صحفياً ووجيهاً سياسياً مرموقاً في الإعلام واللقاءات مع الإسرائيليين. تتزوج من مصطفى الفدائي وتنجب منه غريباً، فيختفي زوجها دون أن يُعرف له مصير، سجين هو أم شهيد أم مختفٍ. تحاول تحذير إبراهيم المطارد المسلح في الانتفاضة من خديعة محتملة خلف تصوير فيلم عن الانتفاضة يشارك به، بالترتيب بين فؤاد وشركة بريطانية، لا تتمكن في اللحظة الأخيرة من إنقاذه، فيسقط شهيداً. في السياق تظهر شخصية فاطمة غير الأساسية، ولكن لتحكي من خلال الحدث الظلم الاجتماعي الواقع على المرأة: تتهم بالتدعر مع الجنود الصهاينة الذين اعتقلوها لأنها رفضت إنزال العلم! توجد مذبوحة

ورأسها مقطوعة، يرفض شيخ القرية الصلاة عليها، في حين يثبت إبراهيم براءتها ويعاقب الرجال المجرمون بحقها.

ثانياً: سروة بين حبين، خيارين سياسيين!

في حلم هو أقرب للهلوسة يتصارع فؤاد وغريب على سروة " غفوت على حيرة غريب وفؤاد يقفان في الطريق وجهاً لوجه.....واستطعت أن أعرف أنهما يتكلمان عني..شعرت بغبطة جعلتني أمسك المشط أسرح شعري وألهو عنهما حتى سمعت صراخاً بعيداً. هما يركضان، يتسابقان، لا أدري، ولكن واحد منهما أراد أن يمسك الآخر من رقبته، وسقطا كلاهما على الأرض ساكنين حتى وصلا وأقدامي ترتجف من الخوف. تحرك فؤاد معتمداً على يده، أما غريب فبقي دون حراك ينزف دماً(ضعيني على الصخرة) قال لي"(63). فبين فؤاد وغريب تقف سروة كأنها بين خيارين: الأول انتهازي، تنازل عنها وتحول لمستثمر للانتفاضة، تحت شعار الاستثمار السياسي، هو للتاجر أقرب منه للمناضل، يتكيء على النضال الانتفاضي ليحقق مأربه السياسي/ الشخصي في التحول لشخصية سياسية علنية ومرموقة، حتى على حساب الدور الانتفاضي (رفض مثلاً نقل جثة الشهيد في سيارته لحساسية وضعه كصحافي معروف). فيما الثاني فهو تراث المقاومة المسلحة في لبنان(شهيد تل الزعتر) الذي شكل مصطفى امتداده في الوطن واقترنت سروة به. اختارت سروة مصطفى- خيار المقاومة ولم تتردد في القول لفؤاد" لماذا تصر على الكذب" (170). فؤاد يحاور الإسرائيليين عبر البرنامج التلفزيوني " نايت لاين" فيتحول الصراع إلى حوار، وتغدو المشكلة بين المحتل والشعب مشكلة نفسية تتسبب بها تداعيات الإجراءات الإسرائيلية، التي، لذلك، يجب أن تتوقف. ومن خلفه بيروقراطيو المنظمة في تونس، موسى الحاوي وسلطان فهمي، يتعجلان الاستثمار السياسي للانتفاضة، الذي يشبهه عباس بغنائم غزوة أحد التي تراكض إليها المؤمنون فوقعوا في شراك المشركين" هذا وقت الغنيمة على جبل أحد، مذهولون نحن نقتسم الوصية الأخيرة ونلعب على بيدر مكشوف للريح، أوراقه تطير كيفما تشاء. كل الذين احترفوا أدخلوا ذواتهم في الحساب...عليهم أن يخرجوا" (154) وفؤاد من أولئك الذين أدخلوا ذواتهم في الحساب، فرفضته سروة. فيما مصطفى أدخل المقاومة في حسابه فاحتضنته سروة.

ولم تكن سروة فقط بين نهجين بل الانتفاضة ككل، وهنا تبدو سروة، تمثيل للانتفاضة ومآلها. ففي الانتفاضة تبلور اتجاه واسع في قيادة المنظمة في الخارج يسعى لاستثمارها سياسياً، كورقة ضاغطة في تسوية سياسية محتملة، باعتبارها(الانتفاضة) لحظة طارئة يجب اقتناصها سريعاً، فيما الاتجاه الثاني (موقف القيادة الموحدة للانتفاضة على العموم) يدعو لتصعيدها أكثر، باعتبارها (محطة نوعية) في النضال، لفرض تغيرات على ميزان القوى مع المحتل.(مجموعة من الباحثين: 1990)

وفي هذا الصراع بين النهجين يتأكد لا فقط التناقض بين مقولتي/ موقعي الخارج والداخل في النضال الفلسطيني، بل وأدوار القوى الاجتماعية أيضاً. وسروة في موقع المركز من التناقضين الاثنين، المنقسمين أفقياً لا عمودياً. فنهج البيروقراطية في الخارج له امتداده في الداخل، المتمثل بفؤاد، ومعه رأفت، ومكتبه الصحفي ونشاطه الإعلامي وعلاقاته مع بيروقراطية تونس في الترتيب لمؤتمرات الحوار مع الإسرائيليين.

وفي سعيه للمكاسب الشخصية/ السياسية يقتني كتاب(كيف تصبح رجلاً ناجحاً)، فالانتفاضة بالنسبة له مدخلاً للشهرة والمنصب السياسي. كان مناضلاً من الفئات الشعبية(مدرس)، وتحول إلى بيروقراطياً، شأن العديد من مناضلي الداخل الذين، وعبر المال الوافد من القيادة في الخارج، والمؤسسات الوليدة، غدوا جزءاً من المؤسسة البيروقراطية في الخارج، ممثلوها في الداخل.[72] وقد انتهى الأمر بهذا النهج ليقتل الانتفاضة: عندما رتب فؤاد، كجزء من فهمه للانتفاضة ولدوره وعلاقاته الصحفية، مشروع الفيلم الذي كان مصيدة أوقعت إبراهيم شهيداً، رفيق فؤاد السابق الذي سعى لجذبه للصحافة والمكتب فاختار الجبل والسلاح. وفؤاد لم يكن يعرف، في سياق النص، حقيقة المصيدة، ولكن نهجه كان جعله-لسذاجة نهجه- مدخلاً لتنفيذها من الاحتلال، والنتيجة واحدة: فهم أم لم يفهم! ومن الدلائل المميزة لموقع فؤاد(البيروقراطي) في النص، ذلك الحلم الذي حلمه، بعد رفضه نقل الشهيد في سيارته: رجل يجز رأس الشهيد ويزنه مقابل كمشة أوراق، فترجح كفة الأوراق! إن في الحلم قراءة لما سيقترفه نهج فؤاد لاحقاً مع إبراهيم.

في المقابل شكل عباس وإبراهيم ومصطفى نهجاً آخر مقاوم، له هو الآخر، امتداده في الخارج والداخل، والثلاثة من المخيم والقرية، من الفئات الشعبية، وسروة معهم، ناءت بحملها التناقض بين النهجين، ولكنها حسمت أمرها للنهج الثاني في عملية واعية، قاعدته التجربة النضالية التي خاضتها في تل الزعتر والمجل، في الداخل والخارج، لذلك لم تتردد أن تواجه فؤاد (لماذا تصر على الكذب؟).

ويمكن تمثيل جدل الداخل/ الخارج، الفئات الشعبية/ الفئات البيروقراطية وتشابكها الأفقي في الجدول التالي لشخصيات الرواية وتمثيلاتها الاجتماعية:

المقاومة في الخارج	التشابك الأفقي للفئات/ شخصيات الرواية	الانتفاضة في الداخل
فئات شعبية	إبراهيم ومصطفى وعباس وسروة/ غريب وعباس وسروة	فئات شعبية
فئات بيروقراطية	فؤاد ورأفت/ موسى الحاوي وسلطان فهمي وفؤاد	فئات بيروقراطية

فالثلاثة في الرواية(عباس وسروة وفؤاد) يشكلون نقطة التلاقي بين الداخل والخارج، سياسياً واجتماعياً، وسروة تبدو المحور الذي تتحرك فيه كل التناقضات، في علاقتها مع عباس وفؤاد مصطفى وغريب وإبراهيم.

ثالثاً: البعد النسوي في النص

[72]- كنا عرَّجنا على هذا التحول في القسم الثاني عندما ناقشنا التحولات في النظام السياسي الفلسطيني.

ويظهر هذا البعد في شخصيتي سروة وفاطمة، ليقول من خلاله، الغزاوي، روائياً، موقفاً من مكانة المرأة في النضال الانتفاضي. ففؤاد يخون علاقته مع سروة شريكة نضاله(نتذكر نزهو والمربوط في باب الساحة) التي واظبت طوال سنة ونصف على زيارته في الأسر، ولكنها لا تفقد ثقتها لا بالنضال ولا بعالم الرجال. تحب من جديد، مصطفى، وتنحاز لمقاتل الجبل إبراهيم. وسروة هنا تبدو في موقفها متماسكة وناضجة، وبعيدة عن الموقف الاطلاقي الذي سرعان ما يبرز لدى كل تجربة فاشلة عند الذين يتميزون بمحدودية الفهم لتعقيدات الحياة، سواء الاجتماعية أو السياسية. فهي تدرك أن فؤاد وإن لا يستحق الأسف عليه، فهناك إبراهيم ومصطفى يستحقان الالتحام بالعلاقة معهما، عاطفياً ونضالياً. وواقعها الاجتماعي والسياسي يؤهلها لهذا الموقف. فهي متعلمة وموظفة، عاشت الثورة والقتال في لبنان، والتحمت بالنضال في الوطن، قبل الانتفاضة وبعدها، لذلك لم يكن من باب إسقاط موقف الروائي عل النص، أن تتخذ سروة هذا الموقف، بل يبدو تطوراً طبيعياً (حسمها لصالح مصطفى وإبراهيم لا لفؤاد) لشخصيتها الروائية.

والغزاوي، عبر شخصية فاطمة، يلمح ما للموقف الاجتماعي الرجعي من المرأة من تأثير في الحياة اليومية للانتفاضة. ففاطمة ترفض إنزال العلم الفلسطيني متحدية الجنود[73] الصهاينة، فيعتقلونها. عند اعتقالها قيل في القرية أن أحد الجنود قبّلها عندما أنزلها من الدورية، وإنها بصقت في وجهه، " وفي الليل قالوا إنه قبّلها ولم تفعل شيئاً. وفي اليوم التالي اختفت فاطمة" (153). فيما بعد وُجدت مقتولة " عارية تماماً كما ولدتها أمها، بطنها أكلته الذئاب، ورقبتها مجزوزة بالسيف" (153) الشيخ يتردد في الصلاة عليها، إذ يريد " شهادة من عدول أنها ما ذهبت بأقدامها إلى الزنى"(154). وكما ضاعت حياة فاطمة، كاد شرفيها يضيعان معها، شرفها الوطني، إذ فعلتها مع الجنود كما قيل، وشرفها الأنثوي إذ فعلتها أساساً. في اللحظة الأخيرة، ينزل إبراهيم من الجبل ويخرج عن سريته، ليعلن أن شابين اغتصبا فاطمة وقتلاها ونشرا الشائعات حولها لإخفاء جريمتهما. وأن " فاطمة ابنة المجدل ماتت لأن هذا زمان سافل، إنها ليست شهيدة كما تقولون الآن، لأن الشهيد يموت فقط بأيدي الأعداء (155).

والنص إذ يظهر ما في السلوك الذكوري من استغلالية وتعسف تجاه فاطمة (الزمن السافل تجاه المرأة)، لا يضع كل الرجال في ذات السلوك والموقف، فالمقاتل إبراهيم يبحث عن الحقيقة ويبريء فاطمة. يدين النص المجتمع والمناضلين مرتين، في حالة سروة وفاطمة، لكنه يعود ليضع القضية في بؤرة لا تعرف الإطلاقية في الحكم فتجانب الصواب والعقلانية، بل يرى للجانب الإيجابي، بالمفهوم الاجتماعي لا الأخلاقي، إذ تتماسك سروة أمام خيانة فؤاد، وتنقذ الانتفاضة شرف فاطمة من التلوث، الوطني والاجتماعي. وكأن الغزاوي في نصه(وهو المناضل والسجين الفتحاوي) يقول: نعم ظُلمت المرأة وتظلم ولكن المفاهيم تتغير. وفي هذا ينسجم مع ما كانت الدراسة لاحظته عند الحديث عن مكانة المرأة في الانتفاضة والتغيرات التي حصلت على الموقف الاجتماعي منها ومن مكانتها وحدود هذا التغير.

---

[73]- كانت تلك ممارسة شاسعة في الانتفاضة (إجبار الجنود للفلسطينيين على إنزال العلم المرفوع)، لذلك لا غرابة أننا نجدها أيضاً تتكرر لدى أحمد حرب في (الجانب الآخر لأرض المعاد)

رابعاً: الخلاصة

تقابلات البنيتين لا تظهر فقط على مستوى الداخل بل والخارج أيضاً، وتلك ميزة كتابات الغزاوي، فدائماً هناك جدل الداخل والخارج في كتاباته. فالشخصيات لها تقابلاتها في الفئات الاجتماعية. فالجهاز البيروقراطي في الداخل والخارج يظهر في سلوك وملامح شخصيات معينة(فؤاد مثلاً). كما يظهر دور الفئات الشعبية(سكان القرية والمخيم). أما سروة فهي شخصية تمثيلية للمرأة الفلسطينية. التحقت بالمقاومة وظُلمت من الرجل والمؤسسة السياسية. إن تطور الحدث الروائي يُظهر تطور الحدث السياسي/ الاجتماعي، وفحواه الصراع الدائر على مستويين، الأول مستوى الصراع بين الفئات الشعبية المناضلة(سروة وإبراهيم) والفئات البيروقراطية المتبرجزة(فؤاد). أما الثاني فهو الصراع بين جناح الداخل ممثل بسروة وإبراهيم وجناح الخارج ممثل بامتدادات فؤاد في الخارج. إن الرواية وثيقة هامة لفحص هذين المستويين من الصراع الاجتماعي/ السياسي خلال الانتفاضة، والتحولات على مكانة المرأة عبرهما.

يمكن بالتالي تلخيص مؤشرات التحول كما يلي:

1- **الوطني والاجتماعي.** يتجسد الوطني من خلال مساهمة المرأة في الانتفاضة(سروة) وفي المقاومة(وهي في تل الزعتر). أما الاجتماعي فيتأكد من سلوك فؤاد، فهي المخلصة كإمرأة، وهو العازف بالمقابل وهذا صدىً للظلم السياسي لمكانتها من التنظيم.
2- **العام والخاص.** انتقلت سروة للنضال والعمل في نقلة من الخاص للعام. ولكن جهدها في العام، كجهد المرأة الفلسطينية، بقي مطعون به من التنظيم.
3- **موقف الآخر.** الثقافة السائدة تتجسد في عدائها لفاطمة، فيما موقف الرجل والتنظيم في موقف فؤاد من سروة وهو موقف متخاذل. أما العائلة فلا تظهر كموقف رجعي في الرواية.
4- **الدور النضالي.** وهذا ظهر من مشاركة سروة، وفاطمة كشخصية ثانوية، في النضال في الخارج والداخل.

الفصل الثالث

وديعة وأرنونا- نساء طرفي أرض المعاد

أولاً: السياق الداخلي للرواية

ربما تكون رواية أحمد حرب (الجانب الآخر لأرض المعاد)(1994) من أكثر الروايات الفلسطينية تمثيلاً لحجم التحولات الاجتماعية التي إن وجدت في الواقع الفلسطيني وعكستها الانتفاضة، وخاصة فيما يتعلق بدور المرأة، فهي تصلح لهذا اعتبارها، وحسب منطوق علم اجتماع الرواية، وثيقة اجتماعية تاريخية لمرحلة هامة. إلى جانب ذلك فالرواية، وقبلها (إسماعيل) وبعدها (بقايا)[74] تدرس إشكالية العلاقة بين طرفي الصراع، الفلسطيني واليهودي، على أرض المعاد، على كافة الأوجه، السياسية والاجتماعية والجنسية، تشكل المرأة محوراً هاماً فيه، عبر بناء فني محكم لدرجة بارزة، لا يسقط من حساباته الإشكالية الأخرى التي أبرزتها الانتفاضة بحدة، كإشكالية، وسبق أن لمسناها في رواية (الحواف) المعالجة في الفصل الثاني، نعني إشكالية العلاقة بين الداخل والخارج في النضال الوطني. إنها، بالتالي، رواية الإشكالات الثلاث (فلسطيني/ يهودي وداخل/ خارج ووطني/ نسوي). لكل ذلك كانت المرأة في صلب العمل، خاصة بتمحور دورها في الإشكال الأول، مكانتها، تحولات علاقاتها، موقعها من الطرف(الآخر) الغازي والمغتصب.

تنهض الرواية على محورين أساسيين يلفهما الزمن الانتفاضي وتحتضنهما قرية العين كمكان. والقرية تحيل على دور ومكانة الفئات الشعبية، عمال وفلاحين وبرجوازيين صغار(طلاب وأكاديميين وموظفين)، باعتبارها التركيب الاجتماعي الأبرز للقرية في أواخر الثمانينيات، فيما الانتفاضة تحيل على الواقع السياسي الذي حدد لهذه الفئات مكانتها، وأبرز دورها وفعاليتها الاجتماعية والسياسية، في تشابك تكاملي وصراعي مع القيادة في الخارج. لذلك كانت الرواية تعج بالتفاصيل الانتفاضية، التظاهرات، الاشتباكات اليومية، العمل

---

[74]- تشكل الروايات الثلاث معاً عملاً روائياً واحداً من حيث تتابع وحضور ذات الشخصيات الرئيسية، والتتابع الزمني للأحداث، والقضايا التي تعالجها، ومع ذلك فكل رواية تمتلك عناصر الرواية المكتملة، فنياً، بحيث يمكن أخذها كوحدة تحليل، مع التعريج عند الضرورة على ما سبقها. الدراسة ستأخذ (الجانب الآخر لأرض المعاد) مع الربط عند الضرورة ب (إسماعيل).

المسلح، الشهداء، منع التجوال.... والراوي، الأستاذ الأكاديمي الجامعي، جزء أساسي من الحدث، وهو إلى حدٍ كبير الروائي نفسه فيما العين قريته الحقيقية.

ثانياً: سياق الشخصيات النسوية

أبو قيس القادم من تاريخ الصراع يقود الانتفاضة في القرية ومعه ماجد، الشاب الجامعي، وأم إسماعيل والشيخ الذي يحتج على تواجد أم إسماعيل في الاجتماع القيادي. ماجد يساندها وأبو قيس يذعن لرغبته بعزلها. وديعة شقيقة الراوي تعشق الضابط اليهودي يوسي في ظل حظر التجوال، وهادي يتزوج اليهودية أرنونا وينتقل، لرفض القرية وملاحقة الحكم العسكري لهذا الزواج، ليعيش تحت حماية القانون الإسرائيلي في القدس. إسماعيل، من الخارج، كقيادي، غدا اسمه أبو العز، يلاحق التطورات بالفاكس والمال ساعياً لإعطائها وجهة أخرى- مأسسة بيروقراطية والكف عن استخدام السلاح. هادي عبر الإعلام والعلاقات مع الإسرائيليين، والحوار معهم، يهاجم العمل المسلح بشدة، مستنداً على دعم إسماعيل من مكتبه في عمان وعلى تراث جسده موقف أبو قيس الذي يعتبر الصراع تاريخياً فتنة بين العرب واليهود تسببت بها بريطانيا العظمى[75]. ويظهر التناقض بين ماجد الذي يقود الحدث الانتفاضي، وإسماعيل الذي يتابعه عبر الفاكس، ويحاول تعزيز نفوذه بتأسيس" مؤسسات" تابعة لموقفه. وديعة تشارك في هجوم مسلح على المستوطنين يقتل فيه أربعة وتستشهد إذ تنفجر عبوة تحملها في يدها، فيما أرنونا يجهض الصهاينة أولادها الثلاثة من هادي. شباب الانتفاضة ينجحون باستدراج يوسي وخطفه، يرفض أبو قيس الخطف ويحرر يوسي ولكن الجنود يقتلونه خطأً. هادي يستنكر الخطف والقتل معاً. ظروف وفاة وديعة لم تحل، هل حاولت القيام بعملية تكفيراً عن (ذنب) حبها للضابط يوسي فانفجرت العبوة فيها، أم حبها كان وسيلة لاستدراج يوسي. أما يوسي فيشارك في اجتماعات التطبيع التي ينظمه هادي وحضرها الراوي مرة، وفيها كان أبو النمر ضابط المخابرات الإسرائيلية.

أم إسماعيل ضمير حي في رواية الحدث والموقف منه. إنها والدة إسماعيل الذي قتل يعقوب (مختار المستوطنة) التي قامت على أرض أبو إسماعيل(في رواية إسماعيل). لا تشارك في الانتفاضة وحسب بل وفي قيادتها. أنجبت الثورة في شخص إسماعيل ولدها، التي سرعان ما تبقرطت، فغدا إسماعيل أبو العز والثورة مكاتب ومؤسسات تفرخ في الضفة والقطاع، وعلاقات مع الإسرائيليين. ولكن هي بقيت كما هي. تشارك في قيادة الانتفاضة وتعلن أن وديعة مظلومة" والله يا ابني زي الزلمة، لو كنت تشوفها في المظاهرات! يله يا بنات! يله يا نسوان..عليهم..عليهم..يا نسوان التموا التموا الصهيوني نشرب دمه! ظلموها يا ابني ظلموها" (166) ويلمح الكاتب الدور الوطني/ "التقليدي" لنساء الانتفاضة في ادعاء أمومتهن لكل الشباب لتخليصهم" ابني يا خواجا ابني، أنتم ما في قلوبكم رحمة، أنتم مش بشر، الله ينتقم منك" (166) لذلك أسماها الراوي أم الشباب، تجمع الصغار حولها وتحكي لهم قصصاً تعليمية- تربوية.

---

[75]- هذا موقف الشيوعيين التقليدي لعشرات السنين، وقد عالجته بالبحث العديد من الدراسات أهمها دراسة (بشير، 1977)

وديعة الشخصية الأهم مع أرنونا. مدرسة ومثقفة، تشارك في التظاهرات وتلتحم بالانتفاضة. أخوها شهيد في العام 1967، وأخوها الثاني يقاتل في جنوب لبنان مع فتح، والثالث مطارد باسم فتح، أما هي فكما يصفها الراوي " جوهرة في جيد فتح" (115). قاتلت مع مجموعة مسلحة فقتلوا أربعة مستوطنين، ولكنها أحبت يوسي الضابط في تطور كان مفاجئاً لمحمد شقيق إسماعيل. يقول الراوي " قبل أن يعود محمد لقريته ذكر لي أن أكثر ما يثير حيرته هو الغموض الذي اكتنف مقتل وديعة(لا أصدق أن وديعة كانت على علاقة غرامية مع ضابط إسرائيلي. وديعة كانت مع المجموعة التي كمنت للمستوطنين وقتلت أربعة منهم) " (161) ومحمد هذا، في ذات الوقت الذي يشكك فيه في علاقة وديعة مع الضابط، فإنه ينطلق من قناعة تضع الصراع مع المستوطنين على سكة وحيدة، الصراع، وبالتالي لا يهضم أصلاً وضعه على سكة أخرى، الحب مثلاً! فهو يقول معلقاً على عملية ضد المستوطنين قتل فيها اثنان منهم " هؤلاء المستوطنون اغتصبوا أرضنا وقتلوا أولادنا وهم لا يريدون لنا الحياة على هذه الأرض. ما هو الخيار؟ ظهرنا إلى الحائط والسكين على رقبتنا. هذه هي أرض معادنا وليس أرض ميعادهم." (161). أما ماجد، الشخصية القيادية في الانتفاضة، فقد أحب وديعة ولكنه (عاشق فاشل) لم ينجح بإقامة علاقة معها. وأحبها أيضا محمد (المتدين الجهادي) الذي ينحاز للعمال والفلاحين، ولولا اعتقاله لتقدم لخطبتها.

ومع أن حقيقة علاقة وديعة مع يوسي تبقى غامضة في الرواية، لكن ما ينير طريق الكشف عنها، دون أن يكشفها تماماً، وقائع ثلاث: مشاركتها في العمل المسلح الذي أدى لمقتل أربعة مستوطنين. شهادة محمد الذي يبدو من السياق أنه يعرف الكثير ولا يقول. وقراءتها واهتمامها برواية جون شتاينبك (القمر كئيب) وفيها تستدرج مولي موردن الأرملة الجميلة، الضابط النازي تندر، فتتظاهر بحبه لتقتله بمقص الخياطة. بالمقابل فوديعة تدافع عن حبها ليوسي أمام شقيقها الراوي وتتمترس خلف تجربة هادي. " هادي رجل وأنت امرأة" (113) قال لها الراوي في طغيان لموقف ذكوري. وفوق ذلك تقتني/تهتم بمجلة(الجسر) التي يصدرها هادي كمجلة تطبيعية.

تبقى حقيقة حب وديعة ليوسي غامضة. ولكن الثابت أن الصراع الدامي لا يقود لتعايش على طريقة هادي. إن النهاية/ الفاجعة لقصة وديعة تؤكد أن الصراع لا يحل (بجسر الهوة بين الشعبين) باعتبارها (مسألة سيكولوجية) على الانتفاضة حلها، (لاستثمارها سياسياً) بهدف التعايش بين الشعبين، كما يروج هادي ومن خلفه إسماعيل عبر الفاكس![76] . والنهج المقابل لهذا لا يعبر عنه ماجد ومحمد بالكلمات والترتيبات والنشاطات فحسب، بل إن الصراع نفسه يدفع باتجاهه، فالانتفاضة مستمرة والعمليات مستمرة ضد المستوطنين، وهذا الواقع يحفر على الأرض قناعات فيما تتراجع، كنهاية مأساوية أية قناعات جديدة، يمكن أن تعكسها علاقة الحب الغريب، إن كانت فعلاً ليست خديعة للإيقاع بيوسي. وهذا ما سنواجهه مع أرنونا.

---

[76]- مرة أخرى كما في(الحواف) يرتبط الاستثمار السياسي للانتفاضة، كنقيض للنضال الانتفاضي لا كتتويج له، بشريحتين رئيسيتين: البيروقراطية في المنظمة (إسماعيل وموسى الحاوي وسلطان فهمي) والداعين للعلاقات التطبيعية مع الإسرائيليين(فؤاد وهادي).

وأرنونا اليهودية اليمنية، أشهرت فلسطينيتها وإسلامها واقترنت بهادي فسمت نفسها إيمان. عانت كثيراً نتيجة لخيارها، من ضغط وضرب وخطف وتهديد من كل ممثلي المجتمع الإسرائيلي/ التجمع اليهودي في أرض المعاد(الحكومة عبر جيشها، وأهلها، وجموع المستوطنين). وتجربتها أغنى من تجربة وديعة لاعتبار أساسي: أرنونا تخلت عن يهوديتها، المتحولة لصهيونية بفعل الاستيطان كسلوك سياسي، وانحازت لكينونة/ هوية مقابلة/ معادية، إسلامية، فلسطينية. إن التجربة تطرح أفقاً لحل الصراع: تخلي اليهودي في فلسطين، المتحول لصهيوني عبر مشروع الاستيطان، عن يهوديته، كمغزى سياسي/ أيديولوجي، فينحل المشروع الصهيوني من أساسه. ولكن حتى هذا الحل التاريخي، العادل بالنسبة للفلسطيني، لا تقبله القرية، فتُضطهد إيمان ويُشك بإسلامها، وتعاني أيضاً من (الطرف الآخر لأرض المعاد). فبالنسبة لسكان القرية فأرنونا حالة فردية بامتياز، لا ظاهرة ومشروع سياسي، مهما أخلصت أرنونا في إسلامها وفلسطينيتها، فالمستوطنة لا زالت قائمة على أرضهم والجنود لا زالوا ينكلون بهم، والمشروع الصهيوني لا يبدو ينحل من الداخل على غرار تحلل أرنونا من صهيونيتها ويهوديتها المتسيسة. ولكن المهم هنا أن قاتل نتاج هذا الحب السياسي/ الحالم كان الصهاينة لا الفلسطينيين: قتلوا أجنتها الثلاثة في أحشائها: كانت اختارت أسمائهم، إناث كانوا أم ذكوراً: فلسطين، حنين، أيام...سلام، بركات، عرفات.

إن نهاية تجربة أرنونا شبيهة إلى حدٍ ما بنهاية وديعة: يقتل الصهاينة نتاج الحب(الأجنة) كما يقتلون يوسي، رغم أنه لا يصل مطلقاً للحدود التي وصلتها أرنونا في التخلي عن صيونيتها، وتستشهد وديعة. إن نموذجي المرأة الأبرز لدى حرب في روايته يؤكدان إستحالة التعايش الطبيعي/ الإنساني (عبر الحب والزواج) بين الشعب الخاضع للاحتلال والمغتصبة أرضه والمشروع الصهيوني.

ثالثاً: تقابل البنيتين الروائية والاجتماعية/ السياسية للانتفاضة

الرواية تعج بالشخصيات التي تماثل شرائح ومواقف اجتماعية نشطت وعبرت عن نفسها في الانتفاضة[77]. ويمكن تمثيل هذا التقابل بجدول الأحداث التالي:

الحدث الروائي	الحدث الاجتماعي/ السياسي
أم إسماعيل تشارك في الحدث الانتفاضي وفي قيادته	تصاعد ملموس لدور المرأة في الانتفاضة
وديعة مدرسة فتحاوية نشطة في القرية	تزايد انخراط النساء من الأوساط الشعبية في البنى التنظيمية
ماجد ومحمد	تسلم الفئات الشعبية لقيادة الانتفاضة
الشيخ عبدالله	دخول التيار الإسلامي للعمل الوطني
موقف محمد الإسلامي الجهادي	بروز التيار الجهادي الإسلامي

[77]- في الجزء الثالث(بقايا) تتحول ملامح اللوحة: يستشري الفساد والمصالح الأنانية والنهب واللصوصية وتنهار قيم النضال، فتدفع وديعة وماجد حياتهما ثمناً لذلك بما يبدو مقدمة للتحولات الاجتماعية والسياسية الانعطافية لمرحلة ما بعد أوسلو.

إسماعيل في عمان	نمو البيروقراطية في جهاز منظمة التحرير
هادي الشيوعي	تيار التطبيع المسالم والمعادي للعمل المسلح، ولا يشارك في الحدث الانتفاضي بل يراقبه من الخارج ويعلق عليه
اجتماع الحاكم العسكري مع المختار والوجهاء	محاولة إنعاش دور القوى التقليدية التي عزلتها الانتفاضة
الراوي	الفئات الوسطى العليا(الأكاديميين) التي وجدت نفسها متورطة بالفعل الانتفاضي
التناقضات بين أبو قيس وإسماعيل(76)	التناقضات بين قيادة الداخل وقيادة المنظمة في الخارج
دعوة إسماعيل للراوي لتشكيل مكتب للتعليم العالي	نزوع القيادة في الخارج لبقرطة الحركة الوطنية ببناء مؤسسات شكلية تكون امتداد بيروقراطي لها
هادي وإسماعيل يدينان قتل المستوطنين	رفض تيار التطبيع وأوساط من البيروقراطية في الخارج للعمل المسلح

في هذا الجدول لتقابل الحدثين الانتفاضي والروائي نلحظ أن الرواية لم تبخل في طرح نفسها كوثيقة اجتماعية- سياسية من وجهة نظر علم اجتماع الرواية. فالتغيرات على مواقع القوى الاجتماعية، وتنامي دور النساء، وبروز التيار الإسلامي بفرعيه، والتناقض بين الخارج والداخل، وبقرطة العمل القيادي خارجاً وسحب الظاهرة على الداخل....كل ذلك تعالجه الرواية بصياغة أدبية. والأهم أن الرواية قدمت، بطريقة لا تخلو من الصدق الفني، التنويعات المختلفة للحدث الانتفاضي والأدوار والتغيرات، وخاصة لجهة دور النساء. فالأم تشارك في الانتفاضة كتحول سُجل على مكانتها وانتقالها من الخاص للعام، فيما تطور دورها "التقليدي" كأم، لتغدو أم الشباب. أما وديعة، المتعلمة والموظفة(من البرجوازية الصغيرة بامتياز) فقد احتلت مكانة مرموقة، شأنها شأن العمال الريفيين والطلاب.[78]

رابعاً: الثقافة الدينية ودور النساء

والرواية لم تلحظ موقف هذه الثقافة على العموم، كما فعلت روايات أخرى عالجتها الرسالة[79]، من حيث عدائيتها للنساء وأدوارهن، بل لحظت الاجتهادات المختلفة، والمتناقضة أحياناً، لهذه الثقافة في موقفها من

[78]- في الجزء الثالث(بقايا) من الثلاثية يرصد الروائي تحولات إضافية: يتحول ماجد خريج الجامعة لعامل في تل أبيب(البطالة في أوساط الخريجين) ويعجز عن التوظف في المؤسسات الوليدة المحسوبة على بيروقراطية القيادة(تعرفين-يقول لوديعة- أن مؤسساتنا في القدس والتي تتلقى كل أموال الصمود تحولت إلى دكاكين للمتاجرة بالوطنية بلا حسيب أو رقيب)(88) (ظاهرة المأسسة البيروقراطية في الداخل كقاطع امتدادي لبيروقراطية الخارج.)

[79]- الدراسة ستقارن في القسم السادس بين الروايات على هذا الصعيد ببعض التفصيل.

النساء، وهو اختلاف يظهر في تباين موقفي حماس والجهاد من دور المرأة في الانتفاضة.[80] ولنا في نموذجي عبدالله ومحمد ما يؤكد ذلك، وفق الجدول التالي:

موقف الشيخ عبدالله (حماس)	موقف محمد(الجهاد)
لقبه الشيخ لأنه نتاج التيار الإسلامي السلطوي، إمام جامع	ليس بشيخ بل رفض الحكم العسكري تعيينه إماماً، إنه من خارج التيار الإسلامي الرسمي
يرفض مشاركة أم إسماعيل في قيادة الانتفاضة(72)	تربطه علاقة حميمة مع أم إسماعيل المناضلة
يحرض ضد النساء إجمالاً وأتباعه يقذفون الفتيات بالبيض (120)	يتضامن مع وديعة ويعتبرها بريئة من علاقتها مع يوسي وكان يريد خطبتها من أخيها

خامساً: رمزية الأسماء الروائية وأسطوريتها

تكاد تكون أغلبية أسماء الشخصيات ذات دلالات واقعية صريحة مرتبطة بأسطرة ما غلفت الرواية، هي على العموم أقل من أسطرة الغزاوي في جبل نبو. وأسطورية الأسماء تنتقل من الجزء الأول (إسماعيل) للجزء الثاني، علماً أن أسطورية الأول تتجاوز الأسماء لحدود تغليف بنية الرواية: الصراع على أرض المعاد بين يعقوب وإسماعيل، فيما في الثاني تتراجع بعض الشيء لصالح الحدث الانتفاضي. ومع ذلك ففي الثاني (أرض المعاد) أسطرة لا في الأسماء فحسب بل وفي الحوار وفي محوري العلاقة بين أرنونا/ هادي ووديعة/ يوسي. إن أسماء إبراهيم ويعقوب وإسماعيل من الجزء الأول ذات دلالات تاريخية/ قومية في الصراع، تنسحب في الثاني (إسماعيل ويعقوب التايه مساعده) فليس غريباً أن يسمى بالتايه فكأن الفلسطيني أصبح يهودياً في غربته وهجرته، يكرر قصة اليهودي الذي ينتظر أرض معاده منذ 2000عام![81] والأسماء لها أيضاً دلالات فكرية/ سياسية: هادي، معادي للعمل المسلح. إسماعيل(أبو العز) ومساعده(أبو المعتز) دلالة على عنترية شعاراتية شكلية، يناقضها السلوك السياسي. وحيد الراوي، مثقف معزول يشارك بالنضال مرغماً وبصدفة لقاؤه أبو قيس. أبو قيس اسم مستعار من رواية كنفاني(رجال في الشمس) يبدو كراوٍ لتاريخ الصراع والنكبة. عبدالله ومحمد متدينان في الاسم والموقف. ماجد من المجد والفخار باعتباره قائد الانتفاضة. أما وديعة فهي بوداعتها تبدو ضحية الصراع بين طرفي أرض المعاد.... وهي بدلالة أخرى وديعة لدى الانتفاضة التي لم تحافظ عليها. وهكذا كان للأسماء لا دلالاتها الأسطورية للصراع وحسب بل ودلالاتها السياسية/ الفكرية للواقع الاجتماعي/ السياسي للانتفاضة.

---

[80]- حماس على العموم حتى مطلع الثمانينيات كانت ترفض مشاركة النساء في العمل الوطني ضد الاحتلال بالاستناد لفتوى دينية. فيما الجهاد، على العكس، منذ بداية انطلاقتها أعطت المرأة أدواراً في النضال الوطني.

[81]- لقد عبَّر الشاعر مظفر النواب عن هذه المفارقة شعرياً حين قال في وترياته(نصبح نحن يهود التاريخ ونعوي في الصحراء بلا مأوى)!

سادساً: الخلاصة

في تطور الحدث برزت ملامح التحولات على مكانة المرأة والموقف الاجتماعي منها. فالاشتراك في العمل النضالي ظاهر لدى أم إسماعيل ووديعة، والمجتمع (حالة وديعة) والثقافة الدينية(حالة أم إسماعيل) يعادي هذا الدور. الفئات الشعبية تحتل دوراً قيادياً فيما تظهر الفئات البيروقراطية في الداخل والخارج كمعوق لهذا النضال. الصراع الدامي بين المشروعين الفلسطيني والصهيوني لا يترك مجالاً لحلول ذات طابع فردي لحل الصراع(الحب بين هادي واليهودية) حتى لو حولت اليهودية دينها وقوميتها.

أما مؤشرات التحولات:

1- **الوطني والاجتماعي**. مشاركة وديعة وأم إسماعيل في الحدث الانتفاضي تعكس المشاركة الوطنية للنساء في الأرياف، كفئات شعبية، في هذا الحدث. هذه المشاركة عززت مكانتها ولكن ظل المجتمع معادٍ لها(وديعة) والدين معادٍ لدورها(أم إسماعيل). المشاركة في الحدث الانتفاضي عززت مكانة المرأة لكن لم تقد لاعتراف بدورها. المسألة الاجتماعية تظهر في موقف الراوي من خيار وديعة العاطفي الملتبس، وعدم منحها ذات الحق في الخيار الممنوح للرجل (هادي).
2- **العام والخاص**. خروج المرأة كان واضحاً للحقل الانتفاضي العام، من نساء ريفيات(أم إسماعيل) ومن نساء متعلمات(وديعة).
3- **موقف الآخر**. العائلة تأخذ موقفاً معادياً من خيار وديعة العاطفي الملتبس، وتحاول تزويجها ابن عمها. التيار الديني التقليدي يعادي مشاركة النساء في العمل الانتفاضي، والمؤسسة السياسية تتسبب باستشهاد وديعة في ظروف غامضة تبقى معلقة، فيما يتحمل ماجد بالأساس(الرجل) هذه التبعية.
4- **الدور النضالي**. نموذجا أم إسماعيل ووديعة يمثلان المشاركة النسوية في الانتفاضة بما عكسه هذا من تحول في نفوذ النساء الوطني والاجتماعي، رغم الموقف المعادي بالنهاية، من أوساط عديدة، لتلك المشاركة.

استنتاجات القسم

كانت الانتفاضة الشعبية (1987) النقلة الأهم في تاريخ الحركة النسوية الفلسطينية ومكانتها، وقد تجلت تلك النقلة بشكل واضح في المعالجات الروائية لتلك الفترة لدى حرب والغزاوي وخليفة.

النساء في روايات **تلك المرحلة**، متعلمات ومثقفات ومناضلات(نزهة وسمر، أم إسماعيل ووديعة، وسروة..)، وكلهن نشيطات في فصائل المقاومة، ولهن موقف اجتماعي واضح، وهن أيضاً ضحايا موقف اجتماعي ذكوري رجعي، وكلهن أخيراً ينحدرن من فئات شعبية، عمالية وفلاحية وبرجوازية صغيرة كادحة. إن القاسم المشترك بين الروايات الثلاث يمكن ببساطة تلخيصه بالتالي: كان للمرأة دور في النضال وقدمت التضحيات على مذبحه، ولكن بذات الوقت ذُبح نضالهن على ذات المذبح! وهذا الذبح تم بأكثر من يد: يد الثقافة الذكورية عند خليفة، يد المقاومة الذكورية عن الغزاوي، وبأكثر من يد عند حرب! إن التزاوج بين

الوطني والاجتماعي في شخصيات النساء في الروايات تلك، وفي تطور الأحداث، حاضر بقوة وجميعها تكاد تتفق بذات الملمح: أخرجت الانتفاضة المرأة من حقلها الخاص(المنزل) وزجت بها في الحقل العام(النضال السياسي المباشر مع الانتفاضة)، ولكن بذات الوقت كان لثقل الموقف الذكوري دوره في طعن هذا النضال وكبحه وعدم جعله يتطور باتجاه مداياته الطبيعية، المساواة التامة في الحياة. طُعنت سروة في (الحواف) في نضالها وحبها، وطُعنت (نزهة) في باب الساحة كذلك، أما وديعة في (الجانب الآخر لأرض المعاد) فدفعت حياتها ثمن نضالها وحبها المستحيل، وطنياً.

لذلك، وبالاستناد للاستنتاج أعلاه، كان للثقافة السائدة، الدينية-الذكورية من حيث الجوهر، موقفها الداعم لهذا الطعن. (فالمستشيخين) – كما وصفتهم خليفة-كثر في روايتها، وكلهم على ذات النسق: العداء لمكانة المرأة. والموقف الذكوري والديني يطل برأسه كذلك في الموقف من وديعة(موقف الراوي شقيقها) وفي موقف الشيخ من نضال أم إسماعيل، أما سروة فكان لذكورية المقاومة المتبقرطة(فؤاد) دوره في الطعن بسروة ونضالها. كما أن العائلة التقليدية لعبت دورها هنا في تفريخ هذه الثقافة، وخاصة في نموذج عائلتي سمر ونزهة اللتان- أي العائلتين- تتمترسان لا وراء موقف معادٍ من المرأة فحسب، بل وتمارس قمعاً جسدياً عليها، وصل حد شروع أحمد بقتل من نزهة.

وما ينبغي إضافته أن هذه الروايات قد رصدت بداية نشوء الجهاز البيروقراطي في حركة المقاومة وتفريخه لتابعه البيروقراطي في الداخل (هادي وإسماعيل في الجانب الآخر.. والمربوط في باب الساحة، وأخيراً فؤاد في الحواف) والذي لعب دوراً، إما كخلفية أو مباشرة في سحق المرأة والرجل معاً. فإسماعيل وهادي نموذجان على حرف النضال الانتفاضي الذي مس بالنهاية نضال الرجال والنساء معاً، والمربوط البيروقراطي المتكسب من المقاومة طعن نضال نزهة وحبها، فيما فؤاد نموذج للمؤسسة البيروقراطية التي طعنت بنضال سروة.

وهنا تجدر الملاحظة أن الغزاوي وحرب لا يضعان كل الرجال المناضلين في ذات الموقف الرجعي من المرأة، فيما تفعل ذلك خليفة المشدودة أحياناً لثنائية الرجل والمرأة التي تبدو عمياء أحياناً. فمحمد تفهم موقف وديعة ولم يظلمها، وكذلك ساند ماجد أم إسماعيل، فيما عباس وإبراهيم في صف سروة، والبلدة(المجدل) أخذت بالإشاعة التي تطعن بشرف فاطمة الوطني والجنسي فيما تدخل إبراهيم المقاوم، وبرأها وأعدم الشبان المغتصبين. أما كل رجال خليفة(حسام وأحمد..) فلم يساندوا نزهة (وإن تميز حسام بعض الشيء). وفي هذا تأكيد على تمايز خليفة، ككاتبة امرأة في معالجتها لقضية المرأة، سنعود له لاحقاً.

وفي كتابات هذه المرحلة يظهر جناحا النظام السياسي الفلسطيني جلياً، نعني جناحي الداخل والخارج. والتفاعل بينهما في الحقيقة، بيئة تتحرك فيها شخصيات النساء الروائية. فالانتفاضة طرحت ثقل نضال الوطن ومكانته على جدول الأعمال، وبات من الصعب تصوير الثورة وكأنها (ثورة الخارج لتحرير الداخل)، فبات الداخل شريكاً فعلياً في النضال، وشكل الجناح الثاني للحركة النضالية الفلسطينية ككل. فأبو قيس وماجد في الداخل وإسماعيل في الخارج في الجانب الآخر...، وسروة وعباس في الحواف جمعا بين جناحي النضالي،

ونزهة في باب الساحة التحقت بتنظيم قيادته في الخارج.. و في هذا الإطار للعلاقة بين الجناحين تحركت المرأة وتفاعلت همومها الوطنية والاجتماعية.

القسم الخامس

المرأة وتحولات ما بعد أوسلو

الفصل الأول

أوسلو: المولود الهجين من امرأة تموت على الحاجز

رواية الميراث(1997)(لسحر خليفة) تقول كل شي عن مرحلة ما بعد أوسلو، الانعطافية، في السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة والقيم. إنها أكثر من سجل اجتماعي/ تاريخي للمرحلة، إنها لوحة متكاملة، تضم العديد من اللوحات الأصغر، صيغت بطريقة فنية مدهشة، لا تشخص فقط طابع التحولات، بل وتستشرف أفاق التأثيرات المستقبلية لأوجه الانهيار البادية في المرحلة. وهنا كان مكمن قوة الرواية: تمكنت من تقدير عوامل الانفجار الاجتماعي/ السياسي الكامنة في البنية الاجتماعية الناشئة ما بعد أوسلو. وعندما تكون خليفة أصدرت روايتها في العام 1997، العام الذي ظهرت فيه الأمور وقد استقرت بين المحتل والشعب، فهي، وبتطور السياق الداخلي نفسه للرواية، دفعت الوضع المستقر للانفجار فنياً، ليكون استشرافاً لانفجار الواقع في انتفاضة2000.

أولاً: السياق الداخلي للرواية

لم يبقَ شيئاً ذا أهمية اجتماعية، سياسية، ثقافية، قيمية..إلا وقالته الرواية عبر حبكتها الأساسية. صوت الوالد، على لسان الراوية، يقدم صورة لأوسلو، الواقع والتحولات: " ابنة عاقة ولد تيس وآخر مهزوم ويكابر ثم الفلتة في بلد النحس واثنان بلا أمل في العودة ودخول البلد، ومزرعة تذوي أمام عينيه، ومستوطنة كريات راحيل حول الوادي تُطبق عليه وتتوسع. قالوا أوسلو قلنا آمين، فلماذا إذن ما زالوا هناك فوق الهضبة في أعلى التل وحول السهل ومزرعته ويزحفون على الوادي وقرى الجيران؟ أهذا هو الحل؟ أهؤلاء هم أولاده؟

الثمر الجيد يتساقط والثمر الساقط يرتفع لفوق، يغدر بأخيه ويقطف الثمرة والمشروع. أهؤلاء هم أولاده؟ أهذا ما حلم به جيله واندفع إليه؟ أهذا ما بشر به ناصر أيام العز وصوت العرب؟ أهذا أهذا؟ " (240)

فالمستوطنة لا زالت فوق الهضبة وتزحف وتقضم، والعائلة تتفكك وتكاد تأكل بعضها البعض، والبلد تمتليء بالمشاريع فيما المشروع الإنتاجي للعائلة يذوي...لذلك ينكسر الحلم الذي عاشه الوالد والست أميرة من أيام عبد الناصر ومشروعه التحرري ليكون البديل هذا المسمى(بالحل)!

والحلم يبدأ بالتكسر مع كل صفحة في الرواية، إذ يبدأ كل شيء بالتداعي. زينة تأتي لزيارة أبيها المريض لتسترد كينونتها من خلاله كماضي وتاريخ(الصفحات 31+43+63) فتجده في العناية المكثفة، فيموت بعد وصولها بأيام! مازن الثوري يتكشف رويداً رويداً التناقض بين ماضيه كمقاتل جريح وبين حاضره كفاشل ومهزوم يطارد المشاريع بالتعاون مع السلطة والقناصل! وعندما حاول مشروعه الوطني(المهرجان)، وجد مشروعاً ينهار، ينفجر مشروعه بالاشتباكات ويتحول لصراع دامٍ! نهلة، معادل مازن النسوي، قدمت الكثير لوطنها وإخوتها، وعاشت أيام العز الناصرية، فانحدرت لجنس رخيص مع السمسار أبو سالم، وكمال جاء بمشروع حيوي للبلد(تنقية الصرف الصحي) ليتحول مشروعه لكارثة!..والأهم أن مولود فتنة الحديث، الملقح من الإسرائيليين، يولد هشاً، ضعيفاً، فتموت أمه على الحاجز، فتقدمه أميرة للإسرائيليين باعتباره حصتهم!

وهكذا تنهض الرواية على سلسلة من الانهيارات التي تتوج بموت الأم وتقديم الوريث، ابن فتنة، للإسرائيليين، على الحاجز الإسرائيلي بعد فشل المهرجان. والميراث هنا ميراثين-إن جاز التعبير- فمن جهة ميراث كل شخصية من مرحلة النضال الوطني السابقة على أوسلو، وقد تحول هذا الميراث لكارثة على صعيد كل شخصية، كما تجسد في الكوارث أعلاه، ومن جهة ثانية الميراث الأساسي الذي جاءت تبحث عنه زينة: وزينة ما جاءت تبحث عن ميراث بالمعنى المادي، بل بالمعنى الروحي/ الوجداني: إنها جاءت تبحث عن تاريخ وطني، هوية، تستقوي بها على حاضرها المأزوم، المشوه الهوية من تاريخ هوية مزدوجة (أمريكية- فلسطينية). فإذ بفتنة سبقتها وحملت من والدها، وبمساعدة الإسرائيليين، الوريث (الذي يحجب الميراث) عن العائلة، ولكن هذا الوريث تقدمه أميرة للإسرائيليين. فكل من بحث عن ميراثه انتهى للعدم، فأوسلو لم يقدم وريثاً شرعياً لما سبقه، بل سلسلة من التشوهات والمآسي، والتكسرات، خاصة للمرأة(أنظر الجدول اللاحق)، أو ما يصفه المناصرة (2000: 388) "بالتركات المشوهة".

ثانياً: الشخصيات النسوية وتمثيلاتها الاجتماعية/ السياسية

نماذجها وتمثيلاتها عديدة بكثرة تلك الشخصيات(زينة، فتنة، أميرة، نهلة، أم جريس، فيوليت...) ولكن الشخصيات الأربعة الأولى هي الشخصيات الأساسية التي يمكننا الوقوف من خلالها على مكانة المرأة في الرواية وما تمثله في الواقع الاجتماعي والسياسي والتحولات التي جرت عليها.

زينة أمريكية- فلسطينية يطاردها أبيها ليذبحها لحملها غير الشرعي، فتنقذها جدتها الأمريكية. تدرس وتغدو أكاديمية مختصة في علم الأنثروبولوجي. تعود للوطن للبحث عن أبيها الذي ما عاد يستطيع العيش في

الغربة. فتغدو راوية الأحداث التي تعصف بالبلاد بعد أوسلو: التحولات، المشاريع، النفسيات المهزومة، والمناضلين التجار، والانهيارات...إنها كأنثروبولوجية تبدو كأنها ترصد حالتين دراستين: عائلة الشياب الأرستقراطية مظهراً، والتي تعج بالتفاهات جوهراً، فتعيش على أمجاد غابرة لتغطي تدهور حاضر لا يمنحها دوراً، وعائلة حمدان الفلاحية أساساً التي يبدأ مشروعها الإنتاجي بالانهيار بعد أوسلو، ويتفكك أمام عينيها بفعل مشاريع ما بعد أوسلو. لا تبدي كثير امتعاض من فتنة زوجة أبيها الشابة التي دبرت أمر حملها المفاجيء من رجل يموت، وبمساعدة الإسرائيليين، لتحجب الميراث، بل تبدو على العكس وقد أُعجبت بذكاء فتنة. في النهاية ترحل زينة دون تحقيق شيء: مات من كانت تعول عليه أن يمنحها التاريخ والهوية، وجاء الوريث الهجين الذي يفترض أنه أخوها من أبيها، هشاً، ضعيفاً. تقول أميرة لفتنة " ابنك عادي، لكن يا ويلي شو وزنه قليل ونحيف كثير! لازم إسعاف، لازم، لازم"(295). لذلك تدير زينة ظهرها للميراث وترحل، لتأكيد أن ما جاءت تبغيه ليس ميراثاً بالمفهوم المادي، بل ميراثاً- هوية، وعندما جاءت تلك الهوية على ما جاءتها أدارت ظهرها ورحلت.[82] وكان المناصرة(2000: 381) قد لحظ أيضاً النهاية المأساوية لزينة التي "فقدت حماسها لجذورها ورحلت".

زينة في الرواية جيل يبحث عن هويته بعد أوسلو، شعر أن الأرض بدأت تميد من تحت أقدامه، إذ استشعر تناقضات هويته، فأخذ يروم هوية متماسكة، اعتقد أنه سيجدها في المرحلة الجديدة، ولكنه في بحثه لا يصطدم إلا بكوارث المرحلة: لا هوية وطنية تقدمها المرحلة الجديدة، بل هوية قديمة تموت، وجديدة، بتلقيح صناعي إسرائيلي، تولد هشة، ضعيفة. وهنا لا بد من الإشارة لمدى الحنكة الروائية التي أنهت بها خليفة روايتها: تقديم الوليد للإسرائيليين باعتباره نصيبهم من الميراث! فالإسرائيليون اللاذين ساعدوا على إيجاد هوية جديدة- مولود جديد، جاءت مشوهة، فهم بالتالي أصحابها، فليأخذوها إذن! هي تركة مرحلتهم، وجهودهم، فما شأن زينة بها؟ إن صيحة أميرة في نهاية الرواية ستبقى علامة فارقة في تشخيص الرواية الفلسطينية لدور المرأة بعد أوسلو. قالت للجنود عند الحاجز وهي تحمل الوليد الهش الضعيف " Thank you very much, this is your share" (316)

فتنة الصبية الشقراء الجميلة المتحدرة من أصول أرستقراطية(عائلة الشياب)، تكون المعمل للتجربة الجديدة- الحمل بوريث للبرنامج والتاريخ(الأب) وبمساعدة الإسرائيليين. وفي كونها من عائلة أرستقراطية إشارة للعودة لدور جديد للعائلات الأرستقراطية بعد مرحلة أوسلو. تبدو ساذجة ولكنها ذكية وتعرف ما تريد: وريثاً من الأب. فلا تتردد بطلب مساعدة الإسرائيليين لتحجب الميراث عن الوريث الشرعي بالمفهوم الوطني: العائلة ذات الخلفية الوطنية سياسياً، وذوي التاريخ الوطني(عائلة حمدان). كأن فتنة (ذات الأصول

---

[82]- ضمن قوالبه حشر العيلة(2003: 163) زينة في قالب المرأة المتمردة!! مستنداً على الأكثر لموقفها الذي اكتشف ما بين الماضي والحاضر من وشائج عندما رأت سعيداً يحمل السكين يلاحق نهلة فتذكرت لحاق أبوها بها وهي يافعة. ولكن ليس هذا جوهراً يمكن حجز شخصية زينة فيه إلا إذا اعتمدنا القولبة التي لا تخذ بها الدراسة، فزينة أكثر من ذلك كما مر في الدراسة وكما سيمر. وما قيل عن زينة يقال عن نهلة. فأين التمرد في شخصيتها؟ كل شخصيتها تمثيل لانهيار وخيارات بائسة فرضها بؤس الواقع السياسي الجديد، وليس للتمرد مكان هنا.

والحسب والنسب) تبحث، بمساعدة الإسرائيليين، عن دور لطبقتها في وراثة التاريخ السابق- النضال الوطني.

الست أميرة صوت التاريخ والبرنامج، من عائلة تجار، وذات موقف وتاريخ ناصري. هي المتماسكة الأكبر في الرواية بين كل الشخصيات ومعها عم زينة. كأن التماسك كان حكراً على مَنْ ظل متمسكاً بالتاريخ والبرنامج. في سلوكها مع نزاع نهلة وعائلة أبو سالم زوجها السمسار كانت متماسكة، وفي موقفها الأخير عند الحاجز كانت متماسكة أيضاً. هي مَنْ حسمت أمر الوريث بالنهاية دون تردد بل بجملة فيها من الجرأة والرفض ما فيها (Thank you very much. this is your share). إن الست أميرة هي الشخصية الأبرز كحضور وموقف رغم أن هامش الحضور الروائي كان أكثر لزينة ونهلة وفتنة، ولكنها بمواقفها فرضت على النص موقفاً كان بمثابة العقدة الأساس في الرواية.

نهلة الشخصية الحطام في الرواية! معلمة في الكويت تربت على برنامج وتاريخ عبد الناصر، ونهلت من الفكر النقدي في شبابها. ضاع الشباب وهي تسند إخوتها في تعليمهن ولا تبخل، الأمر الذي منعها من المشاركة الفعلية في النضال مع أنها شاركت بالدعم المالي للثورة. بعد أن عادت من الكويت، إثر ترحيل الفلسطينيين، وقفت أمام واقعها: حياتها ذوت وشبابها ضاع، فصرخت أنوثتها تطالب ذكراً، فما اصطدمت إلا بالممثل الأسوأ للبرجوازية العقارية الجديدة، السمسار أبو سالم المتزوج، والذي لأبنائه باع في النضال. ضُبطت في حفلة في دار الشياب، والسمسار، قبل الزواج منها، يعصر عجيزتها في ممارسة أقرب للتفاهة والرخص منها للجنس![83] يحاول أخوها سعيد(البرجوازي المستشيخ) أن يقتلها فتطلق النار عليه وتجرحه. أما مازن، الأقرب لقلبها وجيبها زمن ثوريته، فيستشيط غضباً منها، متناسياً دورانه على النساء كمكوك! يخطفها أبناء السمسار، مناضلو الانتفاضة السابقة، ليجبروها على كتابة تنازل عن أية حقوق لها من زواجها من أبيهم. تخرج من ورطتها بصفقة تجارية بين سعيد(المستشيخ) وأبناء السمسار، تخسر فيها حقها الذي بات يوظف في مشروع جديد بين الشركاء!

إن نهلة تمثيل لقطاع نسوي أقرب للنموذج الجاهز لدى خليفة، والذي وقفت الدراسة على شبيهه في (باب الساحة). في كل ما يتعلق بشخصيتها وتطور تلك الشخصية تبدو الضحية الأبرز المصاغة لاعتبارات التحريض الأيديولوجي على العالم الذكوري، فكل ذكور الرواية يظلمونها، اللهم والدها. إخوتها، زوجها، أبناء زوجها...إنها ضحية الثوريين(مازن) والبرجوازيين الجدد(أبو سالم) والمنتفضين(أبناء أبو سالم) والذين يبدون محافظين على بعض من نقاء، (كمال) أيضاً. إنها تبدو وكـأنها الخاسر الأكبر ما بعد أوسلو: أضاعت شبابها ومالها وعمرها وما خرجت في النهاية سوى بأبي سالم صاحب الشخصية المنفرة على كل الصعد، اجتماعياً ووطنياً وأخلاقياً. وفي هذه النقطة بالذات (الخاسر الأكبر) تبدو خليفة أمينة في تشخيص ما

[83]- يستخدم المناصرة(2002: 382) لفظ(الابتذال الجنسي) لما آل إليه حلم زينة الأنثوي.

آل إليه وضع المرأة بعد أوسلو، رغم الصياغة المفتعلة بعض الشيء في ملامح وتطور الشخصية. فالمرأة بعد أوسلو خسرت مكانتها السياسية والاجتماعية التي اكتسبتها في مرحلتي العمل المسلح والانتفاضة.[84]

وبعد، إن مكانة المرأة في الرواية تبرز في كونها محور الحدث الأساسي: ميراث ما بعد أوسلو. فالشخصيات النسوية الثلاث، زينة وفتنة والست أميرة هن بالذات من يدور هذا المحور حولهن: فتنة تحمل الميراث، الذي جاءت زينة تبحث عنه، فيما أميرة هي من يقدمه للإسرائيليين.

جدول تكسر الأحلام النسائية

الشخصية	الحلم	الواقع
زينة	البحث عن هوية وتاريخ ما بعد أوسلو.	هوية قديمة تموت، وجديدة تولد هجينة بمساعدة الإسرائيليين.
فتنة	وريث لمرحلة ما بعد أوسلو.	تموت على الحاجز الإسرائيلي.
أميرة	تطلع لنموذج وبرنامج عبد الناصر الوطني.	نموذج هجين من الفلسطينيين والإسرائيليين.
نهلة	نموذج رجل تستعيد شبابها الضائع، في الثورة والعطاء، من خلاله.	سمسار قميء من أغنياء المرحلة الجديدة، وينتهي مشروعها بصفقة ذكورية فظة.

ثالثاً: البنية الروائية ودلالاتها على التحولات في مكانة المرأة

إن أكثر ما يلفت النظر قضيتان أساسيتان، سبق أن تعرضت الدراسة لواحدة منها، ونعني بها، احتلال المرأة، عبر شخصية زينة، لدور الراوي الأساسي، وليس الوحيد، بما يمنح المرأة مكانة هامة في رواية الحدثين، الروائي، وتمثيله الاجتماعي السياسي. أما القضية الثانية فهي تلك المساحة الواسعة للحوار في الرواية، والتي فرضها تعقد علاقات الشخصيات والحدث معاً. فالرواية فيها عدد كبير من الشخصيات، وكلها تتشابك معاً في علاقات وتناقضات، وهذا معادل فني لتشابك وتعقد علاقات البنية الاجتماعية ذاتها، وبالتالي كان من المحتم أن تلجأ خليفة لمساحة واسعة من الحوار لتوضيح تلك التشابكات والعلاقات والتناقضات. فكل الشرائح الاجتماعية موجودة، وكل الأدوار..كما سيظهر في تفصيل ذلك لاحقاً، وهذا استدعى مساحة واسعة من الحوار، الأمر الذي مكن الرواية، وبالتالي التحليل، من الوقوف على تفاصيل مكانة المرأة(والرجل) في هذه الشبكة الواسعة من العلاقات والتشابكات.

وحتى في اللحظة التي ينزاح فيها الحوار الخارجي بين الشخصيات، يحتل الحوار الداخلي (التداعي وتيار الوعي) مكانه، وهذا تطلبه ضرورة الربط بين مرحلتين زمنيتين، ما قبل أوسلو وما بعد أوسلو، في تطور وموقف الشخصيات، كما تطلبه أيضاً ضرورة الوقوف على ما يدور داخل ذات الشخصية من تقييم وتحليل لتطور الوضع السياسي بعد أوسلو، ومكانة الشخصية من هذا التطور. وهذا أيضاً فسح المجال لمعرفة دواخل الشخصية النسائية(نهلة وأميرة تحديداً).

---

[84]- كانت الدراسة عالجت ذلك في القسم الثاني منها.

والرواية تحفل بالجمل الطويلة المليئة بتفاصيل التفاصيل، وكأن خليفة تؤكد أن المرأة لديها الكثير لتقوله، روائياً، لتعكس من خلاله فهمها وموقفها من الأحداث والتطورات، وكأنها- المرأة- لا تجد مساحة للقول اجتماعياً فتقول روائياً...بهذا المعنى تغدو الرواية صوتاً نسوياً بامتياز.

رابعاً: الثقافة والمرأة

والمكون الثقافي أساسي في سلوك وموقف الشخصيات النسوية، والأهم أنه مكون متنوع. بين مكون تقليدي(زوجة أبو سالم) ومكون سياسي تقدمي(أميرة) تتنوع المكونات التي يمكن عرضها، وتأثيراتها كالتالي:

تلعب الخلفية الناصرية دورا أساسيا في تكوين نهلة وأميرة. فالأولى تربت على تراث روز اليوسف في المرحلة الناصرية وتتذكر " صباها الذي ولى حين كانت تقرأ وتتثقف في الخمسينات، من كان الأبرز في الساحة؟ خالد محمد خالد وروز اليوسف وبعض الأسماء في ذلك الوقت، وكانت مليئة بالأفكار والممنوعات والمرغوبات والحلال والحرام" (115) فتقارن بين ما كان وما صار اليوم " والآن ماذا؟ أين مازن؟ أين نهلة؟ أين الإخلاص والتضحية، "طلعوا على جنابي وجنابك يا خيي"- تخاطب مازن- " (116). تكثر في حديثها مع نفسها ومع زينة من الشكوى، بلغة جندرية، من واقعها الحالي " عصروني مثل الليمونة وراحوا لحالهم وداروا الدنيا وداروا ظهورهم.... كنت أقول: بكره بمرض، بكره بعجز، بكره بخرفن، ويمكن في كبري ألاقيهم، وهايني لا بكبري ولا بصغري ألاقي واحد يسندني أو يسأل عني ولو مرة" (70)

ونهلة تعي بثقافتها ما جرى ويجري وما آل إليه وضعها بعد أوسلو " واقع امرأة في الخمسين كانت حلوة، نضرة، صغيرة، مليئة بالحب والعواطف، أفاقت فجأة ووجدت نفسها ابنة خمسين، بلا مأوى وبلا جدوى وبلا إشباع. فعادت تلملم دنياها وما تبقى لها من واقعها وتحاول عبثاً أن تحيا" (95). ولأنها كانت (تحاول عبثاً أن تحيا) فأوصلتها عبثيتها لحضن السمسار.

والثانية تربت على أمجاد عبد الناصر وأم كلثوم فأسمت ابنها باسمه(عبد الناصر) " وكانت تحس بحب القدس، هو حب مصر، وحب مصر هو حب القدس، وخان الخليلي وباب العامود هما في الواقع من الظهر نفسه.." وتتذكر هنا أن المولود لفتنة ليس من ظهر عربي، بل من نسل هداسا فتصيح بداخله " أما فتنة فماذا تسميه؟ تسميه هداسا؟ تسميه كهانا؟ تسميه شلومو؟ أي أن ابنها عبد الناصر سيكون خالاً لشلومو! وشلومو ماذا! شلومو الشايب أم شلومو حمدان؟ لا فرق كبيراً، فهو وإن كان شلومو حمدان سيظل حفيداً للشايب. ومهما كان، حتى إن أسموه محمد، ومحمود، فسيظل في الواقع الحفيد نفسه ابن هداسا" (189). لذلك انهارت بالبكاء عندما تداعت أفكارها واكتشفت " إن هموم السنتواري وهموم اليوم قد شغلتها عن هم الأمس وهم اليهود وهم الدنيا وهم التاريخ. كان التاريخ قطعة واحدة موصولة، وصار فتافيت." (188).

ولأنها صاحبة سنتواري، فهي صاحبة تاريخ، فالسنتواري يحيا على عراقة التاريخ، وبالتالي فمكونها الثقافي حملها هم التاريخ برمته، فلا عجب حينها أن تقول عن الجنين الهجين" حتى إن أسموه محمد، أو محمود، فسيظل في الواقع الحفيد نفسه، ابن هداسا" لذلك كانت تتمنى موته، فالعبرة ليست في تسمية أوسلو بالدولة أو السلطة الوطنية..بلغة الخطاب السياسي الدارج، بل في حقيقة كونه أوسلو/ الهجين.

والثقافة الدينية تحيط بمسار الشخصيات النسوية. فتتكرر في الرواية لفظة "مستشيخ" بمدلولها اللغوي الساخر- مدعي التدين! وهذه اللفظة محببة لخليفة فقد استخدمته أيضاً في باب الساحة في وصف شقيق نزهة. سعيد أخو نهلة مستشيخ يلاحقها بالسكين لقتلها، ثم يأخذ بمساومتها على حصتها من زوجها السمسار وبالاتفاق مع أولاده. ابن السمسار أيضاً مستشيخ، انتهى من منتفض ليستخدم سلاح الانتفاضة في تحيق مأربه الشخصي: أن يحوز الأبناء حصة نهلة من زوجها. وما يلفت النظر أن خليفة تلحظ في روايتها ظاهرة تنامي النفوذ الديني لدى الأوساط الشعبية والتي تعززت بعد أوسلو، بعدما كان تشكيل حماس والجهاد من معالمها الأساسية قبل أوسلو." فشيخ الجامع- هذه الأيام- هو طرف الخيط، بل منتصفه. شيخ الجامع يعرف الناس والبلد وأزقته ومخابيه. فهؤلاء هم الفقراء. والفقراء في هذا الجيل غير الفقراء في ذاك الجيل. فقراء الأمس كانوا العمال والأجراء والباعة. قرأوا المنشور وسمعوا الخطب وانضموا أفواجاً إلى التنظيمات. وفقراء اليوم قرفوا الخطب والشعارات والمنشورات وانفضوا من حول التنظيمات. الجامع إذن هو مجمعهم أو مدخلهم" (173) فالتحول إذن يشمل تراجع قوى التنظيمات، وتحديداً القوى اليسارية، وتنامي القوى الدينية، كما سجلت مرحلة ما بعد أوسلو، وتنامي الأخيرة تنامي في ثقافتها التي تلقي بثقلها على المرأة، وليس هو بثقل مؤيد أو داعم لدورها على أية حال! ولكن شيخ الجامع لا يقدم الحل لهم: لم يحل مشكلة اختطاف نهلة، وبالتالي عجزت الثقافة الدينية عن الإتيان بحل.

في نفس الوقت فإن أميرة الناصرية التحررية، تحاول اللجوء للدين للخروج من ورطة الحصار وإنقاذ فتنة(والست أميرة لجأت للدين تستنجد به كي ينقذها، قرأت الفلق ثلاث مرات، ثم الكرسي، ثم ياسين، ولكن أية منها لم تفلح في فتح الخط أو تسليكه"(305) فالدين هنا أيضاً لم يقدم الحل للمحاصرين من الجيش والمستوطنة الرابضة على التل، في إشارة لعجز القوى الدينية الجديدة في المجتمع عن الإتيان بهذا الحل.[85] ومع كل ذلك فأميرة لا تتخلى عن صلابتها التي عُجنت بالموقف الناصري/ القومي، وتظل متمسكة بها حتى اللحظة الأخيرة على الحاجز،[86] عندما رفضت سلوك طريق المستوطنة، كما شاء مازن، وقدمت الطفل للجنود كحصة لهم.

خامساً: تحولات الفئات والمواقف

وهذه التحولات عميقة في سلوك الفئات الشعبية ومناضلي الأمس- ما قبل أوسلو." فرجال دروب وادي الريحان ليسوا أمراء، بل هم عمال وفلاحون سرقتهم مصانع إسرائيل من مزارع مقفرة مهجورة ما كانت لهم. وهم أيضاً حفظوا الثورة عن ظهر قلب حين تغنوا بمجد القائد ودم الشهيد ونتائج صفقات التحرير وزفات النصر. هذا هو الشعب، ها هم أمراء وادي الريحان، هذا هو النصر في زمن غزاة التلفزيون وإحالة الخزي إلى تحرير وشبه انتصار" (224)

---

[85]- يذكر هذا الموقف بالنموذج البارز لعجز الحل الديني كما قدمه محفوظ في اللص والكلاب عندما توجه سعيد مهران يطلب الحل من الشيخ فلم يجد الأخير إلا أن يقول له(توضأ واقرأ).

[86]- يلحظ العيلة(2003: 148) هذه الصلابة فيقول" احباطات اللحظة الراهنة غير قادرة على كسر صلابتها الموصولة بأجمل ما في الماضي من معايير"

وهي- التحولات- تطال كل شخصيات الرواية، وبالأخص النساء منها. وفي رصدنا للتحولات على أدوار ومواقف النساء يصعب إلا تناول التحولات على مواقف الرجال، بما يمثلوه من خلفيات اجتماعية، تتفاعل وتؤثر وتتأثر بالتحولات الأولى.

التحولات الاجتماعية في المكانة

الشخصية	ما قبل أوسلو	ما بعد أوسلو
نهلة	مناصرة للثورة/ متبرعة لها/ معلمة لأخوتها/ متأثرة بالأجواء الناصرية والثقافة التحررية	مركونة على الرف/يقتلها الحنين للرجل/ترتمي في حضن السمسار/يضيع حقها في ميراث الثورة في المرحلة الجديدة
مازن	ثوري جريح/ يساري/صاحب مشروع ثوري	خواء عاطفي/إنشداد لمشروع تجاري- ثقافي/انفجار مشروعه/علاقات مع السلطة والقناصل/ يدعو للتعاون مع المستوطنين للخروج من حصار الجيش
أبناء السمسار	فقراء ينحازون للانتفاضة	يستخدمون سلاحهم للسيطرة على ميراث الأب/ يمارسون الخطف والترويع
العم مالك المزرعة	مزرعة إنتاجية	مزرعة تذوي/ مشاريع جديدة للأبناء يريدون لها النجاح ببيع أرضه[87]
أميرة	البرجوازية المتوسطة المنحازة للناصرية وتتسلح بمشروع تحرري	لم تنل سوى حفيد هجين بتلقيح هداسا
كمال	صاحب مشروع للصرف الصحي(حيوي وهام للبلد)	لا ينتج منه سوى كارثة بعد سيطرة السمسار عليه (رائحة الخراء تأتي من الغرب)[88]

[87]- الرواية تعج بالمشاريع الجديدة مقابل المشروع الذي يذوي(المزرعة). مشاريع من مازن وكما وسعيد والسمسار وأبناء السمسار... وقد رسمت خليفة صورة وافية(مع بعض السخرية) لحالة الاندلاق الطبقي للشرائح البرجوازية، المقيمة والعائدة، على إنشاء المشاريع للاستفادة من كعكعة المرحلة الجديدة(119)

[88]- أن يتحول المشروع الحيوي للصرف الصحي لكارثة لا تجلب سوى رائحة الخراء، فهذا ذو دلالة على أن المشاريع الحيوية لا يسندها واقع يحض عليها ويحتضنها بل ستتحول لمشاريع كارثية وتفشل. أما أن تأتي رائحة الخراء من الغرب فهذا ذو دلالة سياسية (ما يأتي سياسياً) من الغرب شبيهة بجملة رددها الممثل محمود المليجي وغدت مثلاً شعبياً يعكس ثقافة سياسية في الستينيات (هو عمر حاجة جات من الغرب وكانت تسر القلب)!

فما بعد أوسلو تحولات وتحولات. المرأة كانت في النضال وإن لم تكن في قلبه، تحمل همومه(نهلة وأميرة)، وبعد أوسلو تذوي أحلامها وتتحول لمسخ(هجين ملفح من الإسرائيليين) بالنسبة لأميرة، ونهاية بائسة في عالم السمسار القبيح وأولاده الزعران بالنسبة لنهلة. أما زينة المحور الأهم فتدير ظهرها بعد رحلة بحثها عن الانتماء والتاريخ وتعود للهجرة.

وعن تنوع شخصيات الرواية، وتنوع مدلولاتها الاجتماعية، يلحظ أبو بكر(في تأملات، 2000: 82) ذلك قائلاً" شخصيات شديدة التنوع، في مجتمع يقف على حافة تحول جذري، هو المجتمع الفلسطيني في ظل السلطة الوطنية، وهي تحاول أن تؤسس كياناً سياسياً اجتماعياً اقتصادياً له بنيته القادرة على الصمود" وهو إذ يلحظ التنوع الشديد في الشخصيات، إلا أنه يقول الرواية ما لم تقله: فليس فيها (مجتمع يقف على حافة تحول جذري) بل مجتمعاً تحول تماماً وإن كان التحول، لأنه هكذا، عملية مستمرة. وتبدو خلفية الموقف السياسي للناقد تطل برأسها من الاسترسال(وهي تحاول أن تؤسس...) فالكيان ينفجر في النهاية(مهرجان مازن بالتعاون مع المحافظ والممولين). وأبو بكر يقول ذلك رغم أنه يسجل حقيقة " كل المشاريع التي تستيطع أن تخلق الوطن الجميل، والوطن المكتفي، تتحول على يدي التخلف إلى كوارث، يزيدها غموض التسوية وعدم كفايتها مأساوية" فالكارثة لا تؤول، والحال هذا، إلى محاولات" تأسيس كيان...". أما الأهم في ما يقول فهو أنه يعزو (للتخلف) تحول المشاريع لكارثة! دون أن يلحظ الخلفية الاجتماعية/ الطبقية لرجالات المشاريع، تلك الخلفية التي تحول أي مشروع لكارثة،لا لبناء سياسي، لا التخلف.

سادساً: حقل عام بمضون جديد

وإذا كانت المرحلة السابقة قد أخرجت المرأة بعض الشيء من حقلها الخاص، غير أن المرحلة الحالية لوثت الحقل العام ومكانتها به. فالمسألة الآن ليست في (هل خرجت المرأة من حقلها الخاص للحقل العام؟)، بل إن الحقل العام لم يعد هنا حقلاً تمارس من خلاله المرأة دورها ومكانتها، بل حقلاً تكتشف من خلاله بؤس الانهيار في أحلامها، فالحقل لم يعد ذات الحقل. فالحقل العام الآن، هو انكسار الأحلام بالتحرر، مشاريع مشبوهة، وطبقات داعرة (نموذجا البيك والسمسار)، وحقل مناضلين باتوا يبحثون عن مكاسب شخصية في مرحلة الكل فيها يريد حصته من الكعكة. يقول لسان حال أبناء السمسار" إحنا هلقيت بعنا شبابنا وبعنا حياتنا وقلنا منخلص، ومش راح نخلص، **يعني كل واحد بشطارته.** سامع يابا؟يعني معاك قرش بتسوى قرش، هيك بالآخر، **هيك الدنيا** هذا الي أخذناه من الشغل الجد" (217).

فالدنيا الجديدة بعد أوسلو هي حقل لتوزيع الكعكة والشاطر من يلحق نفس، كل بشطارته. وعليه، فالكل يحاول إعادة التوزيع بغض النظر عن الشرعية الأخلاقية للممارسة، وبالتالي فالخطف ممكن(خطف أولاد السمسار لنهلة) والتحايل كذلك(سلوك سعيد المستشيخ مع أخته) والابتذال أيضاً(سلوك البيك مع فيوليت) وحتى الاستعانة بطريق المستوطنين للخروج من ورطة حصار الجيش(سلوك مازن)...والأهم تلقيح الرحم من الإسرائيليين لحجب الميراث(فتنة). فكل الوسائل ممكنة..وكلها تؤشر لوسائل انتهازية، رخيصة ومبتذلة،

والأهم أن الإسرائيليين هم الرابح الأول: من الانهيار ومن المولود الذي قدمته أميرة لهم كنصيبهم من الميراث.

في هذا الحفل العام المرضي، وطنياً واجتماعياً، تحركت النساء في الرواية. وتحركها يمكن وصفه بجملة واحدة: تكسر الأحلام والمشاريع لدى الشخصيات الأربعة: نهلة وفتنة وأميرة وزينة.

إن الرواية، رواية تكسر الأحلام والمشروع الوطني، ترسم صورة سوداوية لمآل الشخصيات النسوية، هي تمثيل للصورة السوداوية للواقع السياسي/ الاجتماعي ما بعد أوسلو، واقع انهيار المشروع الوطني وسوداوية الواقع السياسي/ الاجتماعي. فلا صورة واحدة تبعث على التفاؤل الكاذب في واقع سوداوي، سوى أن هذا الواقع لا بد ينفجر في يومٍ ما: فقد تحول مشروع مازن الثقافي بتعاون المحافظ والقناصل والتمويل إلى كارثة على كل الصعد: عمت الفوضى المهرجان، ماتت فتنة، طوق الجيش المهرجان، وهبت رائحة الخراء من الغرب لتزكم الأنوف..فتحول المهرجان لاشتباك مع المحتلين، لتبدو تلك- صورة الانفجار الأكبر- وكأنها التفاؤل الوحيد، بأن ما يرسم له على الأرض لن يقود إلا إلى الانفجار الحتمي للتناقض الأساسي الذي سيظل قائماً حتى يُحل جذرياً: التناقض بين الاحتلال والشعب.[89]

سابعاً: الخلاصة

كل تفاصيل الرواية، من أحداث وتطوراتها ـ شخصيات نسائية، مستويات الحوار تدلل على مكانة المرأة ما بعد أوسلو. فانهيار الحلم الوطني يتجلى في موقفي زينة وأميرة، والمصير البائس لمكانة نسوية، وطنية واجتماعية، يتجلى في مصير نهلة. سياق الرواية الفني المزدوج: موضوعة الوريث من جهة، والمهرجان الوطني من جهة ثانية ينتهي بفعل أوسلو نهاية مأساوية. فالوريث صناعة إسرائيلية والمهرجان يطوق ويتحطم من الداخل.

أما المؤشرات على التحولات فهي:

1- **الوطني والاجتماعي.** الوطني يتراجع، هو في الرواية ذكريات مناضلين سابقين. الحلم الوطني يتحول لوريث مهجن من الإسرائيليين. وعندما سعى مازن المناضل السابق لإحياء كيان وطني (المهرجان) انفجر وطوق من الجيش والمستوطنة. وما ينطبق على الرجال ينطبق على النساء: فزينة تسعى لكيان وطني لا تجده، ونهلة تتذكر مساهماتها الوطنية وأين وصلت، فيما الست أميرة، ضمير يذّكر بأين كان الطموح الوطني وأين وصل. أما الاجتماعي، فكعادة خليفة، فهو مطروح بقوة. ليس من امرأة إلا ويتحطم دورها الاجتماعي ومكانتها. فتنة تفقد حياتها وأميرة تنحسر، وزينة ترحل ونهلة تضيع. إن هذا الواقع يعكس ضياع الدور النسائي ما بعد أوسلو على النقيض من الدور البارز لها في الانتفاضة.

---

[89]- لذلك قالت الدراسة في مفتتح هذا الفصل أن الروائية تنبأت بالانتفاضة الثانية(2000) لتعكس قدرة فائقة على استشراف مكونات الانفجار في العام 1997

2- **العام والخاص.** التغير هنا كبير، ليس بالخروج من العام للخاص كما ظهر للدراسة من الروايات السابقة، بل لجهة إنطراح العام كموقع لاحباطات المرأة. فالعام ما بعد أوسلو يسجل تراجعاً في مكانة المرأة ودورها الوطني وهذا ما تسجله الرواية، فالتشتت والبعثرة والهموم الصغيرة والإحباط...كلها تظهر كسمات مرافقة للمرأة في حيزها العام الجديد.

3- **موقف الآخر.** مرة أخرى تقول خليفة كل ما عندها بصدد موقف الدين والتيار الديني والعائلة والتنظيم والرجل...كل هؤلاء في الرواية معادون للمرأة، والملمح البارز هنا هو تحول أوساط من الفئات الشعبية باتجاه الموقف الديني وتياره الأمر الذي خلق صعوبات جديدة أمام المرأة ومكانتها.

4- **الدور النضالي**. لا مناضلين في الرواية، بل أحلام مناضلين تكسرت، وهذا يؤشر لتراجع النضال الوطني ما بعد أوسلو، وانتعاش ظاهرة التحسر على ما مضى، والتي تظهر في الرواية صريحة.

الفصل الثاني

المرأة تدفع ثمن الانهيارات على الصعيدين الاجتماعي والوطني

زكية السلطان، هاجر، ومي رسولي شخصيات الرواية الثالثة لغزاوي (الخطوات) التي تؤرخ روائياً لما بعد أوسلو، بعد تأريخه للجوء وحلم العودة(جبل نبو) والانتفاضة(الحواف). والثلاثة يرتبطن بالشخصية الأساسية- المحورية، اليوسفي، عارف أبو الغنايم، ويكن بنفس الوقت ضحاياه.الأولى أمه، والثانية حبيبته المهجورة، والثالثة حبيبته المخدوعة بشخصيته المنتحلة.

أولاً: السياق الداخلي للرواية

أبو الغنايم[90] يلتحق بالثورة وهو يدرس في بيروت. ويكون قبل رحيله قد أحب هاجر ووضع طفلاً في أحشائها خارج الزواج الرسمي، ويدير ظهره لهاجر وابنه. يدعي الاحتلال أنه قتله فتقر الأم زكية أن الجثة لابنها، رغم معرفتها أنها ليست كذلك. والجافنة، قريته، تعيش على أمجاد استشهاد ابنها! ويعيش هو أيضاً على كذبة استشهاده. يبني أمجاده في الثورة، يتحول لقائد نهَاب، ولحياة رغيدة، استثمارات وملابس وفنادق وجاهة ووجاهة وزوجة أجنبية، وسرقة أموال الشهداء!! ينتحل شخصية كاظم ويبدأ بمراسلة مي[91]، الشخصية

---

[90]- مرة أخرى نلحظ الدلالة الصارخة للأسماء لدى الغزاوي كما لحظناها في (جبل نبو) فأبو الغنايم تحيل مباشرة على الكسب الشخصي- الطبقي. واليوسفي يحيل لقصة يوسف الذي اعتقده أبوه ميتاً في الأسطورة التوراتية وكان حياً مع فارق الدور بين اليوسفين، الأسطوري والروائي.

[91]- مي رسولي، أيضاً اسم ذو دلالة، فمي يحيل على مريم ورسولي ذات طابع ملائكي، مقدس، وبلوري.

الملائكية، التي تحبه، ككاظم، ومن خلال حديثه عن أبو الغنايم الذي تحتفظ له مي بذكرى الثوري الشهيد! تلد هاجر ابنه وتدّعي زكية، بترتيب مع الراعي عبد العاطي، أن الولد نتاج حمل الشاة وتصدق القرية المعجزة. يعود للقرية بعد أوسلو فتنكره قريته وأمه.

ثانياً: التحول الذي سحق المرأة

وتحولات اليوسفي أبو الغنايم ظاهرة وتماثل تحولات القيادة في الخارج لجهاز بيروقراطي مطعون بنزاهته. يسترجع حواره مع خالد النابلسي الذي انطلق للعملية الفدائية بناءً على أوامره فعاد شهيداً. يندلع بداخل اليوسفي هذا الحوار الداخلي" أردت أن أقول له لا تذهب.- أي للعملية- وقبل إنني آثرت الصمت. نظراته كانت تعاتبني، تقول لي: لماذا لا تذهب أنت؟ أم تراك استرحت لتعبئة الآخرين يا يوسفي يا بن صفد، أنت الذي تجمع المال الآن، المال الذي كنت تقول إنه مال الشهداء والثورة" (218). ولأنه كان يجمع المال، فوق أنه يرسل المقاتلين للقتال وهو قاعدٌ، فقد كون مكانة جديدة " من السهل أن تضع أمامك ورقة وتكتب عليها أرقاماً توضح النجاح والفشل. **لك زوجة مخلصة وابنة ذكية وبيت مستقر، وشقة، وثلث مطعم شرقي، إضافة لوظيفة لا تعني الكثير من الانشغال.** لماذا تريد كل ذلك؟ نحن لا نفكر بهذه الطريقة. **كنت دائماً أقول: احتاج إلى ما يكفي من المال، والآن أحتاج إلى ما يجعلني مطمئناً" (238)** والوظيفة البيروقراطية التي لا تحتاج لكثير من الانشغال لها متطلباتها الوجاهية الأرستقراطية " ربطة العنق والبدلة الأنيقة والقميص الأبيض لفترة الصباح، والسبورت الذي يحسب الألوان جيداً في المساء" (226) فمتطلبات وظيفة الإعلام في إحدى بلدان أوروبا لشرقية تتطلب ذلك الذوق في الملابس!

وأبو الغنايم يعيش تناقضات الصفقة التاريخية أوسلو" على أن الممكن يبقى صاعقاً بدقائه، والخيار ليس بي وطن ووطن، بل بين جزء من الحلم أو العناد التاريخي ضمن ظروف لا يضمنها أحد" (212) فاختار أن لا يعاند الظرف وأن يتمسك بجزءٍ من حلم. ولكن هذا الجزء من الحلم يتحول لكابوس. فأبو الروس صديقه الجريح عاد للوطن وغدا مديراً عاماً بعد أن كان ميكانيكياً، والناس تتندر عليه كيف أصبح مديراً عاماً " آخر الزمن" يعجز عن الذهاب من غزة لبلده جنين. وابنة أبو الروس تطرح تساؤلاتها عن الوطن الذي عاد إليه والدها "تحت ذلك السقف" (232). ويكتب أبو الروس من واقع العودة- التجربة " عن معنى الوطن..إذ ما هو المبرر الأخلاقي للتنازل عن حقنا التاريخي في فلسطين الكاملة؟ ليس بالإمكان إخفاء حيفا وصفد عن خارطة الحلم والحكاية التي سردناها على أطفالنا منذ النكبة. كانت تلك صلب حكايتنا التي تناقض حكاية الآخر"(232).

والتناقض سيواجهه العارف آجلا أم عاجلاً، فلا أحد يهرب من قدره- تناقضاته.

وتحولاته سحقت نساءه! فكانت كل علاقاته مع شخصيات الرواية متناقضة، كاذبة، منافقة. أمه حملت به حملاً أسطورياً(239) بعد أن كانت ولثلاث سنوات عاقر " يا شيخي- قالت أم زكية لشيخ المقام- ابنتي هذه، بعد ثلاث سنوات من الزواج لم تحمل..علك قادر على شفائها" (258) فأخذ الشيخ يد البنت" يدي بين يدي الرجل. يدي فوق وجهه ورأسه. يدي بين شفتيه. يقترب مني متخطياً طاولته. أنفاسه تحرق وجهي. يلمسني

في كل مكان من جسدي. الجدار ورائي جدار، وامرأته ما زالت تتابع شخيرها. فتح يدي وقال: ضعي هذا بين فخذيك" (259) فزكية ولدت اليوسفي ولادة أسطورية ليحمل عبئاً أسطورياً، التحرير، ولكنه عاد بجزءٍ منقوص من الحلم. عاش أمجاد الشهادة كاذباً وكانت أمه تعرف ذلك " اليوسفي لم يمت. هل يظن أحد أنني أتوه عن يديه، اليوسفي حي وهو يعلم ذلك، وماذا يهمني لو صدق كل العالم أنه مات؟" (261) هكذا سمعتها مي تقول لوحدها!. ولكن الأم الذي انتظرت وانتظرت أشاحت بوجهها عنه عندما عاد، وما قالت إلا كلمتها المعبرة" أين ذهبت الجافنة يا هاجر" (264) كأنها تقول لأبو الغنايم: أين حلم فلسطين- الجافنة. فالجافنة لا تحتمل أنصاف الحلول، على الأقل هذا ما يُفهم من سلوك أهل القرية عندما قتلوا كلبتهم المدللة التي منحت نفسها رخيصة لكلاب سائبة تركبها. لذلك ما أرادت منه أن يمسك بيدها " قامت بتؤدة. مددت يدي كي أسندها لكنها فضلت الاستناد إلى عكازتها" (264) في إشارة إلى أن اليوسفي العائد لم يعد، بعودته وبعد كل تحولاته، مؤهلاً على أن يمسك بيد أحد يعينه على الوقوف من جديد!

أما هاجر فسحقها كان سلوكاً فظاً ودون رتوش. وسحقها ليس بالجديد، فرجال الجافنة " أرادوا تعليم الصبيان فقط. قليلون منهم أرسلوا بناتهم إلى المدرسة طواعية" (194). أما أبو الغنايم فلم يسأل مجرد سؤال عن هاجر وما جرى معها ومع جنينها الذي وضعه في أحشائها! بل عاش حياته النسائية على تنويعاتها، يسحق كل امرأة في طريقه.

كتب لمي الرسولي منتحلاً اسم حمزة الكاظم، مدعياً أنه صديق اليوسفي. مي الملائكية تعلقت به وأحبته " كل ما في خطك وروحك جذبني إليك يا حمزة الكاظم. هل كنت قريباً من اليوسفي الذي يتمنا بالموت، فكيف لا أكتب إليك وأنت تعيش تحت جلده؟" (238) فكأنها تحب اليوسفي في شخصية الكاظم. وهي تتحول من خلال رسائلها إليه إلى صوت الجافنة الذي يربطه بوطن يعود إليه لاحقاً ولا يجد فيه شيءٍ له. ومي الملائكية تلاحقه باهتمامها وإسنادها الثوري دون أن تدري أي كذبة يتخفى ورائها" هل تموتون في تل الزعتر أم ماذا؟ عليكم أن تقولوا لنا لماذا أنتم مطاردون كالقطط البرية.....انهضوا من الموت لأننا بحاجة إليكم. ها نحن من جديد (نبوس الأرض تحت نعالكم ونقول نفديكم)" (239) وأبو الغنايم يأخذ على مي أن " الاحتلال قد سرقها من نفسها" ويتساءل " ألم يكن بالإمكان أن تكتب شيئاً عن قلقها الإنساني إزاء غموض الوجود المطبق، أو عن سهوة الحياة بتفاصيلها الصغيرة، عن رجل أحبته، عن أغنية تسابقت إلى قلبها الجميل، عن غيم شتوي وريح وأوجاع مخفية؟" وهو لا يفهم " كيف تستطيع العيش وراء حاجز وتطالب بالحرية، وتصرخ بأبجديات الحياة طيلة العمر؟" (241). وتساؤله يعكس عدم إدراكه، الناتج عن تحولاته. فمي تتمسك بالحلم وهو اكتفى بجزءٍ منه، لذلك كانت مي تطالب بالحرية وهي وراء الحاجز، متماسكة لا تنهار، تبث فيه صيحات الدعوة(انهضوا من الموت) وتهديه أشعار توفيق زياد وأغاني مارسيل خليفة... فالحياة بالنسبة لها حلمها في الوطن ومناضليه. ومع ذلك " لم تنفذ تلك الكلمات إلى عقله الغليظ. والمشاعر النبيلة التي خطها قلم مي رسولي مُسخت في وجدانه الخرب" (ماضية في تأملات، 2001: 73) فهو يقيم صيحاتها المناشدة بالجنون " جنونها

يزداد يوماً بعد يوم، صرخات في بئر عميقة، لاحقت خروجنا من بيروت وحروب القبائل واللجوء إلى تونس والانتفاضة" (241)

وفي تحولاته أيضاً لم يسحق نساء الجافنة بل اللبنانية سحر، ومن خلف ظهر مايا زوجته المخلصة. كأن الغزاوي هنا يشير إلى ما قيل كثيراً عن سلوك المقاومة، السلبي في بعض جوانبه، مع اللبنانيين.

ثالثاً: مكانة المرأة

مرة أخرى يعود الغزاوي لمنح المرأة دوراً أسطورياً. منحها هذا الدور في (جبل نبو) وها هو يمنحها هذا الدور في الخطوات. في الأولى كانت تبحث عمن سيحمل راية العودة، وهنا فهاجر، من حملها من أبي الغنايم، تجدد مشروع الثورة الذي توقف عنه أبو الغنايم الذي ولد أيضاً أسطورياً. إن الغزاوي هنا، كعادته، يمارس عملية انزياح واضحة للدور الإنجابي التقليدي، ليغدو إنجاباً سياسياً، بطابع روائي. فالمرأة تلد الثورة(زكية وأبو الغنايم) وتلد المشاريع المؤجلة (هاجر ومولودها الجديد من أبي الغنايم). والهم الوطني يطغى على دور لنساء إلا من إشارة سريعة للبعد الاجتماعي الاضطهادي في سلوك رجال الجافنة تجاه تعليم الفتيات، حيث يرفض أبو هاجر تعليمها، فيما تصر نوار الراهبة على ذلك. لكأن وطأة العودة المنقوصة والجزء من الحلم لم يترك مجالاً إلا للبعد الوطني، فهكذا مثلاً كانت مي في رسائلها لأبي الغنايم.

ومكانة المرأة هنا تتأثر ببعدين اثنين: فمن جهة تتأثر بثقل المسألة الوطنية التي ابتدأت بالرحيل من صفد والتطلع للثورة، إذ تلد زكية اليوسفي، ومن جهة ثانية بالرجل- الشخصية الأساس الذي تدور النساء في فلكه. وهذا الدوران يحيل على موضوعة أعم: الثورة حسب الرواية ذكورية تماماً - علماً أن هناك شخصية ثانوية، شادية، استشهدت مع حامد النابلسي- فحول الثورة(الرجل أبو الغنايم) تدور المرأة الفلسطينية(زكية وهاجر ومي). هنا يمكن الحديث عن نص غائب في الرواية، تنبغي قراءته.

يمكن هنا الحديث عن التداخل بين السياسي والاجتماعي، فالمرأة في الرواية ضحية لخيارين، خيار سياسي تمثل بخيار أوسلو، الذي يرتبط سياسياً بالتحولات الاجتماعية في جهاز المقاومة باتجاه البيروقراطية(سبق وعالجنا ذلك في القسم الثاني) ويرتبط روائياً بالتحولات على أبي الغنايم من ثوري إلى قائد بيروقراطي يبرر خياره السياسي.

والخيار الاجتماعي الذي تمثل بسلوك أبو الغنايم الذكوري: تجاه حبيبته وولده منها، هاجر، وتجاه من أحبته(مي) وكان مزيفاً، وتجاه والدته ثانياً التي ما كان على قدر ما خططت له عند حملها به، أمل التحرير.

والمرأة دفعت ثمن الخيارين وهي ليست شريكة بالاختيار، كما كان الشعب ليس شريكاً في المفاوضات السرية التي أدت لأوسلو. سياسياً دفعت الثمن بانهيار الحلم بالتحرير، وروائياً بخيانة أبو الغنايم للشخصيات النسائية الثلاث(زكية وهاجر ومي).

إن الرواية والحال هذه رواية الانهيارات الاجتماعية والسياسية لعالم المرأة وآمالها، الوطنية والاجتماعية على حدٍ سواء. والمرأة في الرواية إنما تعكس تلك الانهيارات فحسب. ولكن ينبغي ملاحظة قضية هامة:باستثناء

شخصية هاجر الذي يبدو تماسكها غير ظاهر، فالشخصيتين الأخريين لا يعوزهما التماسك برفض الخيارين معاً، الاجتماعي والسياسي.

رابعاً: **الخلاصة**

تطورات علاقة اليوسفي مع زوجته وحبيبتيه تعكس مآل المرأة ما بعد أوسلو. فالمناضل(قيادة م.ت.ف) أدار ظهره لحبيبته، وأدعى الشهادة وخدع حبيبته الثانية، متمسكاً بجزءٍ مشوه من حلم، ترفضه المرأة أمه. القرية تغيرت بعد أوسلو عما قبلها. وعندما عاد اليوسفي(عودة القيادة من الخارج) أنكرته أمه لأنه باع حلمه بأجزاء مشوهة منه. المرأة هنا متمسكة بالحلم(زكية) وحاضَ على النضال(مي) فيما الرجل(اليوسفي) متبقرط، واص وتاجر، وبنفس الوقت مناضل سابق لوثته بيروقراطية الأجهزة. إن الرواية وثيقة هامة للتحولات على قيادة م.ت.ف وأثر هذه التحولات على خيارها السياسي، أوسلو، وبنفس الوقت مؤشر على أن هذا الخيار كان على حساب إنسانية ومشاعر وأحلام النساء، من الفئات الشعبية.

مؤشرات على التحولات

1- **الوطني والاجتماعي.** الوطني هنا متكسر، باستثناء مي التي لا زالت تحض على المقاومة غير مدركة للتحولات على اليوسفي(قيادة المنظمة). أما الاجتماعي فيبدو وقد طُعن من الرجل في موقف اليوسفي تجاه حبيبته الأولى والثانية المخدوعة. الهم الاجتماعي لدى مي ينزاح، بتضحوية، لصالح التمسك بالهم الوطني.
2- **العام والخاص.** ليس من عام نضالي، بل العام يبدو من موقفين: زكية التي ترفض اليوسفي متمسكة بقيم الثورة، ومي التي تحض على النضال. فالعام غدا ذا تمثيل آخر غير تمثيل النضال**.**
3- **موقف الآخر**. التنظيم والرجل لا يزالان يتخذان ذات الموقف. العائلة هنا غائبة بل تتجسد من موقف زكية من أبنها، وهو موقف سياسي لا أمومي على أية حال.
4- **الدور النضالي**. يتراجع تماماً ليظل فقط تمنيات من مي لليوسفي أن يبقى قابضاً على الجمر، وهي لا تدري أنه يقبض منذ سنين كبيروقراطي على نقود المقاومة.

الفصل الثالث

المرأة بعد أوسلو: الدين حيث يغيب اليقين

في رواية مايا أبو الحيات الأولى(والوحيدة) (حبات السكر 2003) عالم من التحولات على مكانة المرأة ليس بعد أوسلو فحسب، بل وفي ظل الانتفاضة الثانية 2000. إنها بالتالي تصلح لفحص مدى التحولات التي ترصدها روائية شابة تكتب للمرة الأولى عن عالم المرأة الذي فيه بعض منها.[92] كما يمكننا، بالتالي، الوقوف على التحولات بعد 10 سنوات على الواقع الجديد، أوسلو. فهذا الواقع حفر ولا زال بعد هذه السنوات، متغيرات عديدة على الأدوار والسلوك والتوجهات والخيارات...

أولاً: السياق الداخلي للرواية

أميمة واحدة من خمس بنات هن عائلة مفككة بكل المقاييس، أبوها "يتزوج" أمها زواجاً خادعاً، بهدف امتلاكها جنسياً، ويطلقها بعد ذلك. والأخوات كل لها همها: واحدة معاقة، وأخرى يريد زوجها تطليقها بعد قرار أمها الزواج من جديد بعد الطلاق. تحب أميمة عامر الفتحاوي الذي يستشهد، وبعده تحب عبد الله المتدين والنشيط سياسياً، فلا يجرؤ على معاندة تدينه بالإقبال على الحب، بل يطعن من يُحب في شرفها وكرامتها لأنها رفضت خياره الديني ولم تُعِدْ صياغة حياتها وفق توجهاته، علماً أنهما تراسلا وهو في المعتقل وزارته هناك أيضاً.

---

[92]- في مقابلة مع الروائية لأهداف الدراسة في 2005/2/25 أفادت أن في حياتها بعض مما كتبت: الأجواء الجامعية وصراعاتها السياسية، وبعضاً من شخصية أميمة، الشخصية الرئيسية في الرواية.

تطحن الأسئلة الفلسفية رأس أميمة، فتعاني من اكتئآب يتطلب زيارتها للطبيب. محوران أساسيان في اكتئآبها: الأول علاقتها مع عبد الله، والثاني استشهاد صديقتها سحر. وسحر لا ينقصها الانسجام والوضوح: مبادرة ونشطة اجتماعياً وسياسياً، تشارك في التظاهرات عند الحاجز فتسقط عنه، تحب وتعيش أنوثتها بكل حيوية. تسوقها أسئلتها واكتئآبها وفشل علاقاتها، لأسباب عديدة، إلى التدين ولبس الحجاب في تطور تُختتم به الرواية.

ثانياً: **عالم من النساء والهموم الوطنية والاجتماعية**

يمكن اعتبار الرواية، رواية النساء عن النساء، سواء من حيث البنية الروائية او الهموم الاجتماعية والمضمون الذي حملته. فمن حيث **البنية الروائية** فنحن أما تكتلين نسويين- إن جاز التعبير- تدور حوليهما الأحداث. **الأول** العائلة التي ما كانت بمحض الصدفة إنها تتكون من أب وأم وخمس فتيات، ولكل فتاة قصتها، وإن طغت شخصيات دلال وأميمة وسامية. ومن خلال هذا الحشد النسوي تطرح الرواية قضيتين اجتماعيتين أساسيتين الأولى، هذا الانهيار التام في العائلة منذ تشكلها وحتى تطليق الزوج لزوجته، والثانية التسلطية الذكورية القمعية التي تنيخ تحتها المرأة، فالزوجة كانت ضحية خديعة وقحة من الرجل لجذبها لفراشه، إذ تزوجها زواجاً مزيفاً كانت نتيجته الأولى سامية المعاقة. تصف الرواية العلاقة الزوجية بالتالي" جسدها الذي استعملته الحياة وعاءً نضحنا نحن الخمس بنات دوم متعة..ليلة قاتمة تسلم فيها جسدها النحيل لجسده الضخم، ليفرغ به حقده الغامض على كل شيء، فنخرج نحن أدوات إضافية للانتهاك والغطرسة، وصلت إلى ما فوق الإشباع فاكتفت وهربت.."(15) لذلك عندما زعق بها " أنت طالق طالق" ما كان منها إلا أن زغردت وأخذت" تضحك بهستيريا" (15)

والقمع عنوان ثابت في السلوك الأبوي مع بناته فأميمة ما إن تقترب من المنزل حتى" يتسلل الخوف الذي ينتهي ولا يبدأ" (13) وذلك طبيعياً طالما كان عندما يستقبل ابنته " تتطاير منه الكلمات البذيئة والبصاق...واطمات متتالية أتلقاها على وجهي ولا أعرف سبباً لذلك" (14)

صورة مصاغة بنموذجية للأب الرجعي القمعي الذي يعكس بتصرفاته تجاه زوجته وبناته كل سمات الذكورية التسلطية والرجعية.

أما التكتل النسوي **الثاني** فهو يدور حول أميمة وهن تحديداً صديقتيها، سحر وورد. وعبر الأحداث والتطورات تقف الرواية على قضايا المرأة والحب، العلاقة بالرجل، بالدين، بأسئلة الحياة، بالتنظيمات، بالرغبات المحرمة...فلا يلعب الرجل والحال هذا إلا دوراً روائياً وظيفياً: تنطرح قضايا المرأة من خلاله! فهو الحاضر لا لذاته بل لطرح قضية المرأة. وحضوره إما غائب مثل عامر أو مغيب مثل عبد الله، وفي هذا قوة الرواية وضعفها في آن معاً. فقضايا المرأة لا تناقش بمعزل عن قضايا الرجل، فعالم المرأة لا يسبح في الفضاء بل في شبكة العلاقات الاجتماعية التي يسودها علاقات قوة تمنح الرجل التسيد والهيمنة، وبالتالي فحضوره حتمي مثلما هو منطقي. ولكن هذه المحورية النسوية-إن جاز التعبير- حين يكون الرجل محض

وظيفة، تبدو وكأنها، من حيث الخلفية الأيديولوجية[93] الكامنة خلفها، تضع الرجل والمرأة في خندقين متقابلين بإطلاقية، فتعجز عن رؤية التشابك في العلاقة ذاتها. فعبدالله العاجز عن الحب- الحياة، وصاحب الموقف الذكوري المسنود دينياً تجاه المرأة، هو ذاته المناضل الذي يتنازل عن حياته- هو معتقل- مقابل إسهامه في النضال. وسحر نموذج يختلف عن أميمة وعن ورد، ويصعب بالتالي حشرهما في قالب نسوي واحد، كتصنيف أيديولوجي/ اجتماعي.

أما من حيث الهموم الاجتماعية والوطنية لتي حملتها الرواية، فهي بالأساس هموم المرأة. فالمرأة(أميمة) ضحية حبها الجميل لعبد الله الذي، لعقيدته الدينية، ما تمكن أن يحيا قصته معها، بل عاش الصراع الداخلي بين الدين والحياة، بين متطلبات الالتزام العقيدي تجاه المرأة، كشخصية تابعة له، وبين رغبتها في أن تكون كما تشاء. وهي أيضا، وقبل ذلك، ضحية لاستشهاد عامر الذي "ضاع منها" باستشهاده. والأم ضحية السلوك الرجعي للأب المتسلط، ودلال ضحية زوجها ضيق الأفق، وسحر ضحية التزامها الوطني: فكل شخصيات الرواية ضحايا بهذا القدر أو ذاك.

ثالثاً: تكوين الشخصية النسوية والبنية الاجتماعية

التنوع الذي كانت عليه الشخصيات النسوية، رغم أنها وضعت بقالب واحد أمام الرجل كما تقدم، هو صدىً بمعنىً ما لتنوع مكونات البنية الاجتماعية، اجتماعياً وسياسياً.

فالشخصيات على العموم طلابية(أميمة وسحر وورد وعامر وعبد الله..). ومع أن الحركة الطلابية تراجع دورها كحركة في السنوات ما بعد أوسلو، إلا أن هذه الفئة الاجتماعية لا زالت تفرخ النشطاء السياسيين والمقاومين، فمنها أغلب الاستشهاديين[94] وفي أوساطها لا زالت الصراعات والنزاعات السياسية بين القوى المختلفة، ظاهرة.

وما يدخل بثقل في الرواية، أكثر من أي عمل روائي عالجته الدراسة حتى الآن هو ظاهرة التيار السياسي الديني المقاوم وموقفه من المرأة. عبد الله، ونتحسس في الرواية حمساويته، تمثيل لتيار واسع في الجامعة، خاصة النجاح حيث يدرس، يعتقل في الاجتياح ويتصارع داخله حبه لأميمة مع عقيدته. أما تطورات موقف عبد الله على أميمة فهي الأهم بالنسبة للدراسة.

كانت أميمة تتمسك برغبتين متناقضتين، الأولى رغبتها بعبد الله كرجل تحبه، والثانية رغبتها باستقلالية شخصيتها أمام محاولات عبد الله صياغتها وفق فهمه للنص الديني فيما يتعلق بالمرأة. هذا كان المحور الأساس في تطور شخصية أميمة. قمع في البيت وحجز على شخيصتها ممن تحب، بل وطعن عبد الله

---

[93]- نفت أبو الحيات في المقابلة معها أن تكون صاحبة موقف أيديولوجي أو سياسي محدد. إن الدراسة تعتبر أن وجود الأيديولوجيا ليس مرهوناً باعتراف صاحبها بها أو تحديده الواعي لمكوناتها، بل هو وجود موضوعي حتى لو لم يتمكن الإنسان من تحديده. وفي العمل الروائي يمكن كشف هذا الموقف بغض النظر عن اعتراف الكاتب به أم لا، ففي النهاية قراءة النص تفتح آفاقاً لا يشترط أن يكون صاحب النص قد خطط لها روائياً.

[94]- كثرت في السنوات الأخيرة التحليلات ذات الطابع الاستخباري، الإسرائيلية والأمريكية التي تكشف الانتماء البرجوازي المتوسط للاستشهاد بين، وتحديداً كونه غالبيتهم ينحدرون من فئات المثقفين والطلاب، حتى على المستوى العالمي لا الفلسطيني وحسب.

بأخلاقياتها وكرامتها الإنسانية لمجرد رغبتها في أن تكون كما تشاء! واستشهاد صديقها عامر..كل ذلك دفع بها لأزمة نفسية تتطلب مراجعة الطبيب. فأين يمكن أن تجد عزاءً إلا في الدين بعد كل ذلك؟ فاتجهت للإيمان والتحجب ولكن دون أن تعيد صياغة حياتها. قد يبدو التناقض للوهلة الأولى بين بين ما تسببه عبد الله، ممثل الدين، لها، وبين توجهها للدين، فقد رأت، من وجهة نظر سطحية فحسب، ما سببه الدين من جرح في سلوك عبد الله. ولكن تحليل تطور شخصيتها يحل هذا التناقض وبالعكس يؤشر على قوة الحبكة في الرواية.

إن الحل الأمثل، ولكن السطحي، لأزمة أميمة هو برفضها للدين كردة فعل على سلوك عبد الله، ولكن أميمة لم تتوجه للدين لمحض موقف عبد الله، بل لتداعي الأسئلة غير المجابة في حياتها، الناتجة من تجارب مأساوية. قرأتْ الفلسفة فزادتها " تيهاً لم يتوقف"(66) توجهتْ للقرآن فأوصلتها قراءته إلى " الأسئلة المعلقة في فراغ الذهن التي لم تجد إجابات تضع لها حداً وكفى... واستسلمت كما استسلم آخرون قبلي إلى منطق الأسئلة اللامجابة..." (81) وأميمة إذ تدرك أن تدينها استسلاماً، فلأنها تدرك أن الهرب من أسئلة الفلسفة التي زادتها تيهاً، لن يقدم إجابات لأسئلتها، بل أسئلة مفتوحة جديدة لا إجابات عليها، فالدين هو (منطق الأسئلة اللامجابة)، وبين الاستسلام إلى الأسئلة اللامجابة هذه، ومصارعة الفكر للوصول لإجابات تطرح أسئلة جديدة، وهكذا دواليك، فرق كبير، هو الفرق بين المعرفة والإيمان. فالمعرفة تفتتح بأسئلة غير مجابة أصلاً وما أن تجيب عنها الحياة ومنطق الفكر حتى تنطرح أسئلة جديدة...عملية شاقة هي محور المعرفة الإنسانية. وبالمقابل فالإيمان استسلام للامجابة دون نبش الفكر عن الإجابات، فهو إذن الاستسلام الذي وجدت فيه أميمة ضالتها.

وفي حوار دال بينها وبين ورد نلحظ تمرد الأسئلة لدى الأولى والذي لم تصله الثانية. تقول لها ورد " كيف يمكن أن نعبد إلهاً يسبب لنا التعاسة والألم. وجودي في هذه الحياة لم يكن باختياري، لماذا، أجبر، أيضاً، على العبودية" (82) فكانت ورد تجيب بذلك عن تساؤل أميمة بينها وبين نفسها(لماذا نحيا) (65) بإجابة غير تلك التي كان عبد الله يقدمها جاهزة " وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون"(65).

ومع ذلك فالدين يقدم الكثير لمن يلجأ له. وقبل كل شيء يقدم العزاء والراحة النفسية، طالما يعتبر المؤمن أجوبة الدين القطعية راحة، وهو يفعل. " حاولت أن أجد نقطة الانسجام بين الروح والمجتمع والصدق مع الذات..فوصلت إلى داخل منسجم أحببته وأمن لي راحة ..." (81). وبعد، فالدين، بطبعته السياسية المباشرة، الجهادية يقدم أيضاً الكثير: العداء الجذري للعدو الاستعماري الذي ينغص الحياة على الشعوب كما على الأفراد. وأميمة، غير المسيسة على العموم، تلحظ ذلك " الغرب الذي ظلمك- تعني الإنسان كإنسان- وأهانك وحولك إلى مستهلك مفرغ من القدرة على تحويل أفكارك إلى تصنيع فعال، الغرب الذي احتلك وانتدبك وأمركك وامتصك حتى الجذور...."(81) وعليه تجد فيه الدين، جواباً على أسئلة النضال اليومي، أين يتوجه؟ والنقطة المحورية الأخرى هنا، كسبب في توجه أميمة للتدين، هو عجز البدائل أو انهيارها إن جاز التعبير. " ولأن كل من حولك هم مثلك، منقوصون وضعيفون وحائرون..) وهؤلاء تحديداً هم التيارات السياسية

والفكرية الأخرى، وبالأخص التيارين الفتحاوي واليساري. الأول تمخض مشروعه الوطني للتحرير عن أوسلو، ففجرته الانتفاضة، والثاني حائر أمام أسئلته وضعيف.

وهنا تضع الرسالة اليد على العلاقة بين تحولات أميمة والواقع الاجتماعي/ السياسي. إن أوسلو أحدث تحولات هامة في الحقل السياسي. من جهة تحولت فتح لحزب سلطة، وتراجع، إن لم نقل انتهى، إلى المصاف الثاني برنامج التحرير الذي حملت لوائه، ومن جهة ثانية دخل اليسار نتيجة لأوسلو، ولانهيار حلمه الاشتراكي، في أزمته الخانقة، فكان التيار الصاعد في ظل الانهيارين هو التيار الإسلامي الذي، نجح لكفاحيته وبنيته الأيديولوجية الدينية، في أن يملأ فراغاً واضحاً. وهذه الظاهرة إقليمية بل وتكاد تكون عالمية.[95] فعند غياب اليقين بالمشاريع التاريخية العقلانية تغدو الساحة جاهزة ليملأها مشروعاً غيبياً يتخذ من النص الديني قاعدته الأيديولوجية، ويقدم إجابات سياسية للطامحين للتحرر، فغياب اليقين، والحال هذا، أسهل الطرق للتدين، على مستوى الأيدولوجيا، مثلما غياب البديل السياسي العقلاني، أسهل الطرق للبديل السياسي الإسلامي على مستوى الحركة السياسية.[96]

إن أبا الحيات هنا كانت تتمتع بالصدق الفني الذي لا يسير الشخصيات وفق رغبات المؤلف، بل وفق منطق تطور الشخصية الروائية ذاتها وبما يجعل هذا التسيير يلتقي مع البنية الاجتماعية والسياسية الأعم.

رابعاً: هناك بدائل أخرى

ومع أن أميمة كانت الشخصية الأساس في الرواية، وخيارها الديني هو الأبرز، لكن الرواية تقدم خيارات أخرى للمرأة عبر شخصيات أخرى، واحدة منها أساسية والثانية ثانوية.

أما الأساسية فهي سحر. تقف على أرضية واضحة وصلبة، تدرس وتعمل لتساعد أسرتها الفقيرة، تحب حباً رومانسياً، غامضاً، وحلاوته في غموضه. مبادرة اجتماعياً(تنظم، متطوعة، صفوف المراجعين في المشفى)، ومكافحة سياسية، تدفع حياتها، شهيدة ثمناً لنضالها. وأرضيتها أيضاً صلبة وتشيع الانسجام في حياتها، فلا أسئلة تطحن رأسها، بل تكتفي، عند انطراح الاسئلة، بأجوبة بسيطة محددة لأسئلة مصيرية: هناك الاحتلال إذن وجب النضال، تستشعر أنوثتها فتحب، الفقر الأسري تكافحه بالعمل، تبادر وتتطوع لا تذمر...إنها باختصار شخصية منسجمة تعرف ما تريد وتقدم عليه دون تردد. لذلك لم تتردد أن تقوم بدورها في النضال رغم الموقف الرجعي المعادي لمشاركتها في النضال. يروي صديقها عنها " كانت هي في المقدمة، **الفتاة الوحيدة** التي وصلت معنا إلى الحاجز...بقيت على مسافتنا من الحذر، **هي أمامي وأنا خلفها** وكأننا غرباء. نتواطأ بالنظرة وبالموقف والتوتر الذي يسبق حضورها..سمعت أحد الشباب يقول: ماذا تفعل هذه الفتاة هنا؟ (**تروح تنضب مقرّعة وواقفة)** كنت أود أن ألقي بقبضة يدي على خده ألطمه حتى أدميه. لكن الموقف كان أكبر من ذلك. وعندما بدأ الجنود بإطلاق النار....بحثت عنها...لكنها

---

[95]- هناك تحليلات كثيرة عن انتعاش لا الأصولية الدينية الإسلامية فحسب، بل والمسيحية أيضاً، وبسبب جذر مشترك يدعوه سمير أمين(انهيار المشاريع الكبرى في التاريخ).

[96]- أن نضع البديل السياسي الإسلامي في مواجهة مع البديل السياسي العقلاني، يؤشر لقناعة الدراسة بلا عقلانية الهدف النهائي للبديل الإسلامي، الدولة الدينية، باعتبار لا عقلانيتها، السياسية.

اختفت.....**ضممتها..نعم ضممتها أمام الجميع** وسط الشارع الغارق بالدماء..وعلى مرأى من الجنود وبنادقهم، ضممتها طويلاً... كانت كفراشة أسدلت جفنيها على روحها ونامت...**وردية، ملونة ونافذة**" (78)

ووحدتها كامرأة في التظاهرة على الحاجز منحتها تميز، ففي الشهور الأولى للانتفاضة الثانية(2000) كان لا زال متسعاً لفعل شعبي نسوي عند الحاجز، هو ما تبقى من مؤسسات ومنظمات نسوية انهارت، قبل أم ينسدل الستار نهائياً على فعل شعبي نسوي في الشارع ميز الانتفاضة الأول(1987). دور سحر بقايا دور، تذكير بأن في مرحلة ما لم يجرؤ الموقف الرجعي على البوح (تروح تنضب مفرعة وواقفة) كأنها، بوجودها على الحاجز مقاومة، تمارس فعل الزنى العلني لا النضال. لذلك حق لصديقها أن يريد ضرب (هذا الموقف) على وجهه، والأهم أنه أعلن، هذا الرجل، احتضانه العلني لصديقته الشهيدة، رغم أنف العدوين، الموقف الرجعي والجنود!

إننا أمام جزئية في المشهد ذات دلالة أكبر من جمله وكلماته: فالعداء لسحر مزدوج، من الثقافة الرجعية المعادية للمرأة ومن الاحتلال، وهذا مع أن الدراسة وقفت علية في كافة المراحل التاريخية، إلا أن المتغير الآن الذي ينطرح بقوة أننا أمام واقع ثلاثي يواجه المرأة: حلمها التحرري الذي وأده الواقع الجديد، الاحتلال القائم بكل ثقله، والموقف الرجعي من المرأة الذي غدا موقف حركة سياسية دينية. وبين الثلاثي هذا تتحرك شخصيتي سحر ومن قبلها أميمة.

لكن نموذج سحر يؤكد أن البدائل النسوية لموقف أميمة باستسلامها للدين، موجودة، وإن ليست سائدة. فبالنهاية لم تتحول كل النساء لمستسلمات شأن أميمة، فهناك من يتمسكن بدور كان، من أجل دور سيكون، وهذا بالضبط ما تقوله حياة سحر القصيرة.

أما الشخصية الثانوية، ورد، فهي تظهر أساساً إذ ترافق أميمة للطبيب المعالج. إنها الصوت الآخر- البديل لخيار أميمة. ولكنه صوت يتميز بموقفه الجذري من الإيمان والدين، وما يميز هذا الصوت أنه يرد على فلسفة أميمة التي قادتها للتدين، بفلسفة بديلة تحضها على الإلحاد (وجودي في هذه الحياة لم يكن باختياري، لماذا أجبر، أيضاً على العبودية). مع الفارق الجوهري الإضافي: إن فلسفة أميمة تفتقد الرغبة للتمرد، نتيجة أسئلة صاحبتها اللامجابة وأزمتها الاجتماعية والعاطفية، أما فلسفة ورد فهي متمردة، ضاجة وغاضبة.

خامساً: الحوار ودلالاته على المكانة الاجتماعية

للحوار في أية رواية دلالات على مكانة الشخصية لا في الرواية فحسب بل وفي الحياة. لقد لاحظت الدراسة مثلاً الحجم الكبير من الحوار الداخلي(المونولوج) الذي يطبع رواية (الميراث) وعزته الرواية إلى أن المرأة التي يتراجع صوتها اجتماعياً وسياسياً، تعزز هذا الصوت وحضوره روائياً، وكأنها تقوم، عبر عملية صياغية واعية للمؤلف/ المؤلفة، بتأكيد حضور نصي/ روائي أمام غياب اجتماعي/ سياسي.

ولكن لدى أبو الحياة تبدو هذه التقنية وقد اتخذت أبعاداً أخرى، لتعكس دلالات اجتماعية وسياسيةً. الحوار بين الشخصيات النسوية مع بعضها البعض يسير جنباً لجنب مع الحوار داخل الشخصية نفسها، مع، أخيراً، لرواية أميمة للحدث. والتحولات التي أصابت أميمة كانت كفيلة بتصعيد المونولوج الداخلي لديها وهكذا كان،

كما أن ما أسمته الدراسة بالتكتل النسوي الثاني (الصديقات الثلاث)، وباعتباره أساسياً اقتضى أن يحتل الشكل الأول للحوار مكانته إلى جانب الشكل الثاني. يبدو هذا طبيعياً: تحولات تمر والنساء الصديقات يواجهنها فيتعزز الحوار بينهن، ولكن، بذات الوقت فحجم التحولات كان لابد أن يقابله " حجم" حوار داخلي يتناسب وهذا الحجم: أميمة تحاور نفسها حول فلسفتها التي أوصلتها للدين، وتحاور نفسها وهي تروي قصة حب سمر، وأخيراً تحاور نفسها/ علاقتها مع عبد الله وقبله عامر. ومع الحوارين تتأسس كل رواية الحدث على صوت الراوية أميمة.

هذا الصوت الثلاثي، إن جاز التعبير، له دلالاته الاجتماعية والسياسية. ففي مرحلة الانتفاضة الثانية، بعد أوسلو، تعزز تراجع دور المرأة السياسي (الوطني في مواجهة الاحتلال) كحركة، وإن ظل كنساء أفراد، والاجتماعي، وتحول أكثر لدور اجتماعي، عبر مؤسسات جديدة لم تتمكن بعد من العمل بما يدعو لاعتبارها حركة نسوية. وأكثر من ذلك كان لنمو التيار الديني السياسي بموقفه المعادي لدور سياسي للمرأة، وما عناه هذا التنامي من تعزز الموقف الأيديولوجي الديني من المرأة، وشيوع ظاهرة الحجاب...كان لكل ذلك إسقاطاته على النص، من وجهة نظر تقنية الحوار. فأمام انهيار الدور السياسي، وشيوع العداء للمرأة...لا يظل للنساء إلا التفوقع على الذات، بمعنى الجنس، وإعلاء صوتهن النسوي روائياً، كتعويض عن خبو هذا الصوت سياسياً واجتماعياً[97] . وبهذا المعنى يمكن اعتبار الرواية، صوت النساء المغيبات اجتماعياً وسياسياً، وقد حضرن بقوة روائياً.

سادساً: الخلاصة

العودة للنضال تبرز من خلال استشهاد عادل الفتحاوي واعتقال عبد الله المتدين وأميمية تضيع بين الحبين. بروز التيار الإسلامي وموقفه المعادي للمرأة بارزة. العائلة مفككة بعد أوسلو كما هي عائلة أميمة. مكانة المرأة في تراجع، فحتى الشهيدة سحر يُطعن بنضالها اجتماعياً.

مؤشرات التحولات

1. **الوطني والاجتماعي:** تشابك عالٍ كما في رواية الميراث. فالعداء للمرأة قوي من المجتمع والتيار الديني علماً أنها تشارك في النضال. العدائية تسمع بقوة أكثر من الانتفاضة الأولى.
2. **العام والخاص.** العام موجود بقوة في النضال والحياة الجامعية والحب والعمل، ولكنه دائماً موقعاً للطعن، أي أنه مدخل للهجوم على المرأة كما في حالتي أميمة وسحر.
3. **موقف الآخر.** الآخر بكل تمثيلاته معادٍ للمرأة فالعائلة ظالمة، والتيار الديني معادٍ، والرجل يسعى لإعادة المرأة للقمقم، فيما التنظيم يغيب دوره بعض الشيء.

---

[97]- من الواضح أن الدراسة عندما تؤكد على(خبو الصوت النسوي سياسياً واجتماعياً) فهي تعني تحديداً ذلك الصوت الذي تميز في المرحلة السابقة(الانتفاضة) كصوت مناضل ضد الاحتلال سياسياً، ومؤطر في حركة شعبية اجتماعياً، وتميزه بالتالي عن الصوت الآخر الموجود حالياً، على أنقاض الصوت الأول، ونعني صوت المرأة المؤطر في المنظمات غير الحكومية، لا في الحركة الشعبية، والمناهض للاحتلال لا المقاوم، سياسياً.

4. **الدور النضالي.** يتأكد من خلال سحر ونضالها واستشهادها، ومع ذلك فدورها مرفوض من قطاع اجتماعي.

استنتاجات القسم

في الانتقال **للمرحلة الثالثة** يمكن تلمس الفروق الكبيرة في شخصيات النساء وسلوكهن والتي تعكس تغيرات ما بعد أوسلو.

- الاتجاه العام للشخصيات أنها شخصيات تحمل وطأة الهزيمة التي جسدها انهيار الحلم الوطني كنتاج لاتفاق أوسلو. فهاجر لدى الغزاوي في الخطوات طعنتها بيروقراطية المنظمة(اليوسفي)، وتخلت عنها، ومي رسولي جعلتها، تلك البيروقراطية، تعيش كذبة شخصيتها المنتحلة، والأم عاشت كذبة البيروقراطية، كشهيدة. وفي نفس السياق يمكن الحديث عن مريم في الميراث التي تتمزق بين تراث الحلم الناصري بالتحرير، وما نتج عن أوسلو(الطفل المصنوع في هداسا). أما أميمة فاستشهاد حبيبها المناضل، بعد أوسلو، وموقف حبيبها الثاني المتدين والمعادي لشخصيتها كامرأة دفعها للاستسلام للدين. إن النكبة- إن جاز التعبير- تبدو قوية على الشخصيات النسوية في روايات هذه المرحلة، وهي نكبة تطال موقعها الوطني والاجتماعي- كما سيرد لاحقاً- ولاحظت الدراسة تفكك الأسرة بعد أوسلو، كما في أسرة أميمة، واليوسفي، وعائلتي حمدان والشايب في الميراث. فالعائلة في هذه الروايات تطحنها التطورات السياسية والاجتماعية ما بعد أوسلو، وتجد نفسها في خضم مواجهات غير عادلة تلقي بثقلها عليها، كما يبرز بشكلٍ كبير في الميراث(عائلة حمدان تحديداً).

وروايات أخرى عكست هذا الواقع المأساوي للمرأة. فقصة الحب التي تدور بين مريم والراوي في (صورة وأيقونة وعهد قديم) لسحر خليفة، لا يمكن أن تنجح في زمن أوسلو، فهو ليس بزمن الحب الإنساني. فالرأسمالي العائد للاستثمار(وهو ذاته الراوي) أخذ يبحث عن مريم الماضي- الوطن، فلم يوفق. فصورة مريم تغدو ضبابية في زمن أوسلو، ويضنيه البحث عنها، حتى اللجوء للخرافة. ومريم- الاسم الرمزي الهام- تغدو والحال هذا المؤهلة للمسيح المنتظر الذي يريده الجميع، ولكنهم عندما يجدونه، يظهر كغيبي، واهم، يشحن الناس بالخزعبلات، والأهم أن هذا المنتظر أخذ يرقب نضال الناس واستشهادهم دفاعاً عن الأقصى دون أن يقدم شيئاً.

أما المرأة في (ذاكرة لا تخون) لوداد البرغوثي فحالها أسوأ من حال سابقتها لدى خليفة. فالكاتبة إذ تعرض المصير البائس الذي واجهته فاطمة المسحوقة كأنثى لا تجد سوى الماضي، تسترجعه لتقتات منه في مواجهة حاضر بائس، وحينما يكون الماضي ملاذاً فهذا دلالة على عجز الحاضر، والمرأة هنا عاجزة ومقموعة. وحال سهام كحال فاطمة: تتآمر عليها كل مؤسسات الوطن، البلدية، الشرطة، وزارة الصحة، والتربية والتعليم..أي كل مؤسسات أوسلو قاطبة...وحتى أمل بعد أوسلو تكتشف، وبالقانون، أنها بنت حرام، لأن أباها أنجبها بعد أن طلق أمها لينجح بالسفر، تستشيط أمل غضباً عندما يقرر القانون أنها (بنت حرام) " الفاتحة

على روح القانون...الوطن ضاع باسم القانون، بيتكم نسفوه باسم القانون، أمي شرموطة باسم القانون، أنا بنت حرام باسم القانون. ويقولون القوانين معطلة. القوانين ليست معطلة، إنها تعمل ليل نهار. هل رأيت كيف تعمل" (228). والقانون الذي يعمل هو قانون أوسلو، الذي سحق أمل وأظهرها (بنت حرام)، وسحق من قبلها فاطمة وسهام.

- ومع ذلك، فالنقيض موجود أيضاً. إنه موجود كبارقة أمل، وبقية موقف، لدى ذات الشخصيات الممزقة. فمريم لا تتورع، في لحظة تماسك جميلة فنياً، من أن تعلن رفضها لأوسلو بتقديمها الوليد الزنيم للجنود على الحاجز. ومي الرسولي لا تزال تكتب لتشحذ همم اليوسفي ومن يقود، متنازلة عن همها الأنثوي الإنساني الاعتيادي لصالح الهم العام. فيما الأم، زكية السلطان، تتبرأ من ولدها البيروقراطي، اليوسفي، الذي استبدل الوطن بجزء مشوه من الحلم، بأن تدير ظهرها له وترفض مساعدتها له. أما أميمة فيمنحها التدين طاقة معنوية: تهب لنجدة أختها دلال من محنتها مع زوجها، وتعود لنابلس فاتحة يديها بأمل. فالدين، ومع كونه يقدم روائياً كملاذٍ للمستسلمين، أمام انهيار اليقين، يلعب دوراً تحفيزياً. وهناك البقية الباقية من النضال النسوي الوطني تمثله سحر، الطالبة والعاملة الفقيرة، التي تحب وتحيا وتناضل وتستشهد، وهناك أم رياض راوية(ذاكرة لا تخون) التي تتمسك بما هو جميل.
- والخارج يطل برأسه هذه المرة أيضاً. ولكنه هذه المرة ليس كخارج في علاقة نضالية، وإن كانت بيروقراطية، مع الداخل، بل الخارج الذي جلب الهزيمة وانهيار الحلم عبر اتفاق اوسلو. فاليوسفي، ممثل الخارج، جلب الدمار لكل النساء اللواتي ارتبطن به، أمه وهاجر ومي. ومازن في الميراث، العائد من النضال، مهزوم ويبحث عن الاستثمارات التجارية، والبطولات الذكورية الفاشلة، ينتهي لتنظيم مهرجان وطني، بتمويل غربي، يحاصر مهرجانه من الجيش ويتفجر من الداخل، فلا يجد سوى الدعوة للاستعانة بطريق المستوطنة للخروج من الحصار! فالخارج والحال هكذا يطل بوطأته على الحلم الوطني، ولكن المرأة تدفع الثمن الأكبر. أما مناضلي الخارج غير المتبقرطين، فيطحنهم الوطن المنقوص، الذي عادوا إليه حلماً، فوجدوه كارثة(رياض في ذاكرة لا تخون)
- والثمن الذي تدفعه المرأة وطني واجتماعي. يدير المناضلون ظهرهم لتضحياتها(نموذج نهلة)، فتندفع لجنس بائس لتعيش أنوثة تموت داخلها، مع السمسار القبيح، ويتآمر ضدها أخوها "المستشيخ" الذي حاول قتلها، ويخطفها مناضلو الانتفاضة الثانية. تلتحم أميمة بالمناضلين، عامر وعبد الله، فيستشهد الأول ويطعنها الثاني في كرامتها كامرأة إذ يشبهها ببنات الليل. أما اليوسفي، فيطعن حب هاجر لها، يضع جنينه في داخلها ويدير ظهره ويرحل، ويمارس كذبته على مي، منتحلاً شخصية كاذبة، فيوقعها بحبه. أما الرأسمالي العائد مع العائدين بعد أوسلو فهجر مريم وعاد ليبحث عنها، محاولاً استرجاع حبٍ جميل في زمن لا يعرف ذاك الحب.

- لذلك يندغم الوطني بالنسوي/ الاجتماعي في هذه المرحلة شأن المرحلة الثانية، مع فارق جوهري: غدا الوطني بقايا لا سياق في حركة. فالوطني صوت احتجاج من أميرة لدى خليفة، ودعوات للتمسك بالوطن والقتال من مي الرسولي لدى الغزاوي، وشهيدة مطعون بنضالها، كما نموذج سحر لدى أبو الحيات، وحنين للماضي في مواجهة الحاضر لدى راوية(ذاكرة لا تخون). فالنضال الوطني للمرأة إما يتراجع أو يندحر أو يطعن به، على العكس من نضال المرحلة السابقة: موجود بقوة ولكن يطعن به، فالموجود الآن بقايا ويطعن بها!. لذلك تحتل المسألة النسوية مكانة كبيرة في حركة الشخصيات، مع تراجع الدور الوطني أو اندحاره لديها. فالهم النسوي طاغ لدى خليفة في الميراث ولدى أبو الحيات في حبات السكر ولدى البرغوثي في ذاكرة لا تخون. من الواضح أن المحور لا زال المسألة الوطنية غير المنجزة (التحرير والاستقلال)، ولكن هم المرأة الاجتماعي أكبر بما لا يقاس من المرحلة السابقة. وكأننا أمام المعادلة التالية: ما إن يتراجع الدور الوطني للمرأة نتيجة الانهيار الوطني، حتى تعود المسألة النسوية لتنطرح بقوة، في مظهرها الأبرز: القمع المزدوج، الوطني والاجتماعي.
- والثقافة المقيدة أو المعادية للمرأة تلقي بثقلها في روايات هذه المرحلة خاصة لدى الكاتبات النسويات. فمحور أساسي في تطور شخصية أميمة هو الموقف المعادي لشخصيتها من عبد الله المتدين. كما أن الميراث تعج بالمواقف الرجعية من المرأة التي يحملها ويتبناها متدينون(سعيد المتدين، والد زينة الذكوري، شباب الانتفاضة المتدينين). بالمقابل فإن البرغوثي في رواية (حارة البيادر)[98]، وبطريقة استعراضية، عرضت بالموقف الديني من المرأة عند عقد زواج خلود ومؤنس، إذ أصرا على أن النساء (أولياء أمور) وشاهدات على العقد!

إن تزايد العداء لدور المرأة يمكن تفسيره بتنامي نفوذ التيار الديني في العمل السياسي الفلسطيني بعد أوسلو، وهذا ما عكسته الرواية بوضوح.

[98]- حارة البيادر في الحقيقة قصص حقيقة لمناضلين فلسطينيين، تفتقد للناظم الفني الذي يحولها لرواية فعلاً، علماً أن بعض تلك القصص (تخفّي جمال المناضل) كان يمكنها أن تشكل لحمة رواية قائمة بذاتها، لو أحسن معالجتها.

القسم السادس

الاستنتاجات العامة

إن الاستنتاجات العامة للدراسة ستتوزع على محورين أساسيين: **الأول**: هي تلك الاستنتاجات التي تقرأ التحولات في مكانة المرأة في الرواية، قراءة مقارنة من جهتين: مقارنة مكانتها حسب جنس الكاتب، روائي وروائية، ومن جهة ثانية مقارنتها لدى نفس الروائي في مراحل مختلفة..وبالتالي يمكن للدراسة أن تحيط بمكانتها تبعاً لمختلف التأثيرات (طبيعة المرحلة، جنس الروائي، القدرة الإبداعية للروائي)، ما يمكن بالتالي من الخلوص لاستنتاجات أقرب للعلمية والصواب.

أما المحور **الثاني** الذي تنهض عليه الاستنتاجات فهو فحص مدى مواءمتها أو عدمه مع الفرضيات التي سجلتها الدراسة في القسم الأول، للإجابة، بالتالي، على السؤال الأساسي للدراسة.

أولاً: جنس الروائي/ ة وقضية المرأة

تتمايز روائيات العينتين الرئيسية والثانوية، بين كل الروائيين الذين عالجت الدراسة رواياتهم، بأنهن انطلقن من ثنائية المرأة والرجل، على الأقل بشكل صارخ في رواية باب الساحة لخليفة. لقد لحظت الدراسة طابع النمذجة الذي ميز الشخصيات الأنثوية والذكورية في الرواية، الأمر الذي حدا بدراج في مقدمته لرواية(صورة وأيقونة وعهد جديد) إلى القول" أن سحر، المسكونة بفكرة اضطهاد المرأة وتحريرها، دفعت، أحياناً، بثنائيتها- المرأة والرجل يعني- إلى تخوم التعسف..." (5).

وثنائية المرأة والرجل تظهر فنياً بأشكال عديدة:

- الإطلاقية التي تظهر في رسم الشخصيات الذكورية والأنثوية، فالنساء مضطهدات، مقموعات، فيما الرجل هو الشر الأكبر! وهذا بالضبط ما يمكن وصفه بالتعسف. لقد لاحظت الدراسة لذلك لدى خليفة في باب الساحة، وتلاحظه أيضاً عند (أبي الحيات والبرغوثي): فنساء (أبي الحيات) على اختلاف مواقفهن وسلوكهن يستدعين التعاطف معهن: المتحولة للدين بعد أزمتها المركبة(أميمة)، الملحدة (ورد)، الشهيدة(سحر)، الزوجة المقموعة، والابنة المعاقة...كلهن نساء يستدرجن القارىء لتعاطف يقابله امتعاض على الرجل المقابل، أو رمزه الذكوري، وبالترتيب: عبد الله، الدين، الرجل في المسيرة، الزوج، الأب... أما نساء البرغوثي فكأنهن في (حارة البيادر) نسوة ملائكة في سجاياهن وسلوكهن وموقفهن، علماً أن صورة الرجل هنا فيها الكثير من الإيجابيات. وما يقال عن نساء (حارة البيادر) يقال عن نساء (ذاكرة لا تخون).
- فيما يظهر، أحياناً، وكأن هذه الثنائية هي محور الحدث، لا ثنائية الصراع الأعم في الواقع، الاجتماعي والوطني. ففاطمة عند البرغوثي في (ذاكرة لا تخون) تنظم قصة ظلمها الاجتماعي كل محور الرواية، وعندما تغيب للحظة، تظهر شخصيتا أمل وسهام لتكملا اللوحة.
- والمكانة الإيجابية للمرأة تظهر فنياً أيضاً. ففي مساحات الحوار النسوي، وفي السرد، وفي الراوية/ المرأة للأحداث، وفي اللغة الوصفية الغاضبة للقمع الذكوري[99].. في كل هذا تحضر المرأة فنياً بقوة، كتعويض، تعتقده الدراسة، عن الغياب الاجتماعي في الواقع، وعلى الأقل هشاشة الحضور الاجتماعي. لذلك تلحظ الدراسة أنه كلما غابت المرأة اجتماعياً(وهذا تجلى أكثر ما تجلى في نصوص ما بعد أوسلو) كلما كانت حاضرة أكثر في تقنية النص الروائي(الحوار، السرد، جنس الراوين واللغة الوصفية الجندرية) وهذا يظهر أكثر ما يظهر في روايات الميراث، وحبات السكر، والخطوات، وذاكرة لا تخون، أي روايات ما بعد أوسلو.

ومع ذلك، فالروائيات المذكورات لم يغفلن، في السياق العام، وضع هذه الثنائية في الإطار العام للصراع مع الاحتلال. فالانتفاضة هي المحور الأهم الذي تدور حوله الثنائية تلك في باب الساحة. والميراث ما بعد أوسلو ينظم الصراع الأنثوي/ الذكوري في الميراث، كما الحلم المفتقد بعد أوسلو ينظمه في (صورة وأيقونة وعهد جديد). أما ثنائية البرغوثي فتصاغ في مرحلتين، الانتفاضة وما بعد أوسلو. وأخيراً إن ثنائية (أبو الحيات)، تدور حول محورين: محور الانتفاضة الثانية(2000)، ومحور التغيرات ما بعد أوسلو، وتقدم شخصية عامر وحبيب سحر كشخصيتين إيجابيتين في موقفيهما من المرأة.

يمكن الاستنتاج أن جنس الروائي، إن كان امرأة، يلعب دوراً في إبراز معاناة المرأة، وبشكل يفتقد للموضوعية أحياناً، ولكنه يعود ليضع تلك المعاناة في إطار السياق الأهم، الوطني، والاجتماعي/ الطبقي، والثقافي.

---

[99]- سبق واستعرضنا بعضاً من هذه اللغة الوصفية عند تحليلنا للميراث وحبات السكر ونحيل هنا لمزيد من الإيضاح على الصفحات التالية من ذاكرة لا تخون(16، 27، 7، 122، 239) ومن حارة البيادر(82)

ومع ذلك، لا يمكن الاستنتاج أن الروائي الرجل لا يظهر حساسية روائية، وفكرية، تجاه قضايا المرأة، بل على العكس يمكن التأكيد، دون مجازفة، أن الرجل الروائي كان قادراً على وضع المسألة النسوية في سياقها الوطني والطبقي والثقافي، بطريقة لا تجانب الموضوعية، الأمر الذي أضفى لا جمالية روائية فحسب، بل ومصداقية فكرية.

فحرب مثلاً إذ يظهر ما لسطوة العائلة التقليدية(في إسماعيل) والثقافة الدينية(في أرض الميعاد) والسياسة الذكورية(في بقايا) من سطوة ضد المرأة فهو يضعها في السياق الصحيح، الوطني والاجتماعي،

لا يتعامل مع ثنائيته بشطط، بل إن الرجال والنساء، نسيج اجتماعي/ طبقي ووطني واحد عامر بالتناقضات، ومنها التناقض بين المرأة والرجل. وهكذا فعل كنفاني، في لفتة مبكرة، عندما عزا سلوك (أبي سعد) تجاه أم سعد وتعامله معها، للفقر والبؤس واليأس ، ليتحول هذا السلوك وذاك التعامل عندما (تلعلع) البوارید في المخيم.[100]

أما الغزاوي ففي رواياته الثلاث، تحضر القضية النسوية بقوة، وبصياغة فنية، أكثر جمالية من صياغات حرب وكنفاني. ففي (جبل نبو) لا يعدو الجنس مجرد عملية بيولوجية/ اجتماعية تمتهن المرأة، بل فعل توليد لمنقذ منظر(إسماعيل). أما في الحواف فسروة تُطعن في نضالها وأنوثتها من البيروقراطي(المناضل السابق) فؤاد، ولكن تتماسك ولا تتخذ موقفاً عدمياً من النضال، شأن نزهة الناقمة مثلاً عند خليفة، بل تلتحم مجدداً بإبراهيم الفدائي في الجبل وتسعى لإنقاذه. وأخيراً في الخطوات ورغم أن كل نساء اليوسفي، طُعن وطنياً واجتماعياً من الرجل(اليوسفي) إلا أنهن يتماسكن أيضاً، ويضع الغزاوي طعناتهن في الإطار الأوسع(الانتفاضة والمرحلة الجديدة ما بعد أوسلو). والغزاوي، شأن حرب والنساء الروائيات، يحيل المسألة الروائية على المكون الوطني/ الاجتماعي/ الثقافي، ويحتل الدين، كموقف غير مساند للمرأة على الأقل، مكانته عنده.

إن نساء الرجال الروائيين أكثر تماسكاً إن جاز التعبير، من نساء الروائيات، دون نسيان تماسك سحر عن (أبي الحيات) وأمينة عند خليفة، وهن فوق ذلك لا يتحركن وفق ثنائية تبدو شاطة أحياناً بل تندغم تلك الثنائية في الإطار الأوسع، البنية الاجتماعية والثقافية.

ثانياً: رؤية الروائي/ة الأيديولوجية

والرؤية الأيديولوجية، بتعريفها على العموم، تشمل حقلاً واسعاً: الموقف السياسي، الموقف الطبقي، الموقف الفكري،...إنها الرؤية التي تنظم كل ما يحدد موقف الروائي/ ة من كل أشكال الصراع والتناقض في البنية الاجتماعية في لحظة تاريخية محددة، وبالقطع فإنها تتأثر بالبيئة المكانية والتكوين الثقافي وعوامل أخرى عديدة.

بهذا المعنى فالرؤية الأيديولوجية تطل برأسها واضحة في كافة أعمال الروائيين، من العينتين الرئيسية والثانوية. ومع ذلك يبقى السؤال: أين كانت هذه الرؤية تقحم نفسها في تطور الحدث وتَشكل الشخصيات، بما

---

[100]- يمكن هنا ملاحظة تأثير الخطاب الأيديولوجي الماركسي على صياغة كنفاني لعلاقة أم سعد وأبو سعد ولتحولات تلك العلاقة، فهذا الخطاب، وبشكل لا يخلو أحياناً من تبسيطية مخلة بالعلمية، يعتقد أن مجرد تغير الواقع يعني بالضرورة تغير طابع العلاقة.

يعاند الحدث الواقعي والتطور الواقعي لما تمثله الشخصية، الأمر الذي يمكن وصفه بإسقاط تعسفي للأيدولوجيا على النص، وعلى العكس أين كانت الأيدولوجيا، تتسلح بالصدق الأدبي، فتكمن في خلفية المعالجة الروائية، وتترك للسياق الفني، للحدث والشخصيات تحديداً، أن يتشكل وفق منطقه الخاص، الذي لا ينعزل قطعاً عن منطق ما يعكسه، البنية الاجتماعية. إن خيطاً رفيعاً يجب التقاطه بين هذين النمطين من (سلوك) الأيدولوجيا، وهذا الخيط هو ما تسعى الدراسة للإمساك به. والنقطة الأساس التي تنطلق منها الدراسة، بالاستناد لمنهجية البحث، أن لا روائي دون رؤية أيديولوجية، فالنقاش والحال هذا، ليس حول وجود أيدولوجيا في صلب النص الروائي، بل حول شكل هذا الوجود.

- لدى كنفاني وحبيبي يبدو الموقف من طابع الصراع الفلسطيني- الصهيوني، وتالياً الموقف من ظاهرة الكفاح المسلح هما المحوران الأهم اللذان على ضوئهما تتحدد رؤيتهما الفكرية/ الأيديولوجية التي تبرز في الرواية. بالنسبة لحبيبي، الماركسي- اللينيني، وكما سبق القول، فالانتماء للحزب الشيوعي حدد معالم رؤيته: الصراع الفلسطيني/ الإسرائيلي، وحتى مطلع السبعينات، صراع بين الدول العربية وإسرائيل، مع اعتبار إسرائيل تجسيد لحق الشعب اليهودي في تقرير المصير على أرض فلسطين، وبالتالي الاعتراف بشرعيتها، وبالتالي كان الموقف المعادي من الكفاح المسلح. أما بالنسبة لكنفاني، فالأمر على النقيض تماماً، إن الماركسية- اللينينية مدخله، كعضو قيادي في الجبهة الشعبية لرفض الوجود الصهيوني من أساسه، وبالتالي العمل على اجتثاث هذا الوجود عبر الكفاح المسلح، الذي قُدم من قبل فصائل المقاومة بقداسة باعتباره (الشكل الوحيد للنضال)[101]. حبيبي عضو الكنيست الإسرائيلي[102] عن الحزب الشيوعي، وكنفاني عضو في قيادة الجبهة الشعبية التي تروم تدمير مؤسسات الكيان الصهيوني. حبيبي بقي في وطنه ومدينته، حيفا، وكنفاني عاش اللجوء في مخيمات لبنان...إن الفارق في التكوين السياسي، البيئي، بين الإثنين كان لا بد أن يترك تأثيره على رؤيتيهما للمحورين الأساسيين: طابع الصراع وآليات التحرير. وهذا ما برز بحدة في الروايتين وإن اختلف شكل البروز.

لقد لاحظت الدراسة أن إسقاط البرنامج السياسي للحزب على ما نطقت به الطنطورية في حوارها مع ولاء كان بارزاً بشكل لا يخفى، في الوقت الذي تمتعت فيه الرواية بحبكة فنية جميلة ولغة تراثية عالية الجودة أعادتها الدراسة أيضاً للتكوين السياسي للكاتب. إن الرواية من هذا الجانب بالذات، نعني موقف الطنطورية من خيار ولاء، كانت منشوراً سياسياً مصاغاً بلغة فنية رفيعة، وأحياناً بذات مفردات الخطاب السياسي.

يختلف الأمر لدى كنفاني. إن أم سعد كرواية لا تصمد أمام المقارنة الفنية مع رواياته الأخرى(رجال في الشمس، عائد إلى حيفا، ما تبقى لكم، الأعمى والأطرش غير المكتملة..)، إنها بمعنى ما الأقل جودة من حيث الحرفة الفنية لدى كنفاني. ومع ذلك، وإن غاب عنها التنظير الحزبي، على عكس(سعيد ابو النحس..) إلا أن

---

[101]- هذه الصيغة/ العبارة حملتها برامج الفصائل جميعها حتى أواسط السبعينيات وتحديداً الجبهتين الشعبية والديموقراطية، وفتح.

[102]- من المفارقة أن في أم سعد شخصية عبد المولى الذي يقدم، كعضو في الكنيست الإسرائيلي، كعميل للاحتلال، فيما الحزب الشيوعي يعتبر النضال من داخل الكنيست وسيلة نضالية!

رؤية الكاتب السياسية للصراع وآلياته، حاضران بقوة في الخيار الذي تبشر به أم سعد، خيار الكفاح المسلح للتحرير الكامل. إنها بهذا المعنى صيحة روائية دعاوية وتحريضية، تحض على القتال والالتحاق بالمقاومة، من كاتب عُرف باعتباره روائي حركة المقاومة دون منازع.

وكل ذلك كان له إسقاطاته على الشخصيات النسوية: حُملت الطنطورية خيار الحزب وعاندت ولاء وأخيراً (لحقت به) في ظرف غامض[103]، بينما حُملت أم سعد مسؤولية التبشير بالعمل المسلح وحركته فكانت معلمة دون منازع.

- أما الروائيان الآخران، الغزاوي وحرب، فلموقفهما السياسي وانتمائهما التنظيمي، تأثيره على صياغة الشخصيات النسوية أيضاً، وإن كان لا يظهر هذا كإسقاط على الإطلاق. الغزاوي ينتمي لحركة فتح[104] وحرب يُشْتَمُّ من روايته ذات الانتماء.[105] وفوق ذلك الانتماء، فالروائيان محاضران جامعيان في جامعة بيرزيت في الأدب المقارن والإنجليزية. لذلك يمكن إيجاد خلفية أيديولوجية في رواياتهما، على الأقل على صعيدين: الأول تأكيد الارتباط بين جناحي الخارج والداخل في تطور الأحداث وما لحق هذا من تشريح لظاهرة نمو البيروقراطية في جهاز حركة المقاومة وتفريخها لفرعها في الداخل. والمنتمين لفصائل حركة المقاومة، ومنهم الفتحاويون، كانوا دائماً يلامسون هذا في عملهم السياسي والتنظيمي، ويشعرون بوطأته على نضالهم خاصة في فترة الانتفاضة، ولاحقاً عند التوقيع على أوسلو، نتاج هذه البيروقراطية بالذات. وعليه كان هذا حاضراً في روايات حرب والغزاوي دائماً عبر شخصيات رجولية ونسائية. والأهم، بالنسبة لدراستنا، إن هذا الارتباط له إسقاطاته على الدور النسائي في الروايات، عائشة ومريم في جبل نبو ، سروة في الحواف، وديعة في الجانب الآخر، ، سلفيا في البقايا، ومي هاجر وزكية السلطان في الخطوات. إن نساء حرب والغزاوي يتحركن داخل هذا الارتباط بالذات لا خارجه.
- والأيدولوجيا حاضرة كذلك في روايات النساء، خليفة، والبرغوثي، وأبو الحيات. إنها تتجسد أكثر ما تتجسد في معالجة الهموم النسوية، الاجتماعية والوطنية، من منطق، سبق ووصفته الدراسة، أنه يستند لثنائية الرجل والمرأة، أحياناً، كموقف أيديولوجي من قضية المرأة. لقد سبق للدراسة أن عالجت ذلك، ولكن يفيد هنا التذكير، أن هذا الموقف الأيديولوجي حاول وضع قضية المرأة والرجل في سياقها الوطني/ الاجتماعي/ الثقافي ونجح، ولكن دون أن يتخلى عن ثنائيته الشاطة أحياناً.

ثالثاً: الاستنتاجات المرتبطة بسؤال البحث

---

[103]- سبق وعالجت الدراسة في تحليلها (للالتحاق هذا) كل القراءات المحتملة للنص والتطور الدرامي للالتحاق نفسه، ومالت لاعتباره لا التحاقاً بالمقاومة بل بخيار آخر غير خيارها، بل خيار الحزب.

[104]- يستقي الباحث معلومته عن الروائي الراحل من معرفته الشخصية به وبنضاله، حيث تعرض للاعتقال بتهمة العضوية في فتح، وكان ممثلها التنظيمي على رأس اتحاد الكتاب الفلسطينيين، وحتى رحيله.

[105]- كثيرة هي الدلائل التي تشير إلى أن الراوي في الثلاثية هو الروائي نفسهن وأن بلدة العين بلدته(الظاهرية) ووظيفة الراوي نفسها(محاضر جامعي) وقد التحق الراوي بحركة فتح في (الجانب الآخر...) وأنجز تكليفات خاصة به من التنظيم.

صاغت الدراسة في القسم الأول سؤالها الذي ستتصدى له بالتالي: إلى أي مدىً كانت التحولات على مكانة المرأة ودورها في الرواية الفلسطينية المعاصرة، تتناسب والتحولات على مكانتها ودورها في الحياة الاجتماعية والسياسية الفلسطينية قبل وبعد أوسلو والأسئلة الكبيرة التي تُطرح حول هذا الدور من نوع الوطني والاجتماعي، والحيزان الخاص والعام، وموقف الآخر، والدور النضالي للمرأة. وباختصار ستحاول الدراسة الوقوف على مدى محايثة، وكيف حايث، الإبداعي الفلسطيني الاجتماعي فيما يتعلق بالمرأة وتحولات مكانتها ودورها في المجتمع.

في تحليل الروايات في المراحل التاريخية الثلاث يمكن الافتراض أن الرواية الفلسطينية كانت تقدم صورة المرأة ومكانتها بارتباط وثيق(فني وواقعي) مع كل مرحلة تاريخية[106]، بما تتضمنها هذه المرحلة من أدوار للقوى الاجتماعية، ومن رؤى سياسية واجتماعية مختلفة. وقد تأثر هذا التقديم بمتغيرات عديدة: رؤية الروائي الكونية، أي أيديولوجيته، انتمائه السياسي والحزبي، وطبيعة موقعه من العمل السياسي المباشر، وجنسه.

إن الاستنتاج الأساسي يجيب على هذا سؤال الدراسة بالإيجاب: فالرواية الفلسطينية واكبت التحولات في مكانة المرأة ما بعد أوسلو مقارنة مع المرحلة التي سبقتها. إنه يمكننا التدليل على هذا، بتكثيف، يعفي عن إسهاب سبق وفعلته الدراسة أعلاه، بالظواهر الروائية التالية:

- سجلت الرواية بعد أوسلو تراجع الفعل النضالي للمرأة بشكلٍ حاد عن المرحلة ما قبل أوسلو، كما سجلت انهيار حلم المرأة (والرجل أيضاً) في التحرير الناجز، وهذا يتفق مع تشخيص الدراسة حول تراجع الحركة النسوية المناضلة بعد أوسلو وانهيارها، كجزء من تراجع أدوار القوى والفئات الشعبية(والنساء منهم) والتي تميز دورها بالتسيد في المراحل السابقة.
- بالمقابل، وعلى صعيد العلاقة بين الوطني والنسوي/ الاجتماعي، سجلت الرواية ثقل القضية النسوية الاجتماعية، التي ما غابت في المرحلة السابقة، ولكن كانت القضية الوطنية تطغى عليها، بحيث لا تظهر الأولى إلا من خلال الثانية. في مرحلة ما بعد أوسلو، تنطرح قضية المرأة من خلال القضية الوطنية، ولكن تكتسب أبعاداً أعمق وأشمل في ظل الانهيار الحاصل في العمل الوطني. إن الرواية لاحظت أنه كلما تراجع النضال الوطني كلما تنامى الإحساس بطرح القضية الاجتماعية للنساء، وهذا مؤشر على حماسة طرح القضية تلك ما بعد أوسلو في أوساط النساء الفلسطينيات، ويؤكد صحة فرضية الدراسة التي اعتبرت أن التنويع في القضايا النسوية بات يميز الكتابات ما بعد أوسلو.
- كانت الرواية الفلسطينية(رواية الرجال والنساء على حدٍ سواء) وفية في طرح القضية الاجتماعية للنساء في مختلف المراحل، لكن ما بعد أوسلو كانت الرواية(وأيضاً رواية الرجال والنساء وإن

[106]- من نافلة القول أن المستوى الفني يتفاوت بين روائي وآخر من حيث مستوى جمالية هذا الارتباط، العلاقة بين البنيتين، وأيضاً عند ذات الروائي في عملين روائيين.

كانت الأخيرة أكثر مباشرة) تطرح القضية الاجتماعية للنساء باعتبارهن أول الضحايا للانهيار الوطني.

- لقد لحظت الرواية الفلسطينية بعد أوسلو، كما قبله، ما للمكونات الثقافية الدينية السائدة من دور معيق على للنساء، وكانت الرواية ما بعد أوسلو اكثر مباشرة في الكشف عن ما للتيار الديني الناشيء من تأثير على أدوار النساء وحقوقهن، الوطنية والاجتماعية.
- وتسجيل خروج النساء من الحيز الخاص للعام ميز الروايات في مختلف المراحل، أما ما تميزت به روايات مرحلة ما بعد أوسلو، على هذا الصعيد، فليس النكوص للخاص كما يتبادر للوهلة الأولى، بل تحول العام من حقل للفعل الوطني/ الاجتماعي، إلى حقل عام تمارس فيه الثقافة السائدة دور القامع لمكانة المرأة، وتمارس فيه أيضاً العلاقات الجديدة، الاجتماعية والسياسية، دورها في تهميش مكانة المرأة، والقضاء على حلمها الذي ناضلت من أجله.
- ثنائية المرأة والرجل في الرواية برزت في كل المراحل التاريخية، مع ملاحظة أن الفارق هنا ليس بين أوسلو وقبل أوسلو، بل بين روائي وروائية. فالروائية الفلسطينية مالت للثنائية، بشكلٍ حاد أحياناً، ميز الكتابات التي وثقت للثنائية بعد أوسلو.
- إن روايات ما بعد اوسلو أكدت ما افترضته الدراسة، من أنها باتت تطرح إشكاليات تتعلق بمكانة المرأة بجرأة لم يتطرق لها الفكر السياسي المهيمن، وتحديداً مع الرجل، ومشاركتها في النضال وتداعيات هذه المشاركة، وعلاقتها بالفكر والثقافة السائدة.

أما كيف كانت الرواية الفلسطينية تحايث التغيرات ما بعد أوسلو، فيمكن تسجيل المؤشرات الفنية/ الجمالية التالية، والتي سبق تناولها بتوسع فيما سبق من الدراسة:

- يلاحظ أن مساحة الحوار الداخلي، وبين النساء أنفسهن، أكثر في روايات ما بعد أوسلو، الأمر الذي اعتبرته الدراسة تعويضاً عن تهميش صوت النساء في الواقع الاجتماعي والسياسي.
- تميل الروايات ما بعد أوسلو، وتحديداً الروايات المكتوبة من النساء، إلى إفراد حيز للسرد ألاسترجاعي للماضي الأجمل في مواجهة الحاضر المقموع بالنسبة لهن.
- يغلب صوت الراوي الأنثى على الراوي الذكر في الروايات ما بعد أوسلو، كتأكيد على مكانة المرأة في الواقع الروائي مقابل غيابها في الواقع الاجتماعي.
- وأخيراً، فإن الإسهاب بتفاصيل النصوص التي تعج بالوصف المأساوي لواقع المرأة يبدو عالياً في الروايات تلك، وتحديداً في الروايات التي كتبتها النساء.

قائمة المراجع

المصادر الأساسية (روايات العينتين الرئيسية والثانوية)

أبو الحيات، مايا. **حبات السكر**. المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي. رام الله، فلسطين. ط1 2004.

البرغوثي، وداد. **حارة البيادر**. منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية. فلسطين. ط1 1999.

ذاكرة لا تخون. دون دار نشر.ط1 1999.

حبيبي، إميل. **سعيد أبو النحس المتشائل**. الأعمال الأدبية الكاملة. سلام إميل حبيبي. الناصرة، فلسطين. ط1 1997.

حرب، أحمد. **إسماعيل**. منشورات جامعة بيرزيت، بيرزيت، فلسطين. ط2 1994.

الجانب الآخر لأرض المعاد. منشورات جامعة بيرزيت، بيرزيت، فلسطين. ط2 1994.

بقايا. منشورات جامعة بيرزيت، بيرزيت، فلسطين. ط1 1996.

خليفة، سحر. **الميراث**. دار الآداب، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى 1990.

باب الساحة. دار الآداب، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى 1997

صورة وأيقونة وعهد قديم. دار الآداب، بيروت، لبنان. ط1 2002.

الغزاوي، عزت. **ما قاله الرواة (جبل نبو، الحواف، الخطوات)**. مركز أوغاريت الثقافي للنشر والترجمة. رام الله، فلسطين. الطبعة الأولى 2002.

كنفاني، غسان. **أم سعد**. الآثار الكاملة، المجلد الأول، الروايات. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت، لبنان. ط2 1980.

عائد إلى حيفا. الآثار الكاملة، المجلد الأول، الروايات. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت، لبنان. ط2 1980.

مراجع باللغة العربية

ابو بكر، وليد. **تجربة الكاتبة الفلسطينية في الفن الروائي.** في **نحو دراسة تأصيلية للرواية الفلسطينية المعاصرة.** منشورات مركز أوغاريت للنشر والترجمة. رام الله- فلسطين. 2000.

أبو دحو، رلى. **النساء في قيادة حركة المقاومة الفلسطينية(1967-1992)**. أطروحة ماجيستير غير منشورة. معهد دراسات المرأة/ جامعة بيرزيت. 2005.

أبو علي، خديجة. **مقدمات حول واقع المرأة وتجربتها في الثورة الفلسطينية- دراسة ميدانية لتجربة الكوادر والعناصر النسائية فيها للفترة ما بين 1967-1971**. دون ناشر ودون تاريخ.

الأسطة، عادل. **سؤال الهوية- فلسطينية الأدب والأديب**. دار الشروق للنشر والتوزيع.2000.

أفسيانكوف، م وسميرنوفا،ز. **موجز تاريخ النظريات الجمالية**. دار الفارابي، بيروت. 1979.

أندرسون، بندكت. **الجماعات المتخيلة**. المجلس الأعلى للثقافة. سلسلة المشروع القومي للترجمة. القاهرة، مصر. 1999.

أوفنسن، غير. **دخل الأسرة وثروتها**. في جماعة من الباحثين الفلسطينيين والنرويجيين **المجتمع الفلسطيني في غزة والضفة الغربية والقدس العربية.**. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. لبنان، بيروت. 1994

أيوب، محمد. **الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة** في الضفة الغربية وقطاع غزة 1967-1993. اتحاد الكتاب الفلسطينيين. القدس/ فلسطين. 1996.

البديري، موسى. **تاريخ فلسطين الاجتماعي الحديث**. في ليزا تراكي (تحرير) **المجتمع الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة**.. دار الأسوار-فلسطين، عكا. 1990.

بركات، حليم. **المجتمع العربي في القرن العشرين. بحث في تغير العلاقات والأحوال**. مركز دراسات الوحدة العربية. لبنان، بيروت.ط1 2000.

بشير، سليمان. **المشرق العربي في النظرية والممارسة الشيوعية 1918-1928**. القدس. 1977

بليخانوف. **المؤلفات الفلسفية-المجلد الخامس**. دار دمشق للطباعة والنشر. دمشق، سوريا.1982.

بن سوسان، جيرار ولابيكا، جورج وآخرون. **معجم الماركسية النقدي**. دار محمد علي للنشر ودار الفارابي. صفاقس-تونس وبيروت-لبنان. 2003.

بنورة، جمال. **دراسات أدبية**. دار الأسوار عكا/ فلسطين. 1987

تاكنبرغ، ألكس. **وضع اللاجئين الفلسطينيين في القانون الدولي**. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. لبنان ، بيروت 2003.

تحديات وخيارات المرأة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. برنامج الأمم المتحدة. د.ت.

تراكي، ليزا. **مقدمة- التجربة الفلسطينية تحت الاحتلال**. في ليزا تراكي (تحرير) **المجتمع الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة**.. دار الأسوار-فلسطين، عكا. 1990

تماري، سليم. **تحول المجتمع الفلسطيني: التشرذم والاحتلال.** في جماعة من الباحثين الفلسطينيين والنرويجيين. **المجتمع الفلسطيني في غزة والضفة الغربية والقدس العربية.**. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. لبنان، بيروت. 1994

توما، إميل. **ستون عاماً على الحركة القومية العربية الفلسطينية**. الأسوار للطباعة والنشر. فلسطين، عكا. ط3 1984.

ـ ـ، ـ ـ. **منظمة التحرير الفلسطينية**. دار الاتحاد للطباعة والنشر. 1986

ثامر، فاضل. **المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي.** دار المدى للثقافة والنشر. دمشق، سوريا. 2004.

جاد، إصلاح. **الحركة النسائية في فلسطين- توجه جديد**. في نادية عبد الوهاب (تحرير) **الحركة النسائية العربية. أبحاث ومداخلات من أربع بلدان عربية.**. مركز دراسات المرأة الجديدة. القاهرة، مصر 1995.

ـ ـ، ـ ـ ـ. **المرأة والسياسية- المرأة الفلسطينية: الوضع الراهن جزء7**. معهد دراسات المرأة-جامعة بيرزيت. فلسطين.2000.

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. **الوثيقة الصادرة عن الكونفرنس الحزبي 1994**.

الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، 2002. مشروع النشر والتحليل والتدريب لاستخدام بيانات التعداد، سلسلة التقارير التحليلية الوصفية (3)، **(خصائص السكان في مخيمات الأراضي الفلسطينية). رام الله- فلسطين.**

الجيوسي، د.سلمى الخضراء (تحرير). **موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر.**المؤسسة العربية للدراسات والنشر.بيروت.1997.

حمامي، ريما. **المرأة الفلسطينية والوضع الراهن(4)، الاقتصاد والعمل**. برنامج دراسات المرأة-جامعة بيرزيت. فلسطين. 1997.

حميد، لحمداني. **الرواية المغربية ورؤية الواقع المغربي- دراسة بنيوية تكوينية**. دار الثقافة. الدار البيضاء، المغرب.1985.

الحوراني، فيصل. **جذور الرفض الفلسطيني- 1918-1948**. مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسات الديموقراطية. رام الله، فلسطين. 2003.

الحيدري، إبراهيم**. النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب.** دار الساقي. لبنان، بيروت.2003**.**

خشفة، محمد نديم. **المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان- تأصيل النص**. مركز الإنماء الحضاري. حلب.1997.

خضر، حسن. **خصوصية ونشوء النخبة الفلسطينية.** معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية- جامعة بيرزيت. فلسطين. 2003.

الخليلي، غازي. **المرأة الفلسطينية والثورة- دراسة اجتماعية ميدانية تحليلية**. بيروت-لبنان. 1977.

دائرة الإحصاء المركزية، 1998. المرأة والرجل في فلسطين، اتجاهات وإحصاءات. رام الله- فلسطين.

دراج، فيصل**. بؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية**. دار الآداب، بيروت. 1996.

ـ ـ، ـ ـ. **نظرية الرواية والرواية العربية**. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء-بيروت. 1999.

دكروب، محمد. **تساؤلات أمام " الحداثة" و" الواقعية" في النقد العربي الحديث**. دار المدى للثقافة والنشر. سوريا. 2001

دوماني، بشارة. **إعادة اكتشاف فلسطين- أهالي جبل نابلس 1700-1900**. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت- لبنان. 1998.

دويتشر، إسحق. **ثلاثية تروتسكي.**

- **النبي المسلح** المؤسسة العربية للدراسات والنشر. لبنان، بيروت. 1981
- **النبي الأعزل** المؤسسة العربية للدراسات والنشر. لبنان، بيروت1982.
- **النبي المنبوذ**المؤسسة العربية للدراسات والنشر.لبنان، بيروت.1983.

ريديكر، هورست. **الانعكاس والفعل- ديالكتيك الواقعية في الإبداع الفني**. دار الفارابي-بيروت ودار الجماهير- دمشق.1977.

زريق، إيليا. **أوضاع الفلسطينيين في إسرائيل**. في **كتاب دليل إسرائيل العام**. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت، لبنان. 1999.

سالم، وليد. **المنظمات المجتمعية التطوعية والسلطة الوطنية الفلسطينية: نحو علاقة تكاملية**. منتدى أبحاث السياسات الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين. فلسطين، رام الله 1999.

سحاب، فيكتور. **الفكر السياسي الفلسطيني بعد عام 1948: الكتابات السياسية الفلسطينية حول قضايا أخرى**. في **الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثالث.** هيئة إصدار الموسوعة. لبنان، بيروت. 1990

سعيد، إدوارد. **الاستشراق. المعرفة، السلطة والإنشاء.** مؤسسة الأبحاث العربية.بيروت، لبنان. ط 4 1995.

شحادة، عودة وأبو صوي، بسمة. **قراءة إحصائية في ظل الانتفاضة** في **الانتفاضة مبادرة شعبية- مجموعة باحثين**. فلسطين 1990.

شرابي، هشام. **مقدمات لدراسة المجتمع العربي**. منشورات صلاح الدين. فلسطين، القدس.ط1 1975.

شريتح، محمود. **الرواية والقصة القصيرة والمسرحية الفلسطينية**. في **الموسوعة الفلسطينية.القسم الثاني(الدراسات الخاصة)، المجلد الرابع(دراسات الحضارة)**. هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق. ط1 بيروت 1990.

الشريف، ماهر. **البحث عن كيان- دراسة في الفكر السياسي الفلسطيني 1908-1993**. مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي. قبرص، نيقوسيا.ط1 1995.

شلبي، ياسر. **تعداد المنظمات غير الحكومية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة**. معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني. فلسطين، رام الله. 2001.

شولش، الكزاندر. **تحولات جذرية في فلسطين**. دار الهدى. الطيبة- فلسطين. 1990

صايغ، روز ماري. **الفلاحون الفلسطينيين من الاقتلاع للثورة**. مؤسسة الأبحاث العربية. لبنان، بيروت. 1980.

صايغ، يزيد. **الكفاح المسلح والبحث عن دولة- الحركة الوطنية الفلسطينية 1939-1993.** مؤسسة الدراسات الفلسطينية. لبنان، بيروت. ط1 2002.

الصباغ، زهير. **مرحلة الصدمة والنضال ضد الحكم العسكري 1948-1967**. في كتاب: **فلسطينيو 1948- نضال مستمر**. مركز الزهراء للدراسات والأبحاث. القدس، فلسطين. 1990

طرابيشي، جورج. **رمزية المرأة في الرواية العربية ودراسات أخرى.** دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت، لبنان. 1981.

ـ ـ ـ، ـ ـ ـ. **شرق وغرب، رجولة وأنوثة- دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية.** دار الطليعة للطباعة والنشر-بيروت.ط4. 1997.

العالم، محمود أمين. **مفاهيم وقضايا إشكالية**. دار الثقافة الجديدة. القاهرة.1989.

ـ ـ، ـ ـ ـ ـ ـ. **أربعون عاماً من النقد التطبيقي-البنية والدلالة في القصة والرواية العربية المعاصرة.** دار المستقبل العربي.القاهرة.1994.

عبد الحسين، سريدا. **الحقوق السياسية والعامة للمرأة الفلسطينية.** في **تقرير حول وضعية المرأة الفلسطينية بالاستناد إلى اتفاقية القضاء على كافة أشكال التمييز ضد المرأة.** مركز المرأة للإرشاد القانوني والاجتماعي. القدس، فلسطين 2001.

عبد الهادي، فيحاء. **نماذج المرأة/ البطل في الرواية الفلسطينية.** الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة/ مصر. 1997.

عدنان، قاسم. **نحو دراسة تأصيلية للرواية الفلسطينية المعاصرة. دراسات.** منشورات مركز أوغاريت للنشر والترجمة. 2000.

العيد، يمنى. **ممارسات في النقد الأدبي.** دار الفارابي-بيروت.1975.

ـ ـ، ـ ـ ـ. **في معرفة النص-دراسات في النقد الأدبي.** دار الآداب-بيروت. ط4 1999.

العيلة، زكي. **المرأة في الرواية الفلسطينية.** منشورات مركز أوغاريت الثقافي للترجمة والنشر. رام الله/ فلسطين. 2003.

الغزاوي، عزت (جمع وإعداد). **تأملات نقدية في نماذج من الأدب الفلسطيني المعاصر.** مركز أوغاريت الثقافي للنشر والترجمة. رام الله، فلسطين. 2001.

فرسون، سميح. **فلسطين والفلسطينيون.** مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت، لبنان.2003.

قطامش، ربحي. **الطبقة العاملة الفلسطينية في مواجهة الكولونيالية.** مركز الزهراء للدراسات ولأبحاث. فلسطين، القدس. 1989.

كتاب، آيلين وعواد، نداء. **الحركة النسوية الفلسطينية: إشكاليات وقضايا جدلية.** (بحث قيد الإعداد). معهد دراسات المرأة-جامعة بيرزيت. فلسطين. 2003.

كتاب، آيلين. **الحركة النسائية في فلسطين**. في **كتاب المرأة العربية في مواجهة العصر. بحوث ومناقشات الندوات الفكرية التي نظمتها نور**- دار المرأة العربية للنشر. نور – دار المرأة العربية للنشر. القاهرة.1996.

ـ ـ، ـ ـ. **مشاكل المرأة الفلسطينية في الانتفاضة.** في **الانتفاضة مبادرة شعبية-دراسة لأدوار القوى الاجتماعية** (إعداد) مجموعة من الباحثين. دون دار نشر.1990.

كرزم، جورج. **الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة (1948-1991).** إصدارات الشعلة. القدس. آذار ط1 1993.

كلافانس، كاثي. **الانتفاضة والمجتمع الريفي**. في مجموعة باحثين **الانتفاضة مبادرة شعبية-**. فلسطين 1990.

كنفاني، غسان. **ثورة 36-39 فلسطين- خلفيات وتفاصيل وتحليل**. وكالة أبو عرفة للصحافة. القدس/ فلسطين. د. ت

كيوان، سهيل. **غسان كنفاني-الجمال الحزين والعطاء المتوهج**. المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي. رام الله، فلسطين.2003.

لوكاش، جورج. **الأدب والفلسفة والوعي الطبقي**. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت-لبنان 1980.

ماركس، كارل وإنجلس، فردريك. **مختارات في أربعة أجزاء. الجزء 3.** دار التقدم. موسكو، الاتحاد السوفيتي. د. ت.

ماركس، كارل. وإنجلس، فردريك- **مختارات في أربعة أجزاء، جزء2**. دار التقدم-موسكو. د.ت.

المالكي، مجدي وشلبي، خميس. **التحولات الاجتماعية- الاقتصادية في ثلاث قرى فلسطينية شروط إعادة إنتاج الأسر الريفية الفلسطينية تحت الاحتلال**. رام الله: مركز العمل التنموي/ معاً، 1993.

المالكي، مجدي، وآخرون. **المجتمع الفلسطيني في مواجهة الاحتلال- سوسيولوجيا التكيف المقاوم خلال انتفاضة الأقصى.** مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسات الديموقراطية. فلسطين رام الله.ط1 2004.

محارب، محمود. **الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية 1948/ 1981**. ط1 تموز القدس 1989.

محفوظ، نجيب. **ثلاثية بين القصرين، قصر الشوق، والسكرية. المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني**. مكتبة لبنان، لبنان. 1991.

ـ ـ ـ، ـ ـ ـ. **اللص والكلاب**. **المؤلفات الكاملة، المجلد الثالث**. مكتبة لبنان، لبنان. 1991.

محمود، إبراهيم. **الضلع الأعوج- المرأة وهويتها الجنسية الضائعة.** رياض الريس للكتب والنشر. بيروت، لبنان. 2004

المرأة والعدالة والقانون – نحو تقوية المرأة الفلسطينية. مؤسسة الحق. رام الله، الضفة الغربية. 1995.

المراقب الاجتماعي- عدد خاص 1995-1999. معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني.عدد: 4 فلسطين، رام الله. أيار 2001.

المراقب الاجتماعي-. معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني. عدد: 6 فلسطين، رام الله. آذار 2003

مركز المرأة للإرشاد القانوني والاجتماعي. **تقرير حول وضعية المرأة الفلسطينية بالاستناد إلى اتفاقية القضاء على كافة أشكال التمييز ضد المرأة.** القدس، فلسطين 2001.

مروة، حسين. **الموقف الثوري في الأدب الإبداعي. بحث في ملتقى أدبي نظمته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الجزائر في 1976** . دون دار للنشر. د.ت.

ـ ـ ـ، ـ ـ ـ. **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية-الجزء الأول**. دار الفارابي-بيروت.1978.

مضية، سعيد. **حول المرأة في الرواية الفلسطينية**. في **تأملات نقدية في نماذج من الأدب الفلسطيني المعاصر**(جمع وإعداد عزت الغزاوي). مركز أوغاريت الثقافي للنشر والترجمة. رام الله، فلسطين. 2001.

مناصرة، د.عز الدين. **المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية- بحث في نماذج مختارة**. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت.2002.

منصور، أنطون. **اقتصاد الضفة الغربية، 1048- 1984**. في جورج العبد (تحرير) **تحديات التنمية في ظل احتلال مديد**. مركز دراسات الوحدة العربية. لبنان، بيروت. 1989.

الموسوعة الفلسطينية. **القسم الثاني/ المجلد الخامس**. هيئة الموسوعة الفلسطينية. لبنان، بيروت 1990.

مينا، حنا. **الشمس في يومٍ غائم. رواية**. دار الآداب، بيروت/ لبنان. ط6 1993.

نصر، محمد. **تعزيز القدرة الذاتية للاقتصاد الفلسطيني. الأوراق المحورية 2**. معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني. فلسطين، رام الله. 2003.

النقيب، فضل مصطفى والعطياني، نصر. **واقع ومستقبل العلاقات الفلسطينية-الإسرائيلية. الأوراق المحورية 4**. معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني. فلسطين، رام الله. 2003.

هلال، جميل. **الضفة الغربية-التركيب الاجتماعي-الاقتصادي (1948-1973)**. منظمة التحرير الفلسطينية- مركز الأبحاث. لبنان، بيروت. 1974.

ـــ، ـــ. **النظام السياسي بعد أوسلو-دراسة تحليلية نقدية**.مواطن-المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديموقراطية. رام الله. 1998.

ـــ، ـــ. **المجتمع الفلسطيني وإشكالية الديموقراطية**. نابلس: مركز البحوث والدراسات الفلسطينية، آب 1999.

ـ ـ ، ـ ـ ـ ـ. **تكوين النخبة الفلسطينية-منذ نشوء الحركة الوطنية الفلسطينية إلى ما بعد قيام السلطة الوطنية**. مواطن- المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديموقراطية ومركز الأردن الجديد للدراسات. رام الله- فلسطين وعمان، الأردن.2002.

اليوسف، يوسف سامي. **غسان كنفاني: رعشة المأساة-دراسة**. دار الأسوار-عكا.ط2 1958.

مراجع باللغة الإنجليزية

Hiltermann, Joost R. **Behind the Intifada**. Princeton University Press.USA. 1991.

.

Patman, Carole**. Sexual Contract**. Polity Press, Cambridge. 1988.

Sabri, Hafez. **The sociology of the Arabic Narrative**. Alsaqi. London. 1993.

.

Swedenburg, Ted. **Memories of the Revolt: The 1936-1939 Rebellion and the Palestinian National Past.** University of Minnesota Press. USA 1995.

الدوريات

تراكي، ايزا**. المجتمع والنوع في فلسطين. نقد لوثائق الوكالات الدولية حول سياساتها العامة**. في **مجلة الباحثات**. الكتاب التاسع 2003- 2004. تجمع الباحثات اللبنانيات. بيروت، 2004.

جولدمان، لوسيان. **مقدمة إلى مشكلات علم اجتماع الرواية.** في مجلة **فصول،** 1991**.** القاهرة**.**

دراج، فيصل. **التاريخ وصعود الرواية**. في مجلة **الكرمل**. عدد70-71 شتاء 2002. مؤسسة الكرمل الثقافية ومركز خليل ألسكاكيني. رام الله-فلسطين.2002.

ـ ـ، ـ ـ. **صورة اليهودي الغائمة في مرايا غسان كنفاني**. في مجلة **الكرمل.** عدد 53 خريف 1997. مؤسسة الكرمل الثقافية. رام الله، فلسطين. 1997

ـ ـ، ـ ـ. **الواقعية أم الواقع**. في مجلة **الكرمل**. العدد 5، شتاء 1982. الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين. بيروت-لبنان.1982.

Harlow, Barbara. **Return to Haifa: "Opening the Borders" in Palestinian Literature.** Social Text.vol 13/14. winter/spring 1986.

Jameson, Fredric. **Third-World Literature in the Era of Multinational Capitalism**. Social Text.vol 15. fall 1986

Salah D.Hassan. **Modern Palestinian Literature and the Politics of Appeasement** .Social Text 75, Vol.21, No. Duke University Prees.2003

ملحق

السير الذاتية لروائيي العينة الرئيسية

غسان كنفاني

- من مواليد عكا/ فلسطين في العام 1936
- نزح مع عائلته في العام 1948 بعد النكبة وسقوط عكا.
- عمل في بداية حياته عامل مطبعة وفي مطعم حتى أكمل دراسته.
- عمل مدرساً في مدارس الوكالة في دمشق ومن ثم مدرساً في الكويت. في ذات الفترة التحق بحركة القوميين العرب.
- في العام 1960 انتقل لبيروت ليعمل محرراً لصحيفة "الحرية" التي أصدرتها حركة القوميين العرب.
- عمل في بيروت محرراً لعدة صحف ومجلات منها المحرر، الأنوار والحوادث.

- عام 1969 أسس مجلة الهدف كناطقة باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وبقي رئيساً لتحريرها حتى استشهاده.
- انتخب عضواً في المكتب السياسي للجبهة والناطق الإعلامي باسمها حتى استشهاده.
- اغتالته المخابرات الإسرائيلية في 8/ تموز في العام 1972 بتفجير سيارته في بيروت.
- عام 1966 نال جائزة أصدقاء الكتاب في لبنان عن روايته" ما تبقى لكم" وجائزة منظمة الصحافيين العالمية عام 1974، وجائزة اللوتس في العام 1975.
- نالت رواياته شهرة عالمية خاصة عائد إلى حيفا، رجال في الشمس، وما تبقى لكم. ألف مجموعات قصصية عديدة وثلاث مسرحيات ودراسات حول الأدب الصهيوني والأدب الفلسطيني المقاوم وثورة 36 في فلسطين.

(المرجع-تظهير الأعمال الكاملة/ الموسوعة الفلسطينية)

إميل حبيبي

- من مواليد حيفا في العام 1921.
- أتم دراسته الثانوية في عكا ثم عمل في مصانع تكرير البترول في حيفا.
- من سنة 1941إلى1943 عمل في الإذاعة الفلسطينية مسؤولاً للقسم الثقافي.
- من مؤسسي عصبة التحرر الوطني في فلسطين في العام 1943 وفي العام 1949 لعب دوراً رئيسياً في توحيد الشيوعيين العرب واليهود في إطار الحزب الشيوعي الإسرائيلي.
- كان عضواً دائماً في المكتب السياسي للحزب حتى العام 1989. وفي العام 1989 استقال من الحزب واعتزل العمل السياسي.

- مثل الحزب الشيوعي في الكنيست الإسرائيلي لمدة 19 عاماً. في العام 1972 استقال من الكنيست ليتفرغ لتحرير صحيفة الحزب " الاتحاد " ولأعماله الأدبية. كتب في العديد من المجلات والصحف العربية والعالمية.
- أصدر ست روايات ومسرحيات أشهرها سعيد أبو النحس المتشائل وسداسية الأيام الستة ولكع بن لكع.
- حرر مجلة مشارف الأدبية وصحيفة المهماز الساخرة.
- ترجمت أعماله لأكثر من 15 لغة في العالم وحظيت باهتمام عربي ودولي واسع.
- أبدى اهتماماً خاصاً ب (لجنة المبدعين الإسرائيليين والفلسطينيين ضد الاحتلال ومن أجل السلام وحرية الإبداع) واشترك في رياستها مع الكاتب الإسرائيلي يورام كانيوك.
- منح جوائز عديدة: في العام 1990 منح أعلى وسام أدبي (وسام القدس) من الدائرة الثقافية في دولة فلسطين. في العام 1992 منحته وزارة الثقافة الإسرائيلية جائزة الدولة العليا في الأدب " جائزة إسرائيل"
- توفي في حيفا في العام 1996.

(المرجع- عدد مشارف التاسع)

سحر خليفة

- من مواليد مدينة نابلس الفلسطينية
- حائزة على الدكتوراة في الرواية الحديثة من الولايات المتحدة الأمريكية.
- من أشهر رواياتها: لم نعد جواري لكم، الصبار، عباد الشمس، مذكرات امرأة غير واقعية، باب الساحة، الميراث، وربيع حار.
- ترجمت رواياتها للعديد من اللغات.

- معروف عن الروائية تركيزها على قضايا المرأة والكفاح الوطني الفلسطيني

احمد حرب

- من مواليد بلدة الظاهرية في الخليل/ فلسطين.
- تخرج من كلية الآداب في الجامعة الأردنية ونال درجة الماجستير والدكتوراة في الأدب الإنجليزي من الولايات المتحدة الأمريكية.
- باحث وأكاديمي ويتسلم الآن (2005) منصب عميد كلية الآداب في جامعة بيرزيت، وهو محاضر لسنوات فيها في الأدب الإنجليزي والمقارن.
- عضو برنامج الكتّاب العالمي الذي تشرف عليه جامعة أيوا.
- له عدة روايات: حكاية عائد، إسماعيل، الجانب الآخر لأرض المعاد، وبقايا.
- نشر العديد من الدراسات في الأدب والنقد باللغتين العربية والإنجليزية.

(المرجع- تظهير رواياته ومعلومات شخصية للباحث)

عزت غزاوي

- من مواليد قرية دير الغصون/ طولكرم في فلسطين.
- درس الأدب الإنجليزي في الجامعة الأردنية والولايات المتحدة الأمريكية.
- ترأس اتحاد الكتاب الفلسطينيين منذ العام 1995 وحتى وفاته في العام 2000.
- عمل محاضراً في جامعة بيرزيت للأدب الإنجليزي وكان عضواً في بيت الشعر الدولي في بروكسل.
- اعتقل بتهمة الانتماء لحركة فتح وكان يمثلها في اتحاد الكتاب الفلسطينيين.

- كتب العديد من الروايات أبرزها: جبل نبو، الحواف، الخطوات، عبد الله التلالي، وله العديد من الدراسات النقدية والترجمات.
- ترجمت أعماله الروائية (الخطوات، عبد الله التلالي، جبل نبو، ورسائل لم تصل بعد) للعديد من اللغات.
- حاز جائزة زخاروف عن البرلمان الأوروبي عن أعماله المترجمة. حصلت روايته سجينة على جائزة اتحاد الكتاب في العام 1989. حصلت روايته(رسائل لم تصل بعد) على الجائزة الدولية لحرية التعبير- ستافنجر 1994. حصلت روايته(عبد الله التلالي) على جائزة فلسطين للرواية في العام 1999.

(المرجع- تظهير مجموعته ما قال الرواة ومعلومات شخصية للباحث)

مايا أبو الحيات

- من مواليد بيروت في العام 1980.
- عاشت في عمان وتونس حتى عادت مع عائلتها في العام 1995 بعد الاتفاق بين منظمة التحرير والحكومة الإسرائيلية (أوسلو).
- حصلت على البكلوريوس في الهندسة المدنية من جامعة النجاح في نابلس.
- تعمل حالياً في مؤسسة المواصفات والمقاييس الفلسطينية.
- أصدرت رواية واحدة حتى الآن (حبات السكر) ونصاً أدبياً منشوراً.